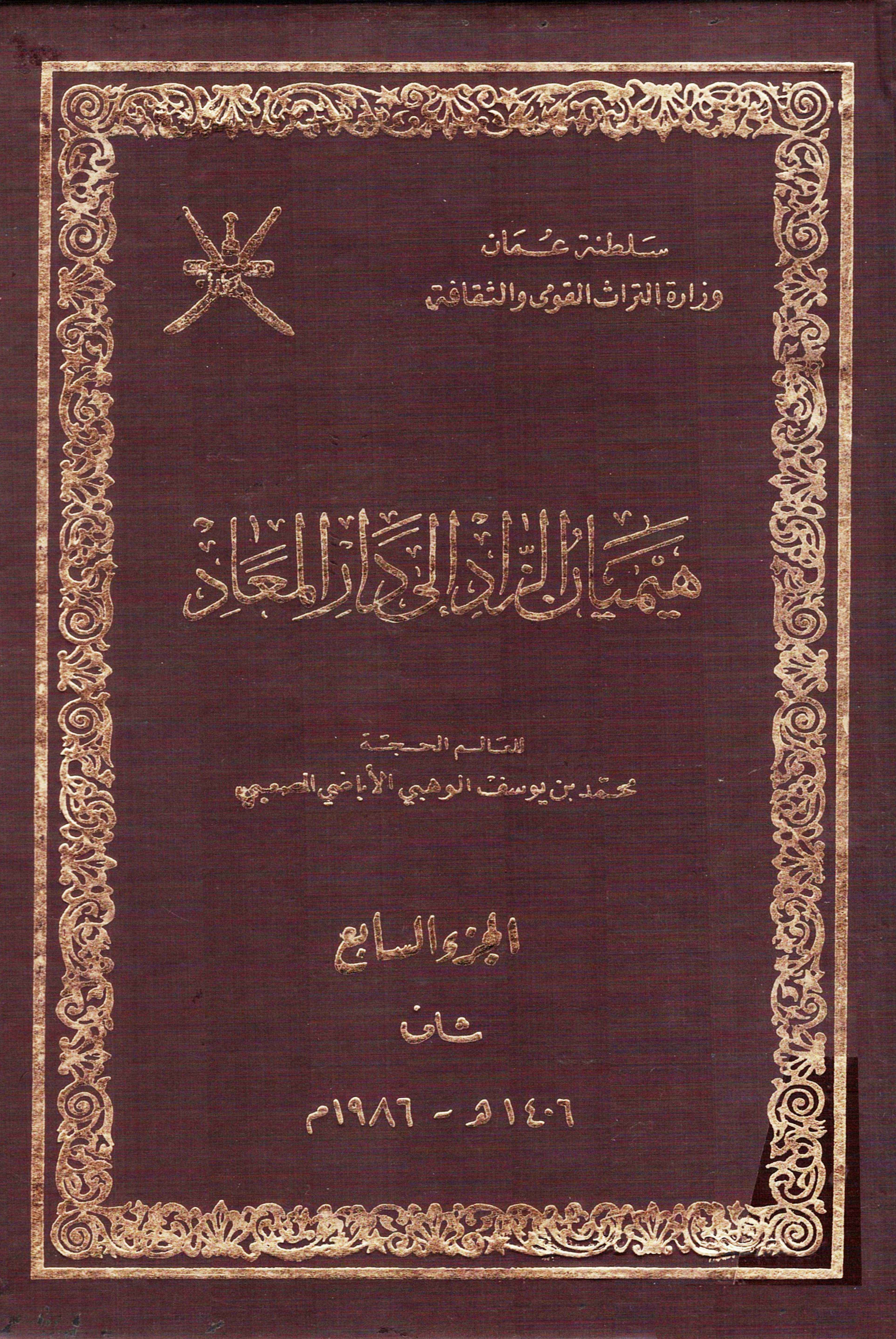
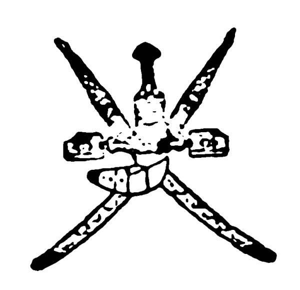

سلطنة عُمان
وزارة التراث القومي والثقافة
هميان الزاد إلى دار المعاد
العالم الحجة
محمد بن يوسف الوهبي الأباضي المصعبي
الجزء السابع
ثانٍ
١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م



سلطنة عُمان
وزارة التراث القومي والثقافة



للعالم الحجة
محمد بن يوسف الوهبي الاباضي المصعبي

الجزء السابع

القسم الثاني

١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة براءة [التوبة]

وتسمى أيضا التوبة ، لقوله : « لقد تاب الله على النبى » الآية قاله حذيفة وغيره ، وهما أشهر أسمائها •

وتسمى الفاضحة ، قــاله عمر ، وابن عبــاس ، وعكرمة ، قــال ابن عباس : مازالت تقول : « ومنهم » حتى ظنوا أن لا يبقى أحد إلا ذكر فيها ، ولما قال ابن جبير : سورة التوبة ، قال ابن عباس : بل هى الفاضحة •

وعنه : أنزل الله فيها ذكر سبعين رجلا بأسمائهم وأسماء آبائهم ، ثم نسخ ذكر الأسماء رحمة منه على المؤمنين ، لئلا يعير بعضهم بعضا ، لأن أولادهم مؤمنون ، وعن عمر : ما فرغ من تنزيل براءة حتى ظننا أنه لم يبق منا أحد إلا ينزل فيه ، وكان إذا قيل له : سورة براءة ، قال : هى العذاب أقرب ، ما كادت تقلع عن الناس حتى كادت لا تبقى منهم أحدا ، وتسمى سورة العذاب ، قاله عكرمة ، وعمر ، وحذيفة •

وعنه : تسمونها سورة التوبة ، وإنما هى سورة العذاب ، والله ما تركت أحدا إلا نالت منه •

وتسمى المقشقشة ، وعن زيد بن أسلم : أن رجلا قال لابن عمر : سورة التوبة ، فقال : وأيتهن سورة التوبة ؟ فقال : براءة ، فقال : وهل

فعل بالناس الأفاعيل إلا هى ، ما كنا ندعوها إلا المقشقشة أى المبرئة من النفاق •

وتسمى الحافرة لأنها حفرت عن قلوب المنافقين ، وذكره ابن الفرس •

وتسمى المبعثرة ، لأنها بعثرت عن أسرار المنافقين ، أى بحثت عنها ، ذكره الحارث بن زيد ، وابن الفرس ، والسخاوى •

وتسمى المثيرة ، لأنها أظهرت معايبهم •

وتسمى البحوث بفتح الباء لبحثها عن أسرارهم ، ذكره الحاكم عن المقداد ، قيل للمقداد : أو قعدت العام عن الغزو ؟ فقال : أبت علينا البحوث يعنى براءة •

وتسمى المخزية ، لأنها أخزتهم •

وتسمى المدهشة ، لأنها مروعة وفيها هلاكهم •

وتسمى المشردة لأنها شردتهم •

وتسمى المنفرة بالفاء ، والمنقرة بالقاف لأنها نقرت عما فى قلوب المنافقين ، وقال عبيد بن عمير : عما فى قلوب المشركين •

وتسمى المنكلة ، لأنها مخوفة ومعذبة •

وتسمى المدمدمة ، لأنها مدمدت عليهم •

وتسمى الجاهرة ، لأنها جهرت بأسرارهم .

وهى مدنية كلها ، وقال ابن الجوزى ، وابن الفرس إلا آيتين : « لقد جاءكم رسول » إلى آخرها ، قال السيوطى : وهو غريب ، كيف وقد ورد أنهما آخر ما نزل ، واستثنى بعضهم « ما كان للنبى » الآية لما ورد أنها نزلت فى قوله صلى الله عليه وسلم لأبى طالب : لأستغفرن لك ما لم أنه عنك » .

وآيها مائة وثلاثون ، وقيل : مائة وتسع وعشرون ، وكلمها أربعة آلاف وثمانون كلمة ، وقيل : أربعة آلاف وسبعون ، وحروفها عشرة آلاف وأربعمائة وثمانون حرفا ، وقد مر عنه صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة الأنفال وبراءة فأنا له شفيع يوم القيامة » الخ .

ولم تكن البسملة أولها ، لأنهـا نزلت بالسيف ، ورفع الأمـان ، وبسم الله الرحمن الرحيم أمان ، قاله على ، وابن عباس ، وعليه الشاطبى والمبرد ، وقاله ابن عيينة فقيل له : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب إلى أهل الحرب : « بسم الله الرحمن الرحيم » قال : إنما ذلك ابتـداء يدعوهم ، ولم ينبذ إليهم ، وسأل ابن عباس عثمان عن ذلك فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزلت عليه السورة أى الآية قال : « اجعلوها فى الموضع الذى يذكر فيه كذا وكذا » وتوفى ولم يبين لنـا أين نضعها ، وكانت قصتها شبيهة بقصة الأنفال ، فقرنت بينهما ، بلا فصل بالبسملة ، وكانتا تدعى القرينتين فى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووضعتها فى السبع الطوال .

وروى أن كتبة المصحف فى زمان عثمان اختلفوا : هل هما سورة أو

سورتان ، وتركوا فصلا نظرا للثانى ، ولم يكتبوا البسملة نظرا للأول ، ورضوا بذلك ، وضعف هذا ، وعن أبى بن كعب : كان صلى الله عليه وسلم يأمرنا بوضع بسم الله الرحمن الرحيم فى أول كل سورة ، ولم يأمرنا فى هذه فلم نضعها ، وعن سعيد بن جبير : كانت براءة كالبقرة ، ثم نسخ منها كثير ، قال بعض : وكانت البسملة فيما رفع ، فلم يروا بعد أن يضعوها فى غير موضعها .

قال أبىّ بن كعب : إنما اختلفوا هل هما سورة أو اثنتان ؟ لأن فى الأنفال ذكر العهود وفى براءة نبذها ، وسمع أعرابى قراءة براءة فقال : أظنها من آخر ما نزل على رسول الله ، فقيل له : لِمَ ؟ فقال : أرى أشياء تنقض ، وعهود تنبذ .

وفى رواية سأل ابن عباس عثمان عن ترك البسملة فى أولها ، ووضع الأنفال مع أنها من المثانى بعدها ، وهى من الطوال ، وبين الأعراف ؟ فأجاب بما مر ، وزاد أن الأنفال أول ما نزل بالمدينة ، وبراءة آخر ما نزل ، وإنى ظننت أنها منها لتشابه قصتهما ، وكان قتادة يقول هما سورة .

(بَرَاءَةٌ مِنَ اللهِ ورسولِهِ) خبر لمحذوف ، أى هذه براءة ، وإلى متعلقه ببراءة ، أو يتعلق من بمحذوف نعت براءة ، أى براءة وأصله من الله ورسوله ببراءة ، أو مبتدأ خبر هو قوله : (إلَى الَّذِينَ عاهَدْتُم من المُشْرِكِينَ) وقرأ عيسى بن عمرو : براءة بالنصب على المفعولية لمحذوف ، أى اسمعوا براءة ، أو التزموا براءة ، وقرأ أهل نجران : من الله بكسر النون ، والأفصح فتح نون من مع أل وهو الكثير .

والمراد أن الله ورسوله قد برئا من العهد الذى عاهدتم به المشركين وهو منبوذ إليهم ، لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك جعل المنافقون يرجفون ، وجعل المشركون ينقضون عهودا ، فأمر بنبذها إليهم ، وكان المؤمنون قد عاهدوا المشركين من أهل مكة وغيرهم من العرب ، بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلذلك علقت المعاهدة بالمؤمنين ، ولأن القتال هم التالوه أو تالوا غالبه لا النبى صلى الله عليه وسلم ، وعلقت البراءة بالله سبحانه ، لأن هو الذى يحل ويحرم على لسان رسوله ، كما عطف رسوله ، أو عاقدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضوا بعقده ، فنسب إليهم ، وأيضا عقده لازم لهم ، فهو عقد لهم ، ونكث المشركون العهد إلا بنى ضمرة ، وبنى كنانة ، وبنى مدلج ، ونبذ العهد إلى المشركين ، قال ابن إسحاق : مما عوهدوا عليه أن لا يصدوا أحدا عن البيت الحرام .

(فَسِيحُوا فى الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ) هذا خطاب للمشركين أن يسيروا فى الأرض حيث شاءوا ، آمنين أن يضرهم أحد من المسلمين ما لم تتم أربعة أشهر ، ويتفكروا فيها ويختاروا ، فإنه ليس بعدها إلا الإسلام أو القتل ، وذلك إعلان لهم خروج عن الغدر ، وابتداء الأجل

المذكور يوم الحج الأكبر وانقضائه تمام عشرة من ربيع الآخر ، ومن كان له عهد قد رفع إلى هذا وأكثر ، حط إلى هذا أو لا عهد له فهذا عهد قاله السدى .

قال : وذلك هو الأشهر الحرم استعير لها هذا الاسم لهذه الحرمة ، والأمن الخاص أو للتغليب ، لأن ذا الحجة والمحرم منها ، وفى أول ذلك الأجل نزلت الآية ، ونسبه بعضهم للأكثر ، وقال ابن عباس ، والزهرى : الأشهر الأربعة : شوال ، وذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، وأن الآية نزلت فى شوال ، وقيل : الحادى عشر من ذى القعدة إلى عشرين من ربيع الأول ، لأن الحج فى تلك السنة ، كان فى ذلك الوقت للنسىء الذى كان فيهم ، ثم صار فى السنة بعدها فى ذى الحجة ، واستمر فيها ، وفى هذه حج صلى الله عليه وسلم وقال : « ألا إن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلقه الله » .

وقيل : كان ابتداؤها فى العاشر من ذى القعدة ، وانقضاؤها فى العاشر من ربيع الأول ، والحج فى تلك السنة فى ذلك الوقت ، وقيل أجل لمن له عهد أربعة أشهر من شوال ، وأجل سائر المشركين خمسون يوما من يوم الأذان ، واعترض بأن الأجل لا يلزم إلا من يوم سمع ، ويحتمل أن البراءة كانت سمعت من أول شوال ، وكرر إشهارها مع الأذان يوم الحج كذا قيل .

وقال الضحاك : هذه الأربعة من يوم الأذان لانقضاء العشر الأول من ربيع الأخير لمن له عهد تحسس بنقضه ، وقوله : « فإذا انسلخ الأشهر الحرم » إلى آخره فيمن لا عهد له ، فوافق أجل تأمينهم خمسين يوما ، أولها يوم الأذان ، وآخرها انقضاء المحرم ، وقوله : « الذين

عاهدتم » فيمن له عهد لم ينقضه ، وهم بنو ضمرة ، وكنانة ، وقيل : عاهد لضمرة المخش بن خويلد ، وبقى من عهدهم يوم الأذان تسعة أشهر ؛ وقيل أربعة الأشهر لمن لا عهد له ، أو له عهد دونها ، أو على تمامها ، وأما من له عهد أكثر فإنه يوفى له « فأتموا لهم عهدهم إلى مدتهم » .

وقال مجاهد : نزلت فى أهل مكة ، عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية أن يضعوا الحرب عشر سنين ، ودخلت خزاعة فى عهده ، بعث بعده عليا راكبا على العضباء ، وهى ناقته صلى الله عليه وسلم ، والغضبا وبنو بكر فى عهد قريش ، فنكثوا كما يأتى إن شاء الله فى سورة النصر أو الفتح ، وكان فتح مكة سنة ثمانٍ ، وأمَّر عليهم عتاب بن أسيد حديث السن .

ولما كانت سنة تسع أراد صلى الله عليه وسلم الحج فقيل له : إن المشركين يحضرون ويطوفون بالبيت عراة ، فبعث أبا بكر تلك السنة أميرا على الموسم ليقم للناس حجهم ، وأمره أن يقرأ فى الموسم على الناس أربعين آية من أول براءة ، وقيل : ثلاثين ، وقال سليمان بن موسى الشامى : ثمان وعشرين آية ، وقيل : عشرين ، وقال مجاهد : ثلاث عشرة ، وقيل : عشر ، وقيل : تسع وقيل له : لو بعث بها إلى أبى بكر ؟ فقال: « لا يؤدى عنى إلا رجل منى » وهذا فى نقض العهد كإثباته كما روى : « لا ينبغى لأحد أن يبلغ هذا إلا رجل من أهلى » وعادة العرب أن لا يثبتوا العهد أو ينقضوه إلا سيد القبيلة ، أو رجل من أقاربه عنه فأزيحت علتهم بعلى ، وأبو بكر متقدم عليه رتبة وسنا ، وأمير على الموسم ، وإمام يصلى بعلى وغيره ، ويخطب .

وقد قيل : إنه بعث عليا ليصلى خلفه كالتنبيه على إمامته العظمى بعد ، وقيل : تطييبا لقلب على ، ورعاية لجنابه ، وقيل : إن أول براءة نزل بعد خروج أبى بكر ، ولما دنا علىّ سمع أبو بكر الرغاء فوقف وقال : هذا رغاء ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولما لحقه قال : أمير أو مأمور ؟ قال : مأمور ، وروى أنه لحقه فى العرج وقد استوى لتكبير الصبح بعد التثويب ، فوقف عن التكبير فقال : هذا رغاء ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم الجدعاء ، لقد بدا له الحج ، فإن كان فهو يصلى بنا ، فإذا عليها علىّ فسأله فقال مأمور بقراءة براءة فى مواقف الحج .

وخطب أبو بكر قبل التروية ، وعلم الناس مناسكهم فقرأها على حتى ختمها ، وخطبهم يوم عرفة ، وحدثهم عن مناسكهم ، فقرأها علىّ حتى ختمها ، وخطبهم يوم النحر ، وحدثهم عن إفاضتهم ، فقرأها علىّ حتى ختمها يقرأهما فى ذلك كله قائما .

وروى أن أبا بكر كان ببعض الطريق ، وهبط جبريل فقال : يا محمد لا يبلغن رسالتك إلا رجل منك فأرسل عليا ، فرجع أبو بكر إلى رسول الله فقال : يا رسول الله أشىء نزل من السماء ؟ قال : « نعم فسر وأنت على الموسم وعلىّ ينادى بالآى » وكان قبل ذلك أمر أبا بكر بالآى ، وفى رواية قال حين رجع : بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، أنزل فى شأنى شىء ؟ قال : « لا ولكن لا ينبغى لأحد أن يبلغ هذا إلا رجل من أهلى ، أما ترضى يا أبا بكر أنك أنت معى فى الغار ، وأنك معى على الحوض ؟ » قال : بلى يا رسول الله .

وخطب أبو بكر فى اليوم الذى قبل يوم التروية ، وحدثهم عن

مناسكهم ، وأقام حجهم ، والعرب فى تلك السنة على أمر الجاهلية فى الحج ، وقام علىّ يوم النحر عند جمرة العقبة فقال : يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم ، فقالوا : بماذا ؟ فقرأ عليهم الآى ، ثم قال : أمرت بأربع : أن لا يقرب البيت بعد هذا العام مشرك ، وفى رواية لا يجتمع المؤمنون والمشركون بعد عامهم هذا فى حج ، وروى لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ولا تدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، وأن يتم إلى كل ذى عهد عهده ، ومن لا عهد له فعهده إلى أربعة أشهر . فقالوا عند ذلك : يا علىّ أبلغ ابن عمك أنا قد نبذنا العهد وراء ظهورنا ، وأن ليس بيننا وبينه عهد إلا طعنا بالرماح ، وضربا بالسيوف . ثم تلاوموا فقالوا : ما تصنعون وقد أسلمت قريش فأسلموا كلهم .

وروى أنهم ندموا فقالوا : يا على نحن على المدة التى ذكرت ، وذلك فى السنة التاسعة ، وحج صلى الله عليه وسلم فى العاشرة ، وهى حجة الوداع ، وقال قوم منهم الداودى الماوردى : حج أبو بكر فى ذى الحجة حقيقة ، فيناسبه ما رواه ابن إسحاق ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقام بعد ما رجع من تبوك رمضان ، وشوالا ، وذا القعدة ، ثم يعث أبا بكر أميرا على الحج ، وهو ظاهر فى أن بعث أبو بكر فى ذى القعدة .

وفى رواية : خطب أبو بكر بعرفة فقال : قم يا على فأدى رسالة رسول الله فقام ففعل ، قال على : ثم وقع فى نفسى أن الناس لم يشهدوا خطبة أبى بكر كلهم ، فجعلت أتتبع الفسطاط يوم النحر ، وأرسل أبو بكر معه أبا هريرة يعينه وغيره ، وتتبعوا أسواق العرب كذى المجاز ، وعكاظ ومجنة ، وفى رواية أمر عليا أن يؤذن بمكة ومنى وعرفة : أن قد برئت ذمة الله ورسوله من كل مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان .

(واعْلَمُوا أنكُم غَيرُ مُعْجِزِى اللهِ) غير فائتيه ، ولو أمهلكم هذه المدة فإنكم فى قبضته (وأَنَّ اللهَ مُخْزِى الكَافِرِينَ) مذلهم فى الدنيا بالقتل والأسر والسلب فى الدنيا ، وبالعذاب فى الآخرة .

(وأذانٌ مِنَ اللهِ ورسُولِهِ) أى إعلام منهما ، وهو اسم مصدر آذن كآمن أمانا ، وأعطى عطاء ، والمصدر أذان وإيمان وإعطاء ، ومن ذلك الأذان للصلاة ، فإنه إعلام بوقتها ، والجار والمجرور نعت لأذان ، الأصل أذان ثابت من الله ورسوله ، أو النعت كون خاص ، أى منهما .

(إلى النَّاسِ) كلهم ، وإعراب ذلك كإعراب « براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين » ولا وجه لقول بعضهم إنه معطوف على براءة ، إلا إن أراد عطفه وما بعده على براءة وما بعده ، وهذه الجملة إخبار بوجوب الإعلام بما يثبت ، وتلك أخبار بثبوت البراءة ، والبراءة مختصة بالمعاهدين ، معلقة بهم ، والأذان عام فعلق بالناس .

(يَومَ الحجِّ الأكْبرِ) متعلق بأذان ، ولو وصف لبقاء رائحة الفعل فيه ، وهى عاملة فى الظروف ، وقيل : لا يجوز عمل المصدر واسمه إذا وصفا لزوال قوة الفعل ، وأجيز تعليقه بأذن أو أخزى محذوفا ، وقيل : متعلق لمخزى وهو بعيد ، ووجه تعليقه بأذان ، أو بأذن مع أن الآيات نزلت قبل ذلك أن إعلام الناس بها كان يوم الحج الأكبر وهو يوم عيد الأضحى عند عبد الله بن أبى أوفى ، والمغيرة بن شعبة ، والشعبى ، والنخعى ، وابن جبير ، والسدى ، قال علىّ : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن يوم الحج الأكبر قال : « يوم النحر » .

وعن عمر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف يوم النحر بين الجمرات فى الحجة التى حج فيها فقال : « أى يوم هذا ؟ » فقال : يوم النحر ، فقال : « هذا يوم الحج الأكبر » وبذلك قال أبو هريرة ، وقال على فى رواية ، وابن عباس ، وعكرمة ، وعمرو ، وابن عمر ، وابن الزبير ، وعطاء ، وطاووس ، ومجاهد ، وابن المسيب : يوم عرفة وأن فيه وقوع أول الأذان ، والصحيح الأول لما روى ، وقد مر ، وفى الأضحى كمل الأذان ، واحتج بعض على أنه عيد الأضحى بأن من فاته الوقوف يوم عرفة يجزيه الوقوف ليلة النحر ، وهو احتجاج باطل •

وعن منذر بن سعيد : كان الناس يوم عرفة مفترقين إذا كانت قريش تقف بالمزدلفة ، وكان الجميع يوم النحر وهو يوم الأضحى بمعنى ، فيوم الحج الأصغر يوم عرفة لافتراقهم ، ويوم الحج الأكبر يوم النحر لاجتماعهم ، ولكن قريشا ومن تبعها وقفوا بالمزدلفة فى حجة أبى بكر هذه • وقال مجاهد ، وسفيان الثورى : يوم الحج الأكبر أيام منى ، فاليوم بمعنى الزمان ، كما يقال : يوم صفين ، ويوم الجمل ، مع بقاء القتال أياما ، ورجحه بعضهم بما مر أذان على يوم عرفة ويوم النحر وبعده ، ونسب لسفيان بن عيينة •

وقال عبد الله بن الحارث بن نوفل ، وابن سيرين ، والحسن البصرى : هو يوم حجة الوداع فقط ، فلم يكن قبل ، ولن يكن بعد ، لأنه اجتمع فيه حج المسلمين ، وعيد اليهود ، وعيد النصارى ، وعيد المشركين أخزاهم الله ، ولم يجتمع ذلك قبل ، ولا يجتمع بعد ، وضعف بأنه لا يصفه الله لهذا بأنه أكبر ، وأجيب بأن المراد بوصفه بذلك أنه كثر معظموه ، واتفق الناس على تعظيمه : مسلمهم وكافرهم ، والصحيح

كما مر أنه عيد النحر مطلقا ، ووصف بذلك لأن فيه تمام الحج ، ومعظم أفعاله ، ولأن الإعلام كان فيه .

ومن قال : يوم حجة الوداع ، فالأولى له فى تقليل وصفه أن يقول : وصفه لأن فيه حجة الوداع ، ولأنه يوم الجمعة ، وودع الناس فيه ، وخطبهم وعلمهم المناسك ، وذكر فى خطبته استدارة الزمان ، وأبطل أحكام الجاهلية ، وقد أبطلها يوم الفتح أيضا .

وقيل : يوم الحج الأكبر ذلك اليوم الذى حج فيه أبو بكر ، ونبذت فيه العهود ، وعز فيه الإسلام ، ولذا وصف بأنه أكبر ، وهى رواية عن الحسن البصرى ، وقيل : إن يوم الحج الأكبر يوم النحر ، والحج الأصغر العمرة ، وبه قال عطاء ، وقال الشعبى : الحج الأكبر الحج ، والأصغر العمرة فى رمضان ، وقال مجاهد : الأكبر القران بين الحج والعمرة ، والأصغر الإفراد ، وإنما يكون هذا مقبولا يدخل به فى الآية إن أريد به حج أبى بكر إن كان قارنا ، أو يوم حجة الوداع إن كانت بالقران ، وقد يقال : المراد يوم النحر مطلقا ووصفه بالأكبر مدح لا تحرز عن كبير أو صغير .

(أنَّ الله برىءٌ منَ المشْركينَ) فتحت همزة أن لأن الأذان بمعنى الإعلام ، أو لتقدير الباء ، أى بأن الله ، كسرت فى قراءة الحسن والأعرج ، لأن الأذان فيه معنى القول (ورسُولُهُ) بالرفع عطفا على الضمير المستتر فى برىء ، لوجود الفصل ، أو بالرفع على الابتداء ، والخبر محذوف أى ورسوله برىء منهم ، أو ورسوله كذلك ، وزعم بعض الكوفيين أنه معطوف على أصل اسم أن فإنه فى الأصل مرفوع ، وأن رفعه منوى ، ولو تغير لفظه بأن المفتوحة الهمزة ، أو المكسورة الهمزة فى الآية ، وعليه

فإنما أفرد الخبر لأنه بوزن فعيل بمعنى فاعل ، وما كان كذلك يجوز إفراده مع غير الواحد .

قالوا : وهو مرفوع عطفا على محل أن واسمها ، فإنهما مبتدأ عند جماعة ، وهذا فى قراءة الكسر ، وقيل بهذا فى إن بالكسر وأخواتها ، وقرأ ابن إسحاق ، وعيسى بن عمر بالنصب عطفا على اسم أن ، وأفرد الخبر لما مر ، أو يقدر خبر معطوف على خبر أن بمنزلة قولك : إن زيدا قائم وعمرا قائم ، أو النصب على المعية ، فناصبه برىء .

وحكى جار الله : أن بعضا قرأ ورسوله بالجر على الجوار ، والذى يختاره ابن هشام أن الجر على الجوار ممنوع فى العطف لفصل العاطف ، وقيل : الجر على القسم فهو كقولهم : إن فرعون وهامان وقارون والنمرود والنبيين جميعا لفى سقر ، بأن الواو الداخلة على لفظ اليمين للقسم .

وقال محمد بن قاسم ، وأبو بكر الأنبارى فى أماليه ، وأبو القاسم ابن عساكر فى تاريخ دمشق ، عن ابن أبى مليكة أن أعرابيا قدم إلى المدينة فى زمان عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : من يقرئنى مما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فأقرأه رجل : « براءة من الله ورسوله » وقال : أن الله برىء من المشركين ورسوله بالجر ، فقال الأعرابى : أو قد برىء الله من رسوله ، إن يكن الله بريئا من رسوله فأنا أبرأ منه .

فبلغ عمر مقالة الأعرابى فدعاه فقال : يا أعرابى أتبرأ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، إنى قدمت المدينة ولا

علم لى بالقرآن فسألت من يقرئنى فأقرأنى هذا سورة براءة فقال : إن الله برىء من المشركين ورسولِهِ ، فقلت : أو قد برىء الله من رسوله ، إن يكن الله برىء منه فأنا منه برىء ، فقال عمر : ليس هكذا يا أعرابى قال ، فكيف هى يا أمير المؤمنين ؟ فقال : « أن الله برىء من المشركين ورسولُهُ » فقال الأعرابى : وأنا والله أبرأ ممن برىء الله ورسوله منه ، فأمر عمر بن الخطاب أن لا يقرأ القرآن إلا على عالم باللغة ، وأمر أبا الأسود فوضع علم النحو .

وأخرج ابن الأنبارى فى أماليه ، من طريق محمد بن خالد المهلبى ، عن أبيه قال : سمع أبو الأسود رجلا يقرأ أن الله برىء من المشركين ورسوله بالجر ، فقال : لا أظننى يسعنى إلا أن أضع شيئا أصلح به لحن هذا ، وأخرج من طريق العتبى أن معاوية كتب إلى زيادة يطلب عبيد الله ابنه ، فلما قدم عليه كلمه فوجده يلحن ، فرده إلى زياد وكتب إليه يلومه ويقول : أمثل عبيد الله يضيع ، فبعثه زيادة إلى أبى الأسود فقال له : يا أبا الأسود إن هذه العجمة قد كثرت وأفسدت من لسان العرب ، فلو وضعت شيئا يصلح به الناس ألسنتهم ، ويعرفون به كتاب الله ، فأبى ذلك أبو الأسود ، فوجه زياد رجلا وقال له : اقعد فى طريق أبى الأسود ، فإذا مر بك فاقرأ شيئا من القرآن وتعمد اللحن ، فلما مر أبو الأسود رفع الرجل صوته يقرأ : أن الله برىء من المشركين ورسوله بالجر ، فاستعظم ذلك أبو الأسود ، فقال : عز وجه الله أن يتبرأ من رسوله ، ثم رجع من فوره إلى زياد وقال لــه : أجبتك إلى ما سألت ، والبراءة الأولى إبطال للعهد ، وهذه نقيض الموالاة الجارية مجرى الزجر والوعد .

(فإنْ تُبْتُمْ) عن الكفر والغدر (فَهو خَيرٌ لكُم) أى فالتوب

خير لكم ، أو فالمتاب خير لكم ، وليس كما قيل : إن مصدر تاب توبة دون توب ، وإنه لا يقال فى مصدره : توب إلا فى الضرورة بحذف التاء للضرورة ، بل يقال فى السعة : توبة وتوب ، ومتاب ومتابة ، قال الله سبحانه ، « وقابل التوب » .

(وإنْ توليتم) أعرضتم عن التوبة فلم تتوبوا ، أو عن الإسلام والوفاء به بعد التوبة (فاعلموا أنكم غيرُ معجزى الله) غير فائتين عذابه وأخذه ، وهذا وعيد يقع عليهم فى الدنيا (وبشِّر الذين كفروا بعذاب أليم) فى الآخرة ، ولفظ التبشير استهزاء بهم .

(إلا الذين عاهدتم من المشركين) استثناء من المشركين فى قوله : « براءة من الله ورسوله » إلى : « الذين عاهدتم من المشركين » أو استدراك على جملة ذلك الكلام ، فعلى هذا فهو استثناء منقطع ، كأنه كأنه قيل : براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين ، فقولوا لهم : سيحوا فى الأرض أربعة أشهر ، لكن الذين عاهدتم منهم (ثمَّ لم ينقصوكم شيئاً) من العهد ، وقرأ عطاء بن يسار ، وعكرمة ، وابن السميفع : ولم ينقضوكم شيئا بضاد معجمة ، وتعدى للكاف لتضمنه معنى النقص بصاد مهملة ، أو على تقدير حرف أى ولم ينقضوا لكم شيئا .

(ولم يظاهروا عليكم) لم يعينوا عليكم ، والظهير المعين ، وأصله من الظهر ، كان هذا يسند ظهره إلى الآخر والآخر إليه (أحداً) من أعدائكم (فأتموا إليهم عهدهم) عدى لإتمام بعلى لتضمنه معنى

التأدية (إلى مُدَّتهم) أى إلى تمامها ، ولا تجروا الوفى مجرى الناكث (إنَّ اللهَ يُحبُّ المتَّقينَ) ومن التقوى أن لا يسووا بين الوفى والناكث ، وهؤلاء الذين لم ينقصوا شيئا من العهد ، ولم يظاهروا هم الذين من أنهم بقى من عهدهم تسعة أشهر ، قاله ابن عباس •

وقال قتادة : هم الذين عوهدوا من الحديبية ، ورد بإسلام قريش فى الفتح قبل الأذان بذلك ، فالمدة على الأول تسعة أشهر ، وعلى الثانى عشر سنين وهو غير صحيح ، لما مر آنفا ، لنقضهم قبل نزول الآية ، وقال ابن عباس : المدة فى رواية أربعة أشهر ، لأنه يرى أربعة الأشهر فى رواية عنه مدة لمن لا مدة له ، ولمن له مدة أقل منها أو أكثر أو مثلها •

(فإذا انْسَلَخَ الأشْهرُ الحُرُمُ) انقضت ، وأصل الانسلاخ خروج الشىء مما يلبسه ، والأشهر الحرم أربعة الأشهر التى جعل للمشركين أن يسيحوا فيها ، وقد مر الخلف فيها ، سميت حرما لتحريم القتال فيها فى ذلك العام ، وقيل : لتحريم نبذ العهد فيها فى ذلك العام ، وقيل : رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ووجهه أن المدة أخذت من هذه الأربعة ، وكان تمامها تمام هذه الأربعة ، فصح تأجيلها بانسلاخ الأربعة ، فليس هذا القول مخلا بالنظم •

غير أن تسمية رجب وذى القعدة وذى الحجة والمحرم أشهرا حرما ، والتأجيل بانسلاخها يقتضيان بقاءها كما كانت قبل ، على تحريم القتال فيها ، مع أن العلماء أجـ ـوا على أن القتال فيها حلال ، ولم ينزل ناسخ لها فيما قال القاضى ، فلا تحمل الأشهر الحرم على هذه الأربعة لئلا

يخالف الإجماع ، وحملها جار الله عليها ، وقال : إن العلماء أجمعوا على حل القتال فيها لنزول ناسخها •

(فاقْتلُوا المشْركينَ حَيْثُ وجدْتُموهُم) فى الحل والحرم ، قيل : وعند البيت ، وهذه الآية ناسخة لكل آية أمر فيها بالكف أو بالمهادنة ، وذلك مائة وأربع عشرة آية ، وقيل : مائة وأربع وعشرون ، زعم بعضهم أن ذلك عجيب ، نسخت هذه الآية ذلك العدد من الآى ، ثم نسخت بقوله : « وإن أحد من المشركين » •

قلت : بل قوله : « وإن أحد » الآية ، قيل فيها : لا ناسخ لها ، والمراد بالمشركين من لا عهد له ، أو له عهد على تمام الأربعة ، أو له عهد أقل منها ، أو له عهد أكثر ونقصه ، وقيل : كل مشرك ، وزعم عطاء والسدى والضحاك ، أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : « فإمَّا منًّا بعدُ وإمَّا فداء » وقالوا : لا يجوز قتل الأسير ، بل يمنّ عليه بالإطلاق ، أو يفادى ، وزعم قتادة ومجاهد أنها ناسخة لقوله تعالى : « فإمَّا مناً بعدُ وإما فداء » وقال : لا يجوز فى الأسير إلا القتل ، وقال ابن زيد الأندلسى : إن الآيتين محكمتان ، لأن هذه فى حال القتال ، وليس فيها ذكر للأسر ، وتلك فى الأسر ، والأسر غير القتال وهو الصحيح •

(وخُذُوهُم) وأسروهم ، والأخيذ الأسير (واحْصُروهُم) احبسوهم لتتمكنوا منهم ، وعن ابن عباس : أحضروهم أن تحصنوا ، وعنه حصرهم أن يحال بينهم وبين المسجد الحرام ، وقيل : امنعوهم من دخول مكة ، والتصرف فى بلاد الإسلام •

(واقْعُدُوا لَهم كُلَّ مَرْصدٍ) كلّ موضع يصلح أن يرصد فيه العدو ، أى يرتقب فيه بأن يكون بئرا له لئلا ينبسطوا فى البلاد ، وقيل : المراد طريق مكة ، ولئلا يدخلوها ، ونصب كل على الظرفية المكانية ، لأنه ينصب على الظرفية إذا أضيف إلى ما يدل على زمان ، أى مكان ولو لم يصلح هذا المضاف إليه للنصب على الظرفية كمرصد هنا ، فإنه لا يصلح لها لأنه ولو كان اسم مكان ، لكنه لم يتسلط عليه ، ما هو فى لفظه ومعناه ، وقيل : منصوب على نزع الخافض ، أى فى كل مرصد أو على كل مرصد .

(فإنْ تابُوا) عن الشرك (وأقامُوا الصَّلاةَ) المفروضة أتموها (آتَوُا الزَّكاةَ) تصديقا لتوبتهم (فَخلُّوا سَبيلَهم) لا تعطلوه عنهم يمشون حيث شاءوا ، فإنهم حينئذ مثلكم ، والآية دليل على أن تارك الصلاة ، ومانع الزكاة لا يخلى سبيلهما ، وأن مكان الصلاة والزكاة من الشرع عظيم ، فقد قرنا بالتوحيد (إنَّ اللهَ) تعليل جملى (غَفورٌ) للتائب (رَحيمٌ) له ، فإن التائب توبة نصوحا من أولياء الله .

روى أن عليا قرأ : « براءة من الله ورسوله » إلى : « وأن الله مخزى الكافرين » فى الموسم فقال المشركون : يا على ولم تسيرنا فى الأرض أربعة أشهر ، بل أنت وابن عمك بريئان منا إلا من الطعن والضرب إن شئتم ، وندموا على ما قالوا وأسلموا ، كما مر ، ثم قال : « وأذان من الله ورسوله » إلى : « وبشر الذين كفروا بعذاب أليم » فقام إليه من له عهد كبنى ضمرة فقالوا : يا على ونحن أيضا على أربعة أشهر ؟ قال :

لا إن الله قد استثناكم ، فقرأ : « إلا الذين عاهدتم من المشركين » إلى : « إن الله يحب المتقين » قيل : وكانوا قد عاهدوا النبى صلى الله عليه وسلم عند البيت عام الفتح ، وقد بقى لهم حين قرأ على نحو سنة ، وهى آخر مدتهم ، وفيهم أيضا نزل : « إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام » الآية وكان الذى عاهد على بنى ضمرة الوحشى بن خويلد ، ولما قرأ على : « فإذا انسلخ الأشهر الحرم » الآية قام رجل من المشركين ممن لا عهد له فقال : يا على أرأيت إن أراد الرجل منا أن يلقى محمدا فيسمع منه ، أو يقضى معه حاجة ، أتقتلونه إذا انسلخ الأشهر الحرم ؟ قال : لا وقرأ :

(وإنْ أحدٌ) فاعل لمحذوف دل عليه « استجارك » وعده ابن هشام وغيره من الاشتغال فى المرفوع ، وأجاز الأخفش كونه مبتدأ فيكون الشرط جملة اسمية ، وأجاز هو والكوفيون كونه فاعلا مقدما (مِنَ المشْرِكينَ) الذين لا عهد لهم فيما قيل ، وقيل : من المشركين الذين أمر بالتعرض لهم بعد الأربعة الأشهر (استَجارَكَ) طلب أن يكون جارا لك ، أى مجاورا لك فى بلدك ، مأمونا ليسمع ما أوتيت به ويعرب الشريعة (فأجِرْهُ) اجعله جارا لك ، أى مجاورا فى بلدك مأمونا .

(حتَّى يسْمَعَ كَلامَ اللهِ) أى القرآن ، والإضافة إضافة مخلوق لخالق ، والمعنى حتى يسمع القرآن ويتدبر ويتفهم ، فحذف العطف ، أو المراد بالسمع التدبر والتفهم فى القرآن المترتبين على سماع الإذن .

(ثمَّ أبْلغهُ مأمنهُ) موضع أمنه إن لم يسلم ، والمأمن كما رأيت اسم مكان وهو موضعه الذى لا يخاف فيه ، وهو بلد قومه ، وبعد ذلك

قاتله من غير غدر ولا خيانة ولو لم يقاتلك ، لا كما قيل : إن قاتلك بعد فقاتله .

(ذَلكَ) المذكور من الإجارة والإبلاغ المأمن ، أو ذلك الأمر ، أو ذلك الأمن مبتدأ خبره (بأنَّهم) بسبب أنهم (قومٌ لا يعلمونَ) ما الإسلام وما حقيقة ما تدعو إليه ، وما مصلحتهم وهى الإيمان ، فلا بد من إعطائهم الأمان حتى يسمعوا أو يفهموا ، وذلك مفعول لمحذوف ، أى قضينا ذلك أو فرضنا ذلك ، لأنهم قوم لا يعلمون .

قال الحسن ، ومجاهد : هذه الآية محكمة إلى يوم القيامة ، يجار من استجار إلى أن يسمع ويبلغ مأمنه ، ثم يقاتل بعد أن لم يؤمن ، وزعم الضحاك ، والسدى ، أنها منسوخة بقوله : « فاقتلوا المشركين » وقال بعضهم : حكمها فى مدة أربعة الأشهر ، فالمراد استجارك فى أربعة الأشهر لا بعدها .

قال الكلبى : إن أناساً ممن لا عهد لهم لم يوافقوا الموسم الذى قرأ فيه على صدر هذه السورة ، وكانوا بأرض اليمامة وكأنصارى من بنى قيس بن ثعلبة ، ولما بلغهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بقتال المشركين الذين لا عهد لهم إذا انسلخ الأشهر الحرم ، أقبلوا إلى المدينة قيل : بعد ما انسلخت ليجددوا بينهم وبينه حلفا فلم يصالحهم إلا على الإسلام أو يقتلوا ، فخلى سبيلهم حتى بلغوا مأمنهم وهو اليمامة ، وأقاموا بها حتى أسلم الناس ، فمنهم من أسلم ، ومنهم من أقام على نصرانيته ، وفيهم نزل : « وإن أحد من المشركين » الآية فهى نزلت بعد

الموسم ، وزعم بعضهم أن آية القتل السابقة نسخت حين أسلمت العرب طوعا وكرها بقوله : « لا إكراه فى الدين » فرفع السيف عن أهل الكتاب بإعطاء الجزية •

(كَيْفَ) إنكارا يتضمن تعجيبا ، وهو حال من عهد (يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ) خبر يكون ، والخبر كيف وللمشركين متعلق بيكون ، أو حال من عهد (عَهْدٌ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ رَسُولِه) متعلق بيكون ، أو نعت لعهد قيل ، أو متعلق به ، ويجوز كونه الخبر ، وكيف حال ، وللمشركين متعلق بيكون ، أو حال من عهد ، والمعنى كيف يكون لهم عهد تمسكوا به مع توقد قلوبهم غيظا ، أو كيف يكون لهم عهد يثبته الله ورسوله بالوفاء به لهم ، وقد نقضوه •

(إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) هم بنو ضمرة ، وبنو كنانة ، وبنو مدلج ، عاهدهم فى المسجد الحرام ، وقيل : فى جهة قريبة منه عام الفتح • وعن ابن عباس : قريش ، ورد بأن الآية نزلت بعد نقض قريش للعهد ، وذلك قبل الفتح ، وقال السدى ، وابن عباد ، وابن إسحاق : بنو جذيمة ، وقال ابن إسحاق : قبائل بنى بكر ، دخلوا وقت الحديبية فى المدة التى كانت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبين قريش ، فلم يكن نقض إلا من قريش ، وبنى الدئل ، فأمر الله بإتمام العهد لمن لم ينقضه وهو الصحيح •

وقال مجاهد : خزاعة ، ورد بإسلامها عام الفتح ، وعن ابن زيد

فيما قال الطبرى : قريش ، نزلت الآيـــة فلم يستقيموا ، بل نقضـــوا فنزل تأجيلهم أربعة الأشهر ، ورد بأنهم وقت الأذان قد أسلموا ، وكذا خزاعة ، والذين بدل من المشركين فى قوله : « كيف يكون للمشركين » لأن الاستفهام فى ذلك للإنكار ، نفى أى منصوب المحل على الاستثناء المتصل ، قيل : أو مبتدأ خبره قوله :

(فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُم فاسْتَقِيمُوا لَهم) فيكون الاستثناء منقطعا ، والاستقامة البقاء على العهد ، والتعبير بها إشارة إلى أن نقضه قبيح كالعرج فى جسم ، وما شرطية واقعة على الاستقامة مفعول مطلق للفعل بعدها ، أى استقامة استقاموا لكم ، فاستقيموا لهم ، أو ظرفية مصدرية ، فالفاء بعد ذلك زائدة ، أى استقامتهم لكم استقيموا لهم ، فاستقامة مصدر نائب عن ظرف الزمان ، متعلق باستقيموا ، كأنه قيل : استقيموا لهم مدة استقامتهم لكم .

(إنَّ اللهَ يُحبُّ المتَّقينَ) ومن التقوى مقامكم أيها المسلمون على العهد ما قام عليه أهل الشرك ، ولا تقوى مع الشرك ، فليس بقاء أهله على العهد تقوى .

(كَيفَ) يكون لهم عهد تمسكوا به ، أو كيف يكون لهم عهد يوفى لهم به ، وقد نقضوه ، فإعراب كيف كإعراب كيف السابقة ، وإنما كررت تأكيدا لاستبعاد كون عهد لهم ، ويجوز أن يقدر كيف يثبتون على العهد ، أو كيف يبقى حكم العهد لهم مع نقضهم له ، فكيف حال أو كيف ثبوتهم على العهد ، أو كيف بقاء حكمه لهم ، فهى خبر للمبتدأ بعـــدها (وإنْ يظْهرُوا) الواو للحال ، والحال أنهم إن يعلوا (عَليْكم) بالغلبة .

(لا يَرقبُوا) لا يراعوا ولا يحافظوا ، أو لا ينتظروا (فيكم إلاًّ) حلفا ووجه تسمية الحلف إلا أنهم إذا تماسحوا بالأيدى عند المخالفة ، رفعوا أصواتهم ، وشهروا أمرهم ، ورفع الصوت يقال له إلّ وإليل ، فقيل لكل عهد وميثاق : إلّ ، وإلا فالإل فى الآية صحيح اللام مضاعف ، والإلية بمعنى الحلف معتلة غير مضاعف ، وذلك قول قتادة ، فقال ابن عباس : إلا قرابة ، وجهه أن القرابة مثل ذلك المذكور من رفع الصوت بالمحالفة فى العقد ، بل أشد عقدا ، ومثله قول بعضهم : إلا رحما ، وذلك كله استعارة ، وقيل : حقيقة ، وقيل : الإل التحديد ، فإن المحالفة على الشىء إغراء عليه ، وقيل اللمعان ، فإن المحالفة فى شهرتها كشىء ساطع لامع ، وقيل : إلا اسم الله تعالى بالعبرانية ، فإنما صرف مع وجود العلمية والعجمة ، لأنه ثلاثى ساكن الوسط كما يقال له أيضا بالعبرانية : إيـــل .

وقد قالوا معنى جبرا وعزرا وميكا وإسراف فى الأصل عبد ، وإيل الله فى جبريل وعزرائيل وميكائيل وإسرافيل ، ولكن بدلت همزة هذا شذوذا ، أو حذفت همزته ، وقد قرىء جبرال براء فهمزة مكسورة مشددة مثل إلاًّ فى الآية ، غير أن جبرال منع الصرف لأنه صير اسما واحدا فرق الثلاثى .

ولما سمع أبو بكر رضى الله عنه كلام مسيلمة الكذاب قال : هذا كلام لم يخرج من إل ، أى لم يكن من الله ، وقرأ عكرمة مولى ابن عباس : لا يراقبوا فيكم إيلا بهمزة مكسورة فياء ساكنة من معناه الله ، ويجوز

أن يكون الأصل إلا بهمزة ، فلام مشددة أبدلت اللام المدغمة ياء ، كما أبدلت الميم المدغمة ياء فى إما المكسورة الهمزة ، فيحتمل المعانى السابقة ، ويجوز أن يكون إل يؤل إذا ساس كما قال عمر رضى الله عنه : قد إلنا وإيل علينا ، أى لا يرقبوا فيكم سياسة ولا مداراة ، قلبت الواو ياء لسكونها بعد كسر ، وقرأت فرقة ألاً بفتح الهمزة مصدرا بمعنى العهد .

(ولا ذِمَّةً) عهدا أو حقا تركه عيب ، قال الأصمعى : الذمة كلما يجب أن يحفظ ويحمى ، وقال مجاهد : الإيل والذمة بمعنى العهد ، كرر تأكيدا مع اختلاف اللفظ (يُرضُونكُم) مضارع أرضى المتعدى بالهمزة (بأفْواهِهِم) هذا كلام مستأنف فى بيان مخالفة ظاهرهم لباطنهم المنافية للثبات على العهد ، المؤدية إلى عدم مراقبتهم فيكم إلا ولا ذمة إن ظفروا بكم ، وليس الكلام حالا من الواو فى قوله : « لا يرقبوا » لأنهم بعد ظهورهم على المؤمنين لا يرضونهم بأفواههم ، بل يصرحون بالطعن فيهم ، ولأن المراد ثبات إرضائهم المؤمنين بألسنتهم بالكلام الجميل ، وبوعد الإيمان ، والوفاء بالعهد ، والطاعة وإخفاء العداوة .

(وتَأبَى) تمنع وتكره (قُلُوبهمْ) ما تنطق به أفواههم ، أو تمتنع قلوبهم مما تنطق أفواههم ، فأبى على الأول متعد ، وعلى الثانى لازم (وأكْثَرهُمْ فاسِقُونَ) خارجون عن المروءة والأمور التى يستحسنها أهل الشرك مما هو حسن ، كالصدق والوفاء بالعهد والوعد ، والتعفف عما يدنس العرض ، وما يثير السوء والفتن ، لأنه لا عقيدة لهم العدد .

تردعهم عن ذلك ، وأما القليل منهم فلم يخرج عن ذلك ، بل كان عدلا فى دين الشرك وذمهم بذلك الفسق ، مع أن الشرك أقبح منه ، لأنه هو القبيح عندهم ، لا الشرك ، ولأنه متعد إلى حق الغير ، ولأن جامع الشرك ذلك الفسق أقبح ممن أشرك ولم يفسق ذلك الفسق ، أو المراد بالفسق كل فسق ، واستثناء القليل مراد به من سوء من يوفى بالدين ، أو ليس التعبير بالأكثر استثناء للقليل ، بل الأكثر بمعنى الكل .

(اشْتَرَوا بآياتِ الله ثمناً قَليلاً) استبدلوا بالقرآن عرضا يسيرا ، وهو اتباع الأهواء والشهوات ، شبه تركهم القرآن مع تمكنهم من اتباعه ببيعه .

(فَصدُّوا) أى أعرضوا ، فهو لازم ، أو منعوا الناس فهو متعد ، والفاء للسببية تفيد أن الاشتراء سبب للصد (عَنْ سَبِيلِهِ) دينه وهو شامل للطواف بالبيت والحج ، قيل : أو سبيله سبيل بيته ، فحذف المضاف ، وذلك أنهم منعوا الناس عن المسجد الحرام والحج ، والصحيح الأول لأنه الظاهر بلا حذف ، ولأنه عام فيشمل كل إعراض أو منع عن دين الله ، مثل إمداد أهل الطائف قريشا بالأموال ليقووا على حرب رسول الله صلى الله وسلم وغير ذلك ، وقد ذكر عن ابن عباس : أن هذا فى إمداد أهل الطائف .

(إنَّهم سَاءَ) بئس ، ولو قدر له مفعول ، أى ساء المؤمنين لم يكن من باب بئس ، لكنه ضعيف (ما كانُوا يعْمَلُون) هذا العمل من الشراء والصد والنقض ، وعدم رقبهم الإل والذمة ، أو غير ذلك ، وقد قيل : إن المخصوص بالذم هو عدم رقبهم الإل والذمة ، وأن قوله :

(لا يَرْقُبُونَ فى مُؤْمِنٍ إلاًّ وَلا ذِمَّةً) تفسير له لا تكرير ، والواضح أن المخصوص بالذم عام كما رأيت ، وهذا تكرير لعدم مراقبتهم الإل والذمة تهييجا على قتالهم ، وإشعارا بأن عداوتهم بحسب الإيمان ، إذ قال : « فى مؤمن » وقد يقال بهذا إنه لا تكرير ، إذ ليس فى لفظ الأول ما يدل على أنها بحسب الإيمان إلا ما يعلم من المقام ، وقال الحسن : يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم ، وأكثرهم فاسقون ، ذلك فى المنافقين « واشتروا بآيات الله » إلى قوله : « ذمة » فى الأعراب الذين جمعهم أبو سفيان على طعام ، وندبهم على وجه من وجوه النقض ، فأجابوا ، وقاله هذا مجاهد ، وقيل : فى اليهود .

قال عياض : هذا وإن كانت ألفاظ الآية تقتضيه فما قبلها وما بعدها يردانه ، والصحيح حمل ذلك كله على العموم ، ولا وجه لرد بعض الضمائر إلى شىء ، وبعضها إلى آخر ، فإنه ضعيف ولا سيما أنه لم يتقدم ذكر هؤلاء المنافقين على الخصوص ، ثم ذكر الأعراب أو اليهود ، بل تقدم ما هو عام وهو لفظ المشركين ، فإن أراد أصحاب هذه الأقوال أن الضمائر راجعة إلى المشركين عموما ، وأن خصلة كذا صادقة فى المنافقين ، وخصلة كذا فى الأعراب ، أو خصلة كذا فى اليهود صح ، كما تقول : جاء الناس وأكلوا وشربوا وناموا ، مع أن الأكل صدر من بعضهم مثلا ، والشرب من بعض ، والنوم من بعض ، ولا يقال : إن المشركين لا يشتمل المنافقين ، لأن النفاق قد يكون بإسرار الشرك (وأُولَئِكَ هُمُ المُعْتَدُونَ) المجاوزون الحد بالعداوة والنقض .

(فإنْ تابُوا) عن الكفر وسائر المعاصى (وأقامُوا الصَّلاةَ وآتوا

الزَّكَاةَ فإِخْوانكُم) أى فهم إخوانكم (فى الدِّينِ) لهم ما لكم ، وعليهم ما عليكم ، قال ابن عباس : حرمت هذه الآية دماء أهل القبلة ، ومن ترك الصلاة أو الزكاة استتيب ، فإن لم يتب قتله الإمام ، ولو ترك من الزكاة قليلا ، كما شرح الله لذلك صدر أبى بكر رضى الله عنه حين منعت العرب الزكاة ، وجازاه عن الاسلام خيرا ، ولو أتى بكلمة الشهادة لأنها قرنت بالصلاة والزكاة فى الآية ولو لم تقترن بهما فى بعض الأحاديث ، اعتمادا على قربها بهما فى الآية .

وفى بعض الأحاديث ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن أقاتل النـــاس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها فقـــد حقنوا عنى دماءهم وأموالهم إلا بحقها » فإن ترك الصلاة أو الزكاة داخل فى حقها بمعونة الآية ، وقد صرح بهما فى حديث ذكره الحسن هكذا : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة » بل لو لم تقترن بهما فى شىء من الأحاديث لوجب حملها على الآية ، فإنما يقتصر على كلمة الشهادة ، لأنها الأصل لا ينفع شىء مع عدمها ، فإذا أتوها علموا ما يجب عليهم ، ولا صلاة لمن لا يزكى .

(ونُفَصِّلُ الآياتِ) نوضحها (لِقَوْمٍ يعْلَمُون) يفهمونها ، وإنما فصل بين الكلامين المتناسبين بذكر تفصيل الآيات لمن يعلمها تحريضا على تأمل ما فصل من أحكام المعاهدين ، وخصال التائبين مع المحافظة عليها .

(وإنْ نكثُوا) نقضوا ، وأصله نقض ما قتل ، واستعير لإبطال العهد (أيمْانَهمْ) حلفانهم على أن لا يقاتلوكم ، ولا يظاهروا أحد

على قتالكم (مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِم) بعدم القتال والمظاهرة ، وذكر هذا التكرير ليزدادوا به قبحا عند السامع ، فإن عهدهم هو حلفهم على ذلك ، ويجوز أن يراد بالعهد الإقرار بأن لا يقاتلوا ، ولا يظاهروا بالأيمان الحلف على ذلك ، فلا تكرار ، وهذا الوجه أولى (وطَعَنُوا) نقصوا ، وأصل الطعن الضرب فى الشىء ، واستعير لما ينقص فى الإسلام مثل تكذيبه والحرب (فى دِينِكُم) بتكذيبه وتقبيح الأحكام ، ولا يخلوا النكث عن الطعن ، وقد يقال : قوله : « وطعنوا فى دينكم » تفسيرا للنكث وإعلاما بأن الطعن فيه نكث ، فيكف القتال والمظاهرة .

(فقاتِلُوا أئمَّةَ الكُفْرِ) الأصل فقاتلوهم ، فوضع الظاهر موضع المضمر ، للدلالة على أنهم صاروا بالنكث والطعن رؤساء فى الكفر ، وبالغوا فيه ، فهم أحقاء بالقتل ، والضمائر للمشركين الذين عاهدوا .

وعن الكلبى : المراد المصالحون عام الحديبية ، وكانوا ردوا رسول الله عليه الصلاة والسلام ومن معه عن البيت ، وعن نحر البدن ، على أن يخلوا مكة له فى العام القابل ثلاثة أيام ، وأن لا يأتيهم بسلاح إلا سلاح فى قراب ، ومن صبأ إليه يرده إليهم ، فنقضوا حين أعانوا على خزاعة ، وهم فى ذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فركب ثلاثون رجلا من خزاعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيهم بديل بن ورقاء ، فأخبروه بالغدر ، وطلبوا منه النصر ويأتى ذلك فى قصة الفتح إن شاء الله .

ورد ذلك ، وقيل : المراد بأئمة الكفر الرؤساء من المشركين المعاهدين

الماكثين الطاعنين ، وخصهم بالقتال ، لأن قتلهم أهم وللمنع من مراقبتهم ، ولأن قتالهم قتال الأتباع ، والآية على العموم والدوام ، وقال ابن عباس ، وقتادة : أئمة الكفر : أبو سفيان بن حرب ، والحارث بن هشام ، وأبو جهل بن هشام ، وعتبة بن ربيعة ، وسهيل بن عمرو ، وعكرمة بن أبى جهل ، وغيرهم من رؤساء قريش الذين هموا بإخراج الرسول من مكة .

ورد بأن الآية نزلت بعد بدر بكثير ، إلا إن أراد بذكر هؤلاء التمثيل لأعيانهم ، وقال مجاهد : أئمة الكفر : فارس والروم ، وقال وقال حذيفة بن اليمان رضى الله عنه : لم يجىء هؤلاء بعد ، فيحتمل أن يريد أنهم لم يجيئوا كلهم ، بل جاء بعض ، وبقى من بقى ، فهم يجيئوا إلى يوم القيامة ، فيوافق ما ذكرت من أن الآية على العموم والدوام ، ويحتمل فيما قال بعض : إنه يريد اليهود الذين يجيئون مع الدجال فى آخر الزمان ، فإنهم أئمة الكفر فى ذلك الزمان .

وقيل : الضمير فى نكثوا وما بعده عائد للذن تابوا ، وأقاموا الصلاة ، وأتوا الزكاة ، فالمراد بالنكث الرجوع إلى الكفر ، وتسهيل الهمزة الثانية فى أئمة قراءة نافع ، وابن كثير ، وأبى عمرو ، وروى عنهم إبدالها ياء ، وروى عن نافع تخفيفها كالباقين المحققين لها حيث وقع لفظ أئمة ، وروى عنه مد الهمزة الأولى بإبدال الثانية ألفا وروى هشام ، عن ابن عامر : إدخال ألف بينهما ، والمشهور عنه التحقيق ، وقال الفراء ، وتبعه جار الله ، والقاضى : أن إبدالها ياء لحن ، وليس كذلك ، بل الجمهور من النحاة والقراء على جواز التسهيل ، جواز قلب الثانية ياء .

بل قال ابن هشام ، والشيخ خالد ما نصه بعد كلام : وأما قراءة ابن عامر ، والكوفيين ، كعاصم ، وحمزة ، والكسائى ، وخلف ، والأعمش ، أمة جمع إمام بالتحقيق من غير إبدال ، فمـا يوقف عنه ولا يجـاوز ، والقياس أئمة بقلب الهمزة ياء ، فإن قلت : كان القياس قلب الثانية ألفا لسكونها ، وانفتاح ما قبلها ، كآنية جمع إناء قلت : لمـا وقع بعدهـا مثلان ، وأرادوا الإدغام نقلوا حركة الميم الأولى وهى الكسرة إلى الهمزة قبلها ، وأدغموا الميم فى الميم ، فصارا إمة قلبوا الهمزة ياء محضة انتهى ، ووزنه أفعلة بهمزة مفتوحة وإسكان الفاء ، وكسر العين ، وأصله أأممة بفتح الهمزة الأولى واسـكان الثـانية وكسر الميم الأولى وقع النقل والإدغام .

(إنَّهم) تعليل جملى (لا أيمَانَ لَهم) على الحقيقة ، ولو نطقوا بها لعدم الوفاء بها ، وإن شئت فقل ذلك من حذف النعت ، أى لا أيمان وافية لهم ، وعلى كل حال فلا منافاة بين هـذا وقولـه : « وإن نكثوا أيمانهم » واستشهد أبو حنيفة بهذا على أن يمين الكفار لا تنعقد يمينا ، ولا يحنث ، ولو نقضها بعد الإسلام ، وبطلانه يعلم مما مر ، من أن نفيها عنهم من حيث عدم الوفـاء ، فالمراد نفى الوثوق بها ، ومـذهب الشافعى أنها يمين ، وكذا تقول على خلاف فى حنثه .

وتدل الآية على أن الذمى إذا طعن فى الإسلام فقد نقض عهده ، وصار فى حكم المحاربين ، فيفعل الإمام فيه رأيه من قتل أو بيع أو نحو ذلك ، إلا إن أسلم قبل أن يفعل به ذلك ، كذا نقول نحن والشافعى ،

والمشهور من مذهب مالك أنه إذا كذب الشريعة أو سب النبى صلى الله عليه وسلم ، أو فعل نحو ذلك قتل ، وقيل إذا كفروا أعلن بما هو معهود من معتقده وكفره ، أدب على الإعلان وترك ، وإذا كفر بما ليس من معهود كفره كالسب ونحوه قتل .

وقال أبو حنيفة فى هذا : إنه يستتاب ، وإن سب النبى صلى الله عليه وسلم وأسلم تقية عن القتل ترك ، وقال بعض المالكية : يقتل ، وقرأ ابن عامر ، وعطاء : لا إيمان لهم بكسر الهمزة مصدر آمن بمعنى صدق بالله ، أو مصدر آمن بمعنى أزال الخوف ، فالمعنى لا إسلام لهم ، أولا أمن لهم كما يجعل أهل الذمة فى أمن بل يقتلون حيث وجدوا ، وكذلك قرأ الحسن ، وفسره بالإسلام . قال أبو على : وتفسيره غير قوى ، لأنه تكرير مع لفظ الكفر ، ولفظ النكث ، وأجيب بأنه تعليل بما يوجب القتل .

(لعلهم) ترجية للمؤمنين أو تعليل (ينتهون) عن الكفر والطعن ، وفى هذا إيجاب على المؤمنين أن يكون غرضهم فى قتال هؤلاء الدخول فى الإسـلام ، لا مجرد إيذائهم ، وتلك الترجيـة أو التعليل راجع إلى قوله : « فقاتلوا أئمة الكفر » وفيه رد على من استدل بقراءة ابن عامر ومن معه ، على أن توبة المرتد لا تقبل لأنه كالنص فى أن الانتهاء عن الكفر مانع عن القتال ، ولجواز أن يكون المعنى ليس لهم أيمان فيراقبوا لأجله ، قيل : ولجواز أن يكون إخبار عن قوم معينين .

(ألا) تحضيض ، أو الهمزة للإنكـار لا للنفى ، فيكون الكـلام إنكارا لأن يكون عدم قتالهم جائزا ، وعلى كل فلا يخفى ما فى ذلك من مبالغة (تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم) حلفانهم مع رسول الله

صلى الله عليه وسلم أو المؤمنين ، على أن لا يعاونوا ، فعاونوا على خزاعة ، وهؤلاء الناكثون بعض من شمله العموم فى : « وإن نكثوا أيمانهم » وقد فسره الكلبى بهم كما مر •

(وَهَمُّوا بإخْرَاجِ الرَّسُولِ) من مكة إذ اجتمعوا عليه فى دار الندوة كما مر ، قاله السدى ، ولا يرد عليه أنهم لم يهموا فقط ، بل هموا وفعلوا ، لأن الاقتصار على ذكرهم به لا يوجب أنهم لم يفعلوا ، فالمراد هموا وفعلوا ، بأن فعلوا ما خرج به ، ولكن ذكر لهم فقط إيذانا بأن همهم بالإخراج موجب لقتالهم ، فكيف وقد أخرجوا ولجواز أن يكون المراد هموا بالإخراج ولم يصلوا إليه ، بل خرج بأمر الله ، أو أوحى الله إليه أن يهاجر ، وقال الحسن : قوم من اليهود نكثوا عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهموا بإخراجه من المدينة •

(وهُم بَدءُوكُم أوَّل مَرَّةٍ) بالمقاتلة والمعاداة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بدأهم بالدعاء إلى الحق ، وبالبرهان والإعجاز ، والمراد أفعالهم بمكة بالنبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، وقال مجاهد : المراد ما بدأت به قريش من معونة بنى بكر على خزاعة ، وقال الطبرى : المراد فعلهم يوم بدر ، وقد مرت قصته ، وقيل : المراد فعل اليهود ، وإذ نقضوا فى المدينة فما يمنعكم أيها المؤمنون أن تقاتلوهم بعد هذه البداية •

(أتخْشَوْنَهم) وتتركون قتالهم ، وهذا تقرير على الخشية وتوبيخ عليها إن خشيتموهم (فَاللهُ أحقُّ أنْ تَخْشَوْهُ) فى أمره ونهيه ، فقاتلوهم ولا تتركوا قتالهم ، وأحق خبر المبتدأ وأن تخشوه على تقدير الباء متعلق بأحق ، أى بأن تخشوا وأن تخشوه بدل اشتمال من اسم

الجلالة ، أو مبتدأ ثان ، وأحق خبره ، والجملة خبر الأول ، وأجاز بعض أن يكون أحق مبتدأ ، وأن تخشوه خبره .

(إِنْ كُنتُم مُؤْمِنِينَ) كأن قضية الإيمان أن لا تخشوا إلا الله ، والمعنى إن كنتم مؤمنين إيمانا كاملا ، وذلك إيذان بأنهم إن لم يقصروا خشيتهم على الله ولم يقاتلوهم فهم كغير المؤمنين .

(قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ) قتلا وأسرا ، هذا أمر أيضا بقتالهم مقرون بالوعد بالظفر ، والمراد بالعذاب فى : « وما كان الله ليعذبهم » الخ استئصالهم بنحو صيحة أو خسف أو حجارة ، وقد يعم فى الدنيا غير المذنب كما مر ، فلا منافاة بين الآيتين ، وإسناد التعذيب إلى الله لأنه مخلوق له ، وتعليقه بالأيدى لأنه كسب لها ، وكذا إذا وقع تعذيب المؤمنين بأيدى الكفرة ، فإن الله قد عذبهم بأيدى الكفرة ، ولكن منعوا التعبير به لشفاعته ، كما لا يقال : يا خالق الخنزير والغائط أو نحو ذلك مع أنه الخالق لها لا غيره .

(وَيُخْزِهِمْ) يذلهم بذنوبهم (وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ) بالاستيلاء عليهم (وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ) شبه إزالة ما حصل فى قلوب المؤمنين من فعل الكفرة بإزالة المرض ، والمراد بقوم مؤمنين المؤمنون كلهم ، ولو من لم يصبه الأذى من جهة الكفار ، لأن المؤمنين كجسد واحد ، يتضررون بما أصاب أدناهم فالتنكير للتعظيم ، أو المراد قوم مخصوصون .

قال مجاهد ، والسدى : هم مؤمنو خزاعة ، وذلك أن قريشا نقضوا العهد ، ونالت الحرب خزاعة منهم ومن بنى بكر ، ثم شفى الله قلوبهم

من بنى بكر يوم فتح مكة ، قتلوا منهم معسم بن ضبابة فى خمسين رجلا ، وذكر عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جداه : أنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة : « كفوا السلاح إلا خزاعة من بنى بكر » وذكره البغوى ، هكذا : « ارفعوا السيف إلا خزاعة من بنى بكر إلى العصر » أى فإن لخزاعة أن لا يرفعوا سيوفهم من بنى بكر إلى العصر ، وقال ابن عباس : هم بطون من اليمن وسبأ ، قدموا مكة فأسلموا ، فلقوا من أهلها أذى شديدا ، فبعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكون إليه ، فقال : « أبشروا فإن الفرج قريب » .

(ويُذْهِبْ غَيْظَ قُلوبهِم) لما لقوا من الكفار ، وقد أوفى الله ما وعدهم ، فذلك دليل على صدق رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وقرىء : ويذهب غيظ بفتح اليـاء المثناة والهاء وضم الظـاء (ويتُوبُ الله على مَنْ يَشاءُ) مـن أهل مكة وغـيرهم بأن يوفقهم إلى الإسلام ، فالقتال كما كان سببا لتعذيب قوم ، كان سببا لتوبة آخرين عمن أمر بقتالهم بعض حسن إسلامه ، وبعض لم يحسن كأبى سفيان ابن حرب ، أسلم هو وعكرمة بن أبى جهل ، وسهل بن عمرو حين الفتح على ما تراه إن شاء الله فى محله .

وقرأ الأعرج ، وابن أبى إسحاق ، وعيسى الثقفى ، وعمرو بن عبيد ، وأبو عمرو فى رواية غير مشهورة ، بنصب يتوب بأن مضمرة عطفا على المعنى فى جواب الشرط المقدر ، أى إن قاتلتموهم يعذبهم الله بأيديكم ، كأنه قيل : إن قاتلتموهم يكن تعذيب الله إياهم بأيديكم ، وخزيه إياهم ، ونصره إياكم عليهم ، وشفاءه صدور قوم مؤمنين ، وإذهابه غيظ قلوبهم ، وتوبة الله على من يشاء .

وقال أبو الفتح : لا وجه لقراءة النصب ، لأن ذلك أمر موجود قاتلوا أو لم يقاتلوا ، فلا وجه لإدخال التوبة فى جواب الشرط ، والوجه الرفع على الاستئناف ، قلت : بل له وجه وهو أن توبة الله عليهم بالتوفيق إلى الإسلام ليست جبرا ، بل اكتسبوا فى قلوبهم باختيارهم ما يترتب عليه التوفيق ، وذلك الكسب متسبب عن القتال ، أيضا توبة الله على من يشاء تكميل لإيمانهم ، كأنه قيل : قاتلوهم يكمل إيمانكم ، ويجوز كون النصب عطفا على المعنى بتقدير الفاء لا بتقدير أداة الشرط ، كأنه قيل : قاتلوهم فيعذبهم بالنصب بعد الفاء فى جواب الأمر ، وفيه بحث ابن جنى ، وجوابى المذكوران .

(واللهُ عَليمٌ) بما كان وما يكون ، ومن سبقت له السعادة ، ومن سبقت له الشقاوة (حَكيمٌ) فى فعله وحكمه .

(أمْ) منقطعة بمعنى همزة الإنكار والتوبيخ ، وبل التى للإضراب الانتقالى (حَسِبْتُمْ) ظننتم أيها المؤمنون ، وكان بعضهم قد كره القتال (أنْ تُتْرَكُوا) غير ممتحنين بالقتال ، فالحال محذوفة كما رأيت ، أو هذا الحذف مفعول ثان للترك وقوله : (ولما يَعْلَمِ اللهُ الَّذينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ) مستأنف أو هو الحال ، والمراد بنفى علم الله المجاهدين من المؤمنين نفى المجاهدين الموصوفين بما بعد هذا ، تعبيرا باللازم عن الملزوم ، فإن وجود المجاهدين ملزوم ، ولازمه علم الله ، فإذا وجدوا فالله عالم بهم ، ولا بد أن تتركوا ساد مسد مفعولى حسب عند سيبويه ، وقيل : مفعوله الثانى محذوف ، أى أم حسبتم الترك محمد موجودا أو واقعا أو نحو ذلك ، ولما لنفى ما يتوقع ثبوته .

﴿ ولَم يتَّخذُوا ﴾ عطف على جاهدوا ﴿ مِنْ ﴾ ﴿ دُونِ اللهِ ولا رسُولِه ولا المؤمِنينَ وليجَةً ﴾ دخيلة وبطانة من المشركين يلونهم ، ويفشون إليهم الأسرار ، قالبه الفراء وهو الحق ، وقال قتادة : الوليجة الخيانة ، وقال الضحاك : الخديعة ، وقال عطاء : أولياء : وقيل : الرجل فى القوم وليس منهم ، وقال الراغب : ما يعتمد عليه ، فالمراد نفى المجاهدين المخلصين من قوم مخصوصين •

وقال الزجاج : المراد نفى العلم الذى يجازى على معلومه ، ويستفاد من كون منفى لما متوقعا أنه سيوجد المجاهدون المخلصون عن اتخاذ الوليجة فيمن لم يوجدوا فيه ، أو سيكثرون ، وقيل : معنى لما يعلم لما تميز أى لما تفعل ما يتميزون به ﴿ واللهُ خَبيرٌ بما تعمَلونَ ﴾ من اتخاذ الوليجة وغيره ، كوجود الإخلاص ، وقرأ الحسن ويعقوب فى رواية رويس وسلام : يعلمون بالتحية ، وعن بعضهم الآية فى المنافقين وهو واضح •

﴿ مَا كانَ للمشْركينَ أن يَعْمُروا مَسَاجِدَ اللهِ ﴾ أى ما جاز لهم وما استقام أن يعمروا المساجد التى بنيت لطاعة الله وتوحيده ، وكم مسجد عمروه قديما وحديثا تغلبا على أهله وظلما ، والمراد بعمارتها دخولها والقعود فيها ، والتعبد فيها ، ويمنع المشرك من دخول المسجد ، فإن دخله بغير إذن الموحد عزر ، وقيل : إن دخله واستقبل القبلة أمسك حتى يسلم وهو ضعيف ، لأنه إكراه على الدين •

ويجوز للإمام ومن قام مقامه فى الإسلام ، أن يدخل المشرك مسجدا غير المسجد الحرام لأمر مهم ، والأولى صونه عن المشرك ، وقد شد

صلى الله عليه وسلم تمامة بن أثال وهو كافر إلى سارية فى المسجد ، وقيل : المراد بعمارتها بناؤها والبناء فيها ، فلو أوصى ببناء مسجد أو بالبناء فيه لم تقبل وصيته ، وزعم بعضهم أن المراد بالمساجد المسجد الحرام ، والجمع للتعظيم ، أو لأنه قبلة المساجد كلها وإمامها ، فعامره كعامر جميع المساجد ، أو لأن كل موضع منه موضع للسجود ، قيل ، ويدل عليه قراءة ابن كثير ، وأبى عمرو ، ويعقوب : مسجدا لله بالإفراد ، وليس كذلك ، لجواز أن يقال المراد الجنس ، وليست الإضافة مانعة من ذلك .

(شَاهِدِينَ) حال من الواو أو من المشركين (عَلَى أنفُسِهِم بالكُفْر) المراد بشهادتهم على أنفسهم به إظهاره ، كتصريحهم بتكذيب القرآن ، ورسول الله ، والسجود للأصنام ، وكانوا إذ طافوا طوفة سجدوا للأصنام سجدة إذا بلغوها ، وكانوا يقولون : لبيك لا شريك لك إلا شريك تملكه وما ملك وغير ذلك ، كطوافهم عراة ، فإنه علامة الشرك ، فكأنه شهادة به ، فإن الله سبحانه قد أوجب ستر العورة ، وعن ابن عباس : شهادتهم به سجودهم للأصنام فى الطواف ، وروى الطبرى ، عن السدى : أنها نسبتهم أنفسهم إلى مللهم ، اليهودى يقول : إنه يهودى ، والنصرانى يقول : إنه نصرانى ، وهكذا قيل وهو ضعيف .

(أولئِكَ حَبِطَت أعْمالُهم) بطلت أعمالهم التى يعتقدون أنهم محسنون بها ، فلا يجازون عليها لأنه لا عبادة مع الشرك (وفى النَّار هُمْ خَالِدُونَ) إذا ماتوا على الشرك ، فإن الكبيرة مخلدة مطلقا ، فكيف بأعظم الكبائر ، روى أنه لما أسر رؤساء قريش وغيرهم من قريش يوم

بدر ، عيَّرهم المهاجرون والأنصار بالشرك ، وطفق عليّ يوبخ عمه العباس ، وكان من الأسرى ، بقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقطيعة الرحم ، والشرك ، وأغلظ له فى القول ، فقال العباس : مالكم تذكرون مساوئنا وتكتمون محاسننا ، فقال : أولكم محاسن ؟ قال : نعم ، ونحن أفضل منكم أجرا ، نعمر المسجد الحرام ، ونحجب الكعبة ، ونسقى الحجيج ، ونفك العانى يعنى الأسير ، فنزل ما كان للمشركين الآية .

(إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ) يوم البعث (وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللهَ) فى باب الدين بأن لا يترك أمر الله خشية الناس ، لا كمن يترك أمر الله خشية للناس ، ولا كهؤلاء الذين يخشون الأصنام ويخافون عقابها ، وأما الخشية عن المحاذير فطبيعة لا ينفك عنها عاقل ، ولم يذكر الإيمان بالرسول ، لأن الإيمان بالصلاة المخصوصة وهى الخمس وبالزكاة ، يتضمن الإيمان به ، لأنه الجائى بهما ، ولأن الآية مسوقة فى الرد على من لم يؤمن به ، ولأن الإيمان بالله واليوم الآخر إذا كان إجابة لدعائه صلى الله عليه وسلم إيمان به إنما تستقيم عمارتها من أجمع ذلك وهو المثاب على العمارة .

وأما من أنكر البعث ، فكيف يرجو ثوابا بعمارة ، وإن رجاه فى الدنيا ، فليست المساجد مجعولة لمجرد طلب الدنيا ، ومن أنكر الرسول ، أو لم يقم الصلاة ، أى لم يؤت الزكاة فإيمانه بالبعث لم يكن من جهة يثاب عليها ، قيل : عمارة المسجد نافلة ، والزكاة واجبة ، فمن عمر المسجد

على الحقيقة لزم أن يكون مؤديا للزكاة ، إذ لا يشتغل بنفل مع تضييع الفرض ، ومن عمارته قراءة القرآن فيه ، والتسبيح ، والتهليل ، والصلاة ، والقعود فيه بنية الأجر ، أو بنية انتظار عبادة كصلاة إمام ، وقراءة القرآن ، ومنها : درس العلم فيه ، وإقراءه وقراءته ، بل العلم أجل الذكر ، ومنها : صيانته عما لم يبن له كحديث الدنيا ، والبيع والشراء .

وروى أن الكلام فى المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمة الحشيش ، ومن ألف المساجد ألفه الله ، ومنها : تنويره بالمصباح ، وتستغفر الملائكة وحملة العرش لصاحبه مادام وضوءه ، ومنها : تنظيفه وإخراج ما لا يصلح فيه ، وإصلاحه وتفريشه ، وعبارة القاضى تزيين المساجد بالفرش ، وفى أحكام المسجد وعمارته وفضله كلام فى النيل وشرحه ، ولم يقرأ أحد من القراء العشرة فى هذا الموضع مسجد الله بالإفراد فى الأشهر ، وقال حماد بن أبى سلمة : إن ابن كثير قرأ بالإفراد فى الموضعين ، وهو قراءة الجحدرى فيهما .

ويجوز أن يراد فى حال الإفراد المسجد الحرام ، ويحكم على غيره بحكمه ، وذكر بعضهم فى قراءة من قرأ الأول بإفراد ، والثانى بالجمع ، أنه ذكر أولا المسجد الذى فيه النازلة فى ذلك الوقت وهو المسجد الحرام ، ثم عمت المساجد ثانيا ، ويجوز أن يراد بالمساجد جنس المساجد ، وبالمساجد كذلك غير المسجد الحرام ، فيرمز الكلام إلى أنه إذا لم يصالح المشركون لعمارة المساجد غير المسجد الحرام فكيف يصلحون لعمارة المسجد الحرام ، وهذا أبلغ من حيث إنه أشد ابعادا لهم عن المسجد الحرام حفظه الله .

(فَعَسَى) ترجية وعبارة جملة ممن يتفقه أن عسى ولعل من الله واجبة ، يعنى جزما (أُولَئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ) الناجين من

العذاب وما يسوءهم ، فإذا كان أولئك فى رجاء الاهتداء لا فى الجزم به مع كمالهم ، فما ظنك بأضدادهم المشركين ، وهذا قطع لأطماع المشركين فى الانتفاع بأعمالهم ، ومنع للمؤمنين أن يتكلموا على أعمالهم ، وعن الاغترار بالله ، قيل : وفيه ترجيح للخشية على الرجاء .

والجمع هنا نظر إلى معنى من ، والإفراد هناك نظر إلى لفظه ، وقيل : إن المراد فى قوله : « إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله » الخ ، رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه لذلك لم يذكر الإيمان به ، وأنه نزل جوابا لقولهم : إنما يدعى محمد النبوة طلبا للرياسة والملك ، وردا عليهم ، بأن غرضه طاعة الله وتوحيده ، فلذلك يعمر المساجد سرا وجهرا ، سواء حمد الناس ذلك منه أو كرهوه ، فالمساجد : مسجد مكة ، ومسجد المدينة ، ومسجد قباء وغير ذلك مما يعمره إن كان ، أو مما يمكن أن يعمره ، أو مما يأمر بعمارته ، فالأمر بالعمارة عمارة ممن صدقت نيته ، وعلى هذا القول فالجمع فى قوله : « فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين » مراد به من اقتدى بالنبى صلى الله عليه وسلم ، وهو قول ضعيف .

(أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الحَاجِّ) السقاية مصدر كالوقاية بمعنى السقى ، والحاج جنس الحجيج ، وإنما لم تقلب الياء همزة مع أنها بعد ألف زائدة فى الآخر ، لأن التاء فى هذه الكلمة ليست فى نية الانفصال ، لأن الكلمة بنيت عليها كما قال أبو الفتح ، قال المرادى : فلو كانت هاء التأنيث غير عارضة امتنع الإبدال نحو : هداية وسقاية ، وحكم الواو فى فى ذلك حكم الياء ، لكن رجح أنه حيث وقع الإبدال فإنما أبدلت الواو والياء ألفين ، ثم قلبت الألف همزة لئلا تجمع مع الألف قبلها .

(وعِمارةَ) مصدر عمر (المسْجِدِ الحَرامِ) ليس ذكره كما قد يقال موجبا لأن يراد بالمسجد فيما مر المسجد الحرام ، لأن هذا كلام مستقل فى خصوص المسجد الحرام (كَمَنْ آمنَ باللهِ واليَوْم الآخر وجَاهَدَ فى سَبيلِ اللهِ) السقاية والعمارة حدثان فلا يشبهان بالجثة ، فيقدر مضاف أول الكلام ، ليكون الكلام من أول الأمر مبنيا على المراد ، أى أجعلتم ذا سقاية الحاج وعمارة الخ أو أهل سقاية إلى آخر .

أو يؤول المصدران باسم الفاعل ، أى جعلتهم ساقى الحاج وعامر المسجد الحرام ، أو يقدر المضاف آخرا ، لأن الآخر نسب بالتغيير ، أى اجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كفعل من آمنَ بالله واليوم الآخر ، وجاهد فى سبيل الله وفعله هو الإيمان ، وهو فعل قلبى والجهاد ، ويؤيد التأويل باسم الفاعل قراءة ابن الزبير ، وأبى وجزة السعدى ، ومحمد بن على ، وأبى جعفر : سقاة الحاج كقضاة ، وعمرة المسجد الحرام كطالب وطلبة بفتحات ، وكذا قرأ ابن جبير ، غير أنه نصب المسجد الحرام على إرادة تنوين عمرة وقرائته من حيث حذف التنوين للساكن تخفيفا شاذة ، والأولى له إثباته مكسورا ، وقرأ الضحاك : سقاية الحاج وعمرة الخ بضم السين وإثبات الياء جمع ساق شاذا وفتح العين والميم جمع عامر مثل ما مر ، ورويت هذه القراءة عن أبى وجزة ، وأبى جعفر أيضا ولا تحتاج هذه القرآت إلى تأويل ولا تقدير .

قيل : إن كفار قريش قالوا لليهود : إنا نسقى الحجيج ونعمر البيت ، أفنحن أفضل أم محمد ودينه ؟ فقالت لهم أحبار اليهود : بل أنتم ، فنزلت الآية ، وذكر الطبرى وغيره عن النعمان بن بشير أنه قال : كنت عند منبر النبى صلى الله عليه وسلم فى نفر من أصحابه يوم الجمعة ، فقال أحدهم : ما أتمنى بعد الإسلام إلا أن أكون ساقى الحاج ، وقال آخر :

لا أتمنى بعده إلا أن أكون خادم البيت وعامره ، وقال الثالث : لا أتمنى بعده إلا أن أكون مجاهداً فى سبيل الله ، ورفعوا أصواتهم ، فقال عمر رضى الله عنه : لا ترفعوا أصواتكم عند منبر النبى صلى الله عليه وسلم ، ولكن إذا صليت الجمعة دخلت فأستفتيه فيما اختلفتم ، ودخل واستفتاه ونزلت الآية مفضلة لمن جمع بين الإيمان والجهاد ، على من جمع بين الإيمان وغيره مما ذكر .

وقال ابن عباس ، والضحاك : إن المسلمين عيروا أسرى بدر بالكفر ، فقال العباس : بل نحن سقاة الحاج وعمرة البيت ، وفى رواية عن ابن عباس : إن العباس قال يوم أسر : لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد ، لقد كنا نعمر المسجد الحرام ، ونسقى الحاج فنزلت الآية مخبرة كيف يلتحق سقى الحاج وعمارة المسجد بالإيمان والجهاد ، ولا سيما أنه لا ينفع عمل مع شرك .

وقال محمد بن كعب القرظى ، زاد بعضهم الحسن ، والشعبى : أن العباس ، وعليا ، وطلحة بن شيبة ، وقيل بدله عثمان بن طلحة ، وقيل شيبة بن طلحة ، تفاخروا فقال العباس : أنا صاحب السقاية والقيام عليها ، وقال طلحة ، أو عثمان أو شيبة : أنا صاحب البيت وعامره ومفتاحه بيدى ، ولو شئت بت فيه ، وقال على : ما أدرى ما تقولون كأنه استحقار لذلك ، لكونه مقرونا بالشرك ، لكنى صليت إلى القبلة ستة أشهر قبل الناس ، وآمنت قديما ، وهاجرت ، وجاهدت الكفار مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزلت الآية تفضيلا لعلى فيما قالوا ، فإن صح فلا دليل فيه على أنه ولى ، وأنه متولى ، لأن المقصود تفضيل الفعل على الفعل ، ولن تعلق التفضيل بالذات .

ولما نزلت الآية قال العباس رضى الله عنه : أما أرانى إلا أترك السقاية ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : « أقيموا عليها فهى لكم خير » وكان المفتاح فى بنى عبد الدار ، يتولاه عثمان بن طلحة ، قيل : وشيبة بن عثمان ، ويأتى ذلك فى الفتح إن شاء الله •

وليس فى سقاية الماء بخل ولا فقر ، فإنه عند الحاجة إليه أفضل من اللبن والعسل ، ولا يقوم شىء مقامه ، بل النبيذ أيضا أفضل منهما عند العطش ، وأقرب إلى الماء فى إزالة العطش ، قيل : هو تمر ينقع فى الماء غدوة ، ويشرب عشاء ، وينقع عشاء ، ويشرب غدوة ، فهذا حلال ، فإن غلا وحمض حرم ، وقد وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم السقى به إحسانا أو إجمالا ، وأمر به ، وذلك أنه صلى الله عليه وسلم قدم على راحلته وخلفه أسامة فاستقى ، فأتى بنبيذ فشرب وسقى فضلة أسامة فقال : « أحسنتم أو أجملتم كذا فاصنعوا » •

(لا يسْتَوُونَ) لا تستوى أفعالهم (عِنْدَ اللهِ واللهُ لا يَهْدى القَوْم الظّالمينَ) المشركين لا يوفقهم إلى صواب ينفعهم مادام غير منقذ لهم من الشرك ، أى لا يجعل هداية مع شرك ، فإذا أراد هداية مشرك وفقه للتوحيد فينفعه عمله الصالح فى التوحيد ، وقيل : القوم الظالمون أحبار اليهود إذ قالوا لقريش : أنتم خير من محمد ، وقد مر ، وقيل : المراد من يستوى بين المؤمن والمشرك •

(الّذينَ آمنُوا وهاجَرُوا وجَاهدُوا فى سَبيلِ الله بأمْوالهم وأنفُسِهِم أعْظمُ دَرَجةً) منزلة (عِنْدَ اللهِ) ممن لم يجمع هذه الخصال ، وقد آمن وعذر فيما لم يجمعه ، أو أعظم من أهل السقاية والعمارة ، فإن لهم عظما عند غير الله ، أو أعظم بمعنى عظيمون ، أى

عظيمون درجة عند الله لا غيرهم من أهل السقاية والعمارة ونحوهم ، ممن كان على الشرك ، ويقوى هذا الوجه والذى قبله الحصر فى قوله سبحانه :

(وأولئِكَ هُمُ الفائِزُونَ) بسعادة الدنيا والآخرة ، وعلى الأول فالمعنى أولئك هم الكاملون فوزا ، ولو كان ممن لم يجمع وعذر أيضا فائزا ، ولا ينكر فضل الصحابة الذين لم يغيروا ، أى يقدح فيهم إلا هالك ، ولا سيما الذين بنى الإسلام على سيوفهم ، وردوا الناس إلى الشرع ، وإياهم أراد صلى الله عليه وسلم بقوله : « دعوا لى أصحابى فلو أن أحدكم أنفق مثل أحُد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه » ويجوز حمل الآية على أنهم أعظم من سائر المؤمنين على الإطلاق ، كما يقويه حذف المعمول المفضل عليه •

(يُبَشِّرهُم) وقرأ حمزة يبشرهم بإسكان الباء وتخفيف الشين وقرأ الأعمش ، وطلحة بن مصرف ، وحمد بن هلال : بفتح المثناة وإسكان الموحدة وضم الشين (ربُّهم برحْمةٍ منهُ ورِضْوانٍ) رضا عظيم عنهم ، وقرأ عاصم ، وعمر بضم الراء ، وقرأ الأعمش بضمها وضم الضاد ، قال أبو حاتم : وليس بجائز ، وفى الحديث : « إذ دخل أهل الجنة الجنة ، قال الله عز وجل : أعطيكم أفضل من هذا فيقولون : ربنا أى شىء أفضل من هذا ؟ قال : رضوانى لا أسخط عليكم أبدا » •

(وجَنَّاتٍ) تنكير الثلاثة للتعظيم بحيث لا يقدر مخلوق على تعريف ذلك وتعيينه (لَهم فيها) فى الجنات (نَعيمٌ مُقيمٌ) دايم •

(خالدِينَ فيها) فى الجنات أو فى النعيم (أبداً) مؤكد للخلود

مزيل لما يمكن أن يتوهم ، من أن المراد بالخلود المكث الطويل ، فإنه قد يستعمل كذلك ، وعن ابن عباس : الآية فى المهاجرين خاصة .

(إنَّ اللهَ عنْدهُ أجرٌ عَظيمٌ) لكل من امتثل أمره ، وازدجر عن نهيه ، وهو أجر يستحقر عنده ما بلغوه به من العمل ، ونعم الدنيا ، قال ابن عباس : لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بالهجرة منعهم من تعلق بهم من أهل وولد وغيرهم ، وقالوا : ننشدكم الله أن لا تضيعونا ، فرق لهم قوم ولم يهاجروا ، وقالوا : إن هاجرنا قطعنا آباءنا وأبناءنا وعشائرنا ، وذهبت تجارتنا ، وبقينا ضائعين ، وقال مجاهد ، قال العباس : أنا أسقى الحاج فلا أهاجر ، وقال صاحب مفتاح الكعبة وعمارتها ، أنا صاحب الكعبة وحاجبها فلا أهاجر فنزل :

(يا أيُّها الَّذين آمنُوا لا تتَّخذُوا آباءكم وإخْوانكم أوْلياءَ) تختارونهم على أمر الله ، فالخطاب لمن آمن ، وكان فى مكة أو بلاد العرب ولم يهاجر للمدينة ، وذلك يقتضى أن صاحب المفتاح ، آمن قبل فتح مكة ، وذلك الذى قاله ابن عباس ومجاهد مشكل ، فإن الآية نزلت بعد فتح مكة ، وقد نسخت الهجرة ، فكيف تكون الآية حصنا عليها ، ولعلها عند ابن عباس ، ومجاهد : نزلت قبل الفتح ، وجعلت فى هذه السورة ، وكان من عصى مانعة فهاجر ، يأتيه ابنه أو أبوه أو أخوه غيرهم ، فلا يلتفت إليه ولا ينزله ، ولا ينفق عليه ، ثم رخص لهم بعد ذلك فى الإنزال والإنفاق ونحوهما .

وقال مقاتل : نزلت الآية فى عشرة ارتدوا ولحقوا بمكة ، أن لا يلونهم بإفشاء السر إليهم ، ومحبتهم ، والتحقيق أن الآية ناهية عن اتخاذ الكفار أولياء على الإطلاق ، وحكمها باق إلى يوم القيامة ، ولو كانوا آباء أو

إخوانا أو أبناء أو نحوهم من الأقارب ، وإنما لم يذكر الأبناء لأنهم غالبا تابعون للآباء لا بالعكس .

(إنِ استَحبُّوا الكُفْرَ عَلى الإيمانِ) فإنهم حينئذ صادوكم عن الإيمان والطاعة ، وقرأ عيسى بن عمرو بفتح همزة أن ، أى لأن استحبوا فهى مصدرية ، وإنما عدى استحب بعلى لتضمنه معنى التفضيل والحرص .

(ومَنْ يتَولَّهم منكُم فأولئكَ هُم الظَّالمونَ) وضع التولى فى غير موضعه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يطعم أحدكم طعم الإيمان حتى يحب فى الله ، ويبغض فى الله ، حتى يحب فى الله أبعد الناس عنه ، ويبغض فى الله أقرب الناس إليه » .

(قلْ) لهؤلاء الذين لم يهاجروا على ما مر عن ابن عباس ، ومجاهد وهذه الآية تؤيد قوليهما لظهورها فيهما ، ولا يقال : هى غير ظاهرة فى قول مجاهد من حيث إن مانع العباس وصاحب المفتاح من الهجرة السقاية والعمارة ، لأنا نقول : مانعهما حب القرابة والمال والمساكين ونحوها ، ولو تعلقا بالساقية والعمارة ، والآيتان نزلتا قبل فتح مكة عندهما ، كما وجدته نصا بعد ما ترجيته ترجيا فى الأولى ، وإذا قلنا : بعد الفتح فذلك زجر عن القعود عن الجهاد ، وعن القعود عن السفر لتعلم الشريعة ، حبا للقرابة والموطن والمال .

(إنْ كانَ آباؤكُم وأبْناؤكُم وإخْوانكُم وأزْواجكُم وعَشيرتُكم) أقرباؤكم ، وقيل : الأدنون من أهلكم الذين تعاشرونهم ، هو قيل : مأخوذة من العشرة ، فإنها جماعة إلى عقد العشرة ، وقيل : من العشرة

بمعنى المعاشرة ، وقرأ أبو بكر ، عن عاصم ، وأبو رجاء ، وأبو عبد الرحمن ، وعصمت : وعشيراتكم جمعا بالألف والتاء ، وهو قليل : قال الأخفش: إنما تقول العرب عشائر ولا تكاد تقول عشيرات ، وقرأ الحسن : وعشائركم ، ووجه الجمع أن المخاطبين ليسوا من عشيرة واحدة ، وإنما أفرد الجمهور إرادة للجنس ، والخطاب قرينة •

(وأمْوالٌ اقْترفْتُموها) اكتسبتموها ، وأصل الاقتراف والمقارفة مقاربة الشيء (وتجارةٌ تخْشَوْن كَسادَها) عدم غلائها ، وقال ابن مبارك : المراد البنات يخشون أن لا يجدوا لهن خاطبا •

(ومَسَاكنُ) مواضع السكنى كالدور والبيوت والقصور (تَرْضَوْنها) لم تكرهوها (أحبَّ) خبر كان ، وأفرد مع أن ما تقدم غير مفرد لأنه اسم تفضيل منكر ، وهو شاذ قياسا ، فصح استعمالا من حيث إنه من المبنى للمفعول ، وكان الحجاج بن يوسف يقرأ أحب بالرفع ، وسئل يحيى بن يعمر : هل تسمعنى ألحن ؟ قال : نعم ، ترفع أحب فى هذه الآية فنفاه ، وقال عياض : له وجه فى العربية ، وهو أن يجعل فى كان ضمير الشأن ، فيكون أحب خبر المبتدأ بعدها ولم يقرأ بذلك •

(إليْكُم مِنَ اللهِ ورسُولِه وجِهادٍ فى سَبيلِه) والمراد الحب الاختيارى ، وإلا فالإنسان مطبوع على حب من ألف ، وحب المال والوطن والراحة والسلامة (فَتَربَّصُوا حتَّى يأتى اللهُ بأمره) قال ابن عباس ، ومجاهد ، ومقاتل : هو فتح مكة ، وقال الحسن عقوبة عاجلة ، أو آجلة ، وعنه : القيامة ، والأول نص فى أن الآية قبل الفتح ، والآية موجبة أبدا أن يختار الإنسان أمر الله على أمر نفسه •

(واللهُ لا يهْدِى القَوْمَ الفَاسِقِينَ) لا يستعملهم فى أمر ينفعهم فى الآخرة ما دام تاركا لهم على فسقهم ، فما عملوه من طاعة غير نافع لهم ، أو لا يهدى من سبق فى علمه موته على الفسق ، والفسق هنا الشرك والنفاق ، وقيل : الشرك وقد اختلفوا فيمن آمن ولم يهاجر ، فقيل : مشرك ، وقيل : منافق لا يرث من آمن وهاجر ، ولا يرثه هو ، قيل : من تولى مشركا فهو مشرك ، ومن تولى منافقا فهو منافق ، والأول مشكل إلا إن أريد مشرك نزل النص أنه يموت مشركا ، أو تولى مشركا لشركه أو عنادا .

(ولَقَدْ نَصَرَكُمْ) خطاب للمؤمنين (اللهُ فى مَوَاطِنَ) أماكن وهى مواقع الحرب (كَثِيرةٍ) كبدر وقريظة والنضير وخيبر ، وفتح مكة ، وكانت غزوات رسول الله صلى الله عليه وسلم تسع عشرة غزوة فيما قال زيد بن أرقم ، قيل : قاتل فى ثمانٍ منهنّ ، ومجموع غزواته وسراياه وبعوثه سبعون ، وقيل : ثمانون ، وقيل : ثمانٍ وثمانون ، قال بعضهم : يوصف بالنصر فى جميعها ، وأنها المراد بالمواطن ، وخرج فى سبع وعشرين بنفسه .

والثمانى التى قاتل فيها هن : بدر ، وأحُد ، والمريسيع ، والخندق ، وقريظة ، وخيبر ، وحنين ، والطائف ، وزاد بعضهم : بنى النضير ، وبعض : فتح مكة ، على أنها فتحت عنوة ، قال بعضهم : بعث فى سبع وأربعين ، وخــرج فى ســبع وعشرين ، تلك العشرة المذكورة ، وغزوة الأبواء ، وغزوة بواط ، وبطن ينبع ، وبدر الأولى ، وبنى سليم ، والسويق ، وغطفان ، ونجران ، وحمراء الأسد ، وذات الرقاع ، وبدر الثالثة ، ودومة الجدل ، وبنى لحيان ، وذى قرد ، والحديبية ، ولا يريد قتالا ، وعمرة القضاء وتبوك .

(ويَوْمَ) ظرف لمحذوف أى ونصركم يوم حُنين ، لا معطوف على محل قوله : « فى مواطن » لأن الزمان لا يعطف على المكان ولا العكس ، ولأنه قد أبدل إذ من قوله : « إذ أعجبتكم كثرتكم » من يوم ، فلو عطف يوم على محل قوله : « فى مواطن » لزم أن يكونوا قد أعجبتهم كثرتهم فى تلك المواطن الكثيرة ، ولم يقع الإعجاب بالكثرة فى غير حنين ، ولم تكن الكثرة فى غيره ، وإن نصبنا إذ باذكر لم يلزم ذلك ، وبقى عطف الزمان على المكان ، قاله جار الله .

قلت : بحث بعض المتأخرين بأنه لا مانع من عطف الزمان على المكان والعكس ، كما تعطف إحدى القصتين المتباينتين على الأخرى ، وما ذكره من لزوم إعجاب الكثرة فى المواطن الكثيرة ، من عطف يوم على « فى مواطن » مع إبدال إذ من يوم غفلة منه ، لأنه لا مانع من تقييد بعض المعطوفات بما لم يقيد به غيره ، وعلى منع عطف الزمان على المكان والعكس ، يتوصل إلى العطف بجعل مواطن اسم زمان ، أى أزمنة استوطنوا فيها مواضع للحرب ، والاستيطان هنا مجرد المكث ، وبتقدير فى أيام مواطن ، أو بتقدير وموطن يوم .

(حُنَيْنٍ) واد بين مكة والطائف ، قريب من ذى المجاز ، بينه وبين مكة بضعة عشر ميلا ، قال بعضهم : هو ماء بينه وبين مكة ثلاث ليال قرب الطائف ، وهو بصيغة التصغير ، ولو اعتبر معنى التأنيث كالبقعة لمنع الصرف له مع العلمية .

(إذْ أعْجبتْكُم كَثْرتكُم) وكانوا اثنى عشر ألفا ، عشرة آلاف حضروا فتح مكة ، وألفان انضموا إليهم من الطلقاء ممن أسلم من أهل

مكة ، والطلقاء الذين أطلقهم يوم فتح مكة ولم يسترقهم ، والواحد طليق بمعنى مطلوق .

وقال الكلبى : كانوا قريبا من عشرة آلاف ، وقيل عنه : كانوا عشرة آلاف ، وقال عطاء : ستة عشر ألفا وهو ضعيف ، وظاهر كلام النحاس أنهم أربعة شر ألفا ، قال بعضهم : وهو غلط .

قال بعضهم : خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمانون رجلا من المشركين ، منهم صفوان بن أمية ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم استعار منه مائة درع بأداتها ، وكان المشركون أربعة آلاف من هوازن وثقيف ، وكان على هوازن مالك بن عوف النصرى ، وعلى ثقيف كنانة بن عبد ياليل بن عمرو ، وقال بعضهم : انضم إليه أخلاط الناس ، حتى صاروا ثلاثين ألفا ، ويرده إعجاب المؤمنين بكثرتهم ، إذ لا تعجبهم كثرتهم مع هذا العدد من عدوهم ، إلا إن أعجبتهم قبل أن يعلموا عدد عدوهم ، وقبل أن يروهم ، ومع هذا يضعفه ما ذكروا من أن الله سبحانه غلب المشركين عليهم أولا ، ليعلموا أن النصر بالله لا بالكثرة ، وليذل رؤساء دخلت حرمه مرتفعة بالفتح لا متواضعة ، كرسوله إذ دخلها منحنيا على مركوبه .

(فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً) من الإغناء ، أو من أمر العدو ، فهو مفعول به ، ويجوز كونه مفعولا مطلقا ، أى فلم تغن عنكم إغناء وذلك أن بعضا من المسلمين قال : لن نغلب اليوم من قلة إعجابا بكثرتهم ، ومن للتعليل ، ومعناه لا نغلب لقلة ، بل إن كانت الغلبة فلأمر غير القلة ، وذلك لعدم القلة كذا كنت أفهم ، ثم رأيته للسعد فى حاشية الكشاف والحمد لله ، فوكلهم الله إلى كثرتهم ، وتلك الكلمة ، فكانوا مغلوبين ، ثم

نصرهم فكانوا غالبين ، ولما قال القائل ذلك ساء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو ابن سلامة بن رقيش الأنصارى ، وقال ابن المسيب : أبو بكر ، وقال ابن جرير الطبرى : هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقره الثعالبى ، ورد عليه غيره بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يلتفت إلى كثرة العـدد .

(وضَاقَتْ عَلَيْكم الأرْضُ بما رَحُبَتْ) الباء بمعنى مع ، وما مصدرية ، أى مع وسعها ، ويتعلق بمحذوف حال من الأرض ، أى كانت عليكم ضيقة كمن لا يسعه مكانه ، وذلك كناية عن شـدة الرعب (ثمَّ ولَّيْتم مُدْبرينَ) أى وليتم الكفـار ظهوركم ، أى جعلتموهم تالين لظهوركم بفراركم ، ومدبرين حال مؤكـدة لعاملها ، وقد يقـال : مؤسسة بأن يجعل التولى بمعنى الرجوع المطلق إلى خلف ، ومدبرين بمعنى منهزمين ، والعطف على « أعجبتكم كثرتكم » لتصح المهلة ، ويجوز أن يكون على « ضاقت عليكم الأرض بما رحبت » على أن ثم بمعنى الفاء ، أو كانت مهلة بين الضيق والتولى ، أو عد ما بينهما ولو قليلا مهلة .

روى أنهم انهزموا حتى بلغ بعضهم مكة ، وذلك التولى زلة من المسلمين ، لكن من فرمنهم لا للكثرة على نية العود للفئة ، أو كالمتحرف لقتال ، فإنه لفراره تتفرق عنه الكثرة ، ويقال : تابعه ، وعن قتادة : إن المنهزمين أولا هم الطلقاء ، قصدوا إلقاء الهزيمة فى المسلمين ، ولم ينهزم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبقى معه ثلاثمائة رجل من المسلمين وقيل : انكشفت خيل بنى سليم مولية ، وتبعهم أهل مكة ، ولم يثبت معه إلا العباس بن عبد المطلب ، وابنه قثم ، وعلى بن أبى طالب ، والفضل بن العباس ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وأخوه ربيعة ، وأبو بكر ، وعمر ، وأسامة بن زيد ، وأخوه لأمه أيمن بن أم أيمن فى أناس مـن

أهل بيته وأصحابه ، ولا يبلغون مائة ، وقيل : لم يبق معه إلا العباس ، وأبو سفيان ، وأيمن ، وقيل : على ، والعباس ، وأبو سفيان آخذ بعنان بغلته صلى الله عليه وسلم ، وهم من بنى هاشم ، وابن مسعود من الجانب الآخر ، وقال العلامة الزرع فى مذهبه النووى ، تلميذ ابن مالك : بقى معه اثنى عشر رجلا .

وروى أنهم لما التقوا اقتتلوا قتالا شديدا ، فانهزم المشركون وخلوا عن الذرارى ، ثم تنادوا يا حماة السواد ، اذكروا الفضائح فتراجعوا ، وانكشف المسلمون ، وعن شعبة ، عن أبى إسحاق ، عن البراء بن عازب : أن هوازن كانوا قوما رماة ، ولما لقيناهم حملنا عليهم فانهزموا ، فأقبل المسلمون على الغنائم فاستقبلونا بالسهام ، فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يفر ، وعن البراء : انطلق شبان مسرعون قليلو السلاح ، لا دروع عليهم ، ولقوا جمعا رماة من هوازن وبنى نصر ، فرموهم بنبل كأنها قطعة جراد ، ولا يكاد يخطأ لهم سهم ، فانكشفوا ، وأشهد الله أن رسوله لم ينكشف ، وكنا والله إذا اشتدت الحرب نتقى به ، وإن الشجاع منا الذى يحاديه ، وكان على بغلته البيضاء دلدل لكمال شجاعته ، وقوة قلبه ، وثقته بربه ، فإن البغلة لا تصلح للقتال ، وإنما يصلح له الفرس ، لأنه يكر ويفر فى سرعة ، وذلك لا يسهم فى الحرب إلا للخيل ، وأما البغال فمن مراكب الطمأنينة .

قال : ابن المرابط من المالكية : من قال إن النبى صلى الله عليه وسلم هزم يستتاب ، فإن تاب وإلا قتل ، قال البساطى : إنما يصح هذا بناء على أن من سب رسول الله صلى الله عليه وسلم تقبل توبته ، لا على قول من قال : لا تقبل ، وأجمعوا أنه لا يجوز وصفه بالانهزام ، وكان على رسول الله صلى الله عليه وسلم درعان ومغفر وبيضة ، واستقبلهم من

هوازن مالم يروا مثله قط من الكثرة فى غبش الصبح ، وخرجت الكتائب من مضيق الوادى ، فحملوا حملة واحدة ، وكانوا قد كمنوا فى مضايقه وشعبه وأحنائه ، وهو واد تنحدر فيه انحدارا ، فانكشف بنو سليم وأهل مكة والناس ، ولم يبق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا قليل ، ولا يقبل نحوه مشرك إلا قتل ، وكان صلى الله عليه وسلم يركض بغلته قبل الكفار ، قال العباس : وآنا آخذ بلجامها لئلا تسرع ، وأبو سفيان آخذ بركابه صلى الله عليه وسلم .

(ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ) طمأنينته ، هى خلق له تعالى ، أنزلها رحمة (عَلَىٰ رَسُولِهِ) وكان قبلها قد خاف على المسلمين الغلبة ، فزال خوفه بالسكينة (وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ) وكانوا قبلها منهزمين ، ورجعوا بها ، واطمأنوا ، وأعاد على تنبيها على اختلاف حالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحالة المؤمنين ، وقيل : المراد بالمؤمنين الذين ثبتوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لما انهزم الناس .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للعباس ، وكان صيتا : « ناد أصحاب السمرة » يعنى الشجرة وهى شجرة بيعة الرضوان ، بايعوه تحتها أن لا يفروا ، فنادى بأعلى صوته : يا أصحاب السمرة ، قال العباس : فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتى عطفة البقر على أولادها ، يقولون : يالبيك يالبيك ، وقال له أيضا : « ناد الأنصار خصوصا » فناداهم ، ثم قال : « ناد بنى الحارث من الخزرج خصوصا » فعطفوا كما مر عطفة البقر على أولادها ، وفى رواية : كأنها الإبل إذا حنت على أولادها ، حتى إن الرجل منهم إن لم يطاوعه بعيره على الرجوع انحدر عنه ورجع بنفسه ، وأول من وصل إليه عصابة من الأنصار فقال : « أما معكم غيركم ؟ » فقالوا : والله يا نبى الله لو عمدت بنا إلى كذا لكنا معك .

وروى أن العباس كان ينادى تارة : يا أصحاب الشجرة ، وتارة : يا أصحاب سورة البقرة ، يعنى مـن أنزلت عليهم سورة البقـرة : أو المؤمنين فى قوله : « والمؤمنون كل آمن بالله » الخ قولان ، وأمرهم صلى الله عليه وسلم أن يصدقوا الحملة ، فاقتتلوا مع الكفار ، فأشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوق بغلته كالمتطاول إلى القتال فقال : « الآن حمى الوطيس » وهو التنور يخبز فيه ، يضرب مثلا لشدة الحرب التى يشبه حرها حره ، وهذا من فصيح الكلام الذى لم يسمع من أحد قبل النبى صلى الله عليه وسلم ، وتناول حصيات من الأرض ثم قال : « شاهت الوجوه » أى قبحت ، ورمى بها فى وجوه المشركين ، ثم قال : « انهزموا ورب محمد » وفى رواية : « انهزموا ورب الكعبة ، انهزموا ورب الكعبة » وزاد فى رواية حتى هزمهم الله .

قال العباس : نظرت فإذا القتال عـلى حاله فيما أرى ، ثـم ظهر انهزام المشركين ، وروى أنه أخذ قبضة من تراب من الأرض ، قيل : إما أنه رمى بالحصى مرة ، وبالتراب أخرى ، وإما أن يكون قد أخذ قبضة مخلوطة من حصى وتراب .

وروى أنه لما ولى المسلمون قال : « أنا عبد الله ورسوله ، أنا عبد الله ورسوله » ثم اقتحم عن فرسه فأخذ كفا من تراب ، قـال أبو عبد الرحمن الفهرى : أخبرنى من كان أدنى إليه منى أنه ضرب وجوههم وقال : « شاهت الوجوه » فهزمهم الله تعالى ، وهذا مخالف لما مر أنه فعل ذلك على البغلة ، إلا إن سميت فرسا أشبهها بالفرس .

قال لعلى بن عطاء ، عن أبى همام ، عن أبى عبد الرحمن ، الفهرى ، حدثنى أبناؤهم ، عن آبائهم أنهم قالوا : لم يبق منا أحد إلا امتلأت عيناه

وفمه ترابا ، وعن سلمة بن الأكوع : لما ولى الناس يوم حنين ، رجعت منهزما ، فمررت بالنبى صلى الله عليه وسلم وهو على بغلته الشهباء ، فقال صلى الله عليه وسلم : « لقد رأى بن الأكوع فزعا » فلما غشوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، نزل عن البغلة ثم قبض قبضة من تراب الأرض ، ثم إستقبل بها وجوههم فقال : « شاهت الوجوه » فما خلق الله منهم انسانا إلا ملأ الله عينيه ترابا بتلك القبضة ، فولوا مدبرين ، وهذا يخالف ما مر من أنه على بغلة بيضاء .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه : مال سرج بغلته ، فقلت : ارتفع رفعك الله ، فقال : ناولنى كفا من تراب » فضرب وجوههم وامتلأت عيونهم ترابا ، وجاء المهاجرون والأنصار سيوفهم بأيمانهم كأنها الشهب ، فولى المشركون الأدبار ، قال رجل كان مع المشركين فى تلك الوقعة ثم أسلم : لما التقينا نحن وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقوموا لنا حلب شاة ، وسقناهم حتى انتهينا إلى صاحب البغلة البيضاء ، فإذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتلقانا عنده رجال بيض الثياب والوجوه حسانا ، فقالوا لنا : شاهت الوجوه ارجعوا فانهزمنا ، وركبوا أكتافنا .

وروى أنه لما انهزم المسلمون نزل واستنصر وقال : « أنا النبى لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب ، اللهم أنزل نصرك » أى أنا النبى حقا وصدقا ، وأنا النبى ، والنبى لا يكذب ، فسيقع وعد النصر ، ولا أفر ، ونسب نفسه إلى عبد المطلب مراعاة للفاصلة ، ولأنه اشتهر بجده عبد المطلب ؛ لأن أباه عبد الله توفى فى حياة أبيه عبد المطلب قبل مولده صلى الله عليه وسلم ، وكفله عبد المطلب ، وهو سيد قريش ، ومشهور شهرة ظاهرة ، وأمر المسلمين أن يقتلوا من قدروا عليه ، وأفضوا فى القتل إلى الذرية ، فنهاهم عن ذلك وقال : « من قتل قتيلا له عليه بينة فله سلبه » واستلب

أبو طلحة وحده ذلك اليوم عشرين رجلا ، ولم ينهزم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى موطن من المواطن .

وسأل رجل من قيس البراء : أفررتم يا أبا عمارة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين ؟ قال : لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفر ، كان هوازن رماة ، وإننا لما حملنا عليهم انكشفوا فأكببنا على الغنائم ، فاستقبلنا بالسهام ، قال شيبة بن عثمان بن أبى طلحة : رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يوم حنين وقد انهزم الناس ، وذكرت أبى وعمى قتلهما حمزة يوم أحد ، فقلت : أدرك ثأرى فى محمد ، فبادرته لأقتله ، فأقبل شىء حتى تغشى فؤادى ، فلم أطق ذلك ، وعلمت أنه ممنوع منى .

وقال السهيلى عنه : إنه قال جئته عن يمينه ، فإذا أنا بالعباس قائما عليه درع بيضاء فقلت : عمه لن يخذله ، فجئته عن يساره فإذا أنا بأبى سفيان بن الحارث ، فقلت ابن عمه لن يخذله ، فجئته من خلفه فدنوت ودنوت ، حتى لم يبق إلا أن أسور بالسيف ، فرفع إلى شواظ من نار كأنه البرق ، فنكصت على عقبى القهقرى ، وقيل : فرأيت خندقا من نار بينى وبينه ، وسورا من حديد ، فرجعت القهقرى ، فالتفت إلىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبسم ، وعرف الذى أردت ، فقال : « يا شيبة ادنه » فدنوت ، فوضع يده على صدرى ، فاستخرج الله الشيطان من قلبى ، فرفعت إليه بصرى ، فلهو أحب إلىّ من سمعى وبصرى ، وفى رواية : فضرب فى صدرى ، فقال أعيذك بالله يا شيبة ، فارتعدت فرائصى ، فنظرت إليه وهو أحب إلىّ من سمعى وبصرى ، فقلت : أشهد أنك رسول الله ، أطلعك الله على ما فى نفسى ، فقال لى : « يا شيبة قاتل الكفار » فقاتلت معه صلى الله عليه وسلم ، وزاد عياض

عنه أنه وضع يده على صدرى وهو أبغض الخلق إلىّ ، فما رفعها إلا وهو أحب الخلق إلىّ ، وتقدمت أمامه أضرب بسيفى وأقيه بنفسى ، ولو لقيت أبى فى تلك الساعة إلا وقعت به .

(وأنْزلَ جُنوداً لم تَروْها) بعيونكم وهى الملائكة ، وكانت خمسة آلاف ، أو ثمانية آلاف ، أو ستة عشر ألفا أقوال ، وكانت عمائمهم حمرا أرخوها بين أكتافهم ، واختلفوا : هل قاتلت الملائكة يوم حنين أم لا ؟ وكانت تخذيلا للمشركين ، وتجبينا لهم ، وتثبتوا المؤمنين بإلهام ، قال رجل من بنى نصر بعد القتال للمؤمنين وهو أسير : أين الخيل البلق ، والرجال الذين عليهم الثياب البيض ، وإنما كان قتلنا بأيديهم ما كنا نراكم فيهم إلا كهيئة الشامة ، قالوا : تلك الملائكة .

قال جبير بن مطعم : لقد رأيت قبل هزيمة القوم والناس يقتتلون مثل البجاد الأسود ، أقبل من السماء حتى سقط بيننا وبين القوم ، فنظرت فإذا نمل أسود مبثوث قد ملأ الوادى ، لم أشك أنها الملائكة ، ولم يكن إلا هزيمة القوم ، ولا تنافيه الآية ، لأن مراد ما لم تروها وبصورها وصور الرجال ، ورآها المشركون بصور رجال ، والبجاد الكساء ، وسمع الكفار صلصلة من السماء كإمرار الحديد على الطست الجديد ، وذلك نزول الملائكة ، وعن يزيد بن عامر : كان فى أجوافنا ضربة الحجر فى الطست من الرعب .

(وعذّبَ الّذينَ كفَرُوا) بالقتل ، والأسر ، والسبى ، والسلب ، روى أنه قتل منهم أكثر من سبعين ، ومن المسلمين أيمن بن أم أيمن رضى الله عنه حين فر الناس وهو بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وثلاثة معه رضى عنهم وأثقل ، خالد بن الوليد بالجراح ، وقال صلى الله عليه

وسلم : « من يدلني على رحل خالد » فدل عليه ، فوجده مستندا على مؤخر رحله ، فنفث على جراحه فبرىء .

قيل : قتل من المشركين سبعون تحت الرايات ، ولما انهزموا تبعوهم يقتلوهم ، وسبوا ستة آلاف من الذرارى والنساء ، وأما الإبل والشاء فلا ندرى عدتها لكثرتها ، وأربعة آلاف أوقية من فضة ، والأوقية أربعون درهما ، وذكر بعض أن الإبل أربعة وعشرون ألف بعير والغنم أكثر من أربعين ألف شاة ، وذلك أن مالك بن عوف ساق مع الناس العيال والمال ليقاتلوا عنها .

وذلك أنه لما فتح الله مكة لرسوله سمعت به هوازن ، وجمعها مالك ابن عوف النصرى ، فاجتمع إليه ثقيف كلها ، ونصر ، وجشم ، وسعد ابن بكر ، وناس من بنى هلال ، وفى جشم دريد بن الصمة شيخ كبير ليس فيه شىء إلا التيمن برأيه ومعرفته بالحرب ، وكان شيخا مجربا ، ولما نزلوا بأوطاس قال لهم : بأى واد أنتم ؟ قالوا : بأوطاس ، قال : نعم مجال الخيل ، لا حزن ضرس ولا سهل دهس ، مالى أسمع رغاء البعير ، ونهاق الحمير ، وبكاء الصغير ، ويعار الشاء ؟ قالوا : ساق مالك بن عوف مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم ، قال : أين مالك ؟ قيل له : هو هذا ، فقال : يا مالك إنك قد أصبحت رئيس قومك ، وإن هذا يوم كائن له ما بعده من الأيام ، مالى أسمع رغاء البعير ، ونهاق الحمير ، ويعار الشاء ؟ قال : سقت مع الناس أموالهم وأبناءهم ونساءهم ، قال : أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم ، فقال له : راعى ضان الله ، وهل يرد المنهزم شىء إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فضحت فى أهلك ومالك .

ثم قال دريد : ما فعلت كعب وكلاب ؟ قالوا : لم يشهدها منه أحد ، قال : غاب الحد والجد ، لو كان يوم علاء ورفعة ما غاب عنه كلاب وكعب ، ولوددت أنكم فعلتم ما فعلت كعب وكلاب ، ثم قال : يا مالك رد المال والعيال إلى موطنهم ، وألق الناس على متون الخيل ، فإن كانت لك لحق بك من ورائك ، وإن كانت عليك أحرزت أهلك ومالك ، قال : والله لا أفعل ، إنك كبرت وكبر عقلك ، فقال دريد : هذا يوم لم أشهده ، ولم يفتن ، ياليتنى فيها جذع أخب فيها وأضع .

وبعث مالك بن عوف عيونا من رجاله ، فأتوه وقد تفرقت أوصالهم ، فقال : ويلكم ما شأنكم ؟ فقالوا : رأينا رجالا بيضا على خيل بلق ، فوالله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترون ، ولما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إليهم عبد الله بن أبى حدرد ، فدخل فيهم ، وأقام بأمر رسول الله فيهم ، حتى سمع من مالك وهوازن ، وعلم ما أجمعوا له من الحرب ، وجاء فى العشية فارس فقال : يا رسول الله إنى انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا ، فإذا بهوازن على بكرة أبيهم بظعنهم نعمهم وشائهم ، اجتمعوا إلى حنين ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « تلك غنيمة المؤمنين غدا إن شاء الله » فكان الأمر كما قال .

والبكرة التى يستقى عليها الماء تستعيرها العرب للكثرة ، والظعن جمع ظعينة وهى الراحلة التى يرحل عليها أى يسار ، ويقال للمرأة ظعينة لأنها تظعن مع زوجها ، ولأنها تحمل على الراحلة إذا ظعنت ، وقيل : الظعينة المرأة فى الهودج ، ثم قيل للمرأة بلا هودج ، وللهودج بلا امرأة ظعينة .

وروى أن المشركين انهزموا إلى أوطاس ، وبها عيالهم وأموالهم ، وبعض إلى الطائف ، وبعض نحو نخلة ، وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا من الأشعريين يقال له : أبو عامر ، وأمّره على الجيش ، فسار إلى أوطاس فاقتتلوا ، وقتل دريد بن الصمة ، وقتله ربيعة بن رفيع ابن أهبان ، ويقال له ابن الدغنة ، وهرب مالك بن عوف إلى الطائف ، فتحصن بها مع ناس من أشراف قومه ، وأخذ ماله ومال جيشه وعيالهم ، وقتل أبى عامر أمير المسلمين .

وعن ابن المسيب : أصابوا ستة آلاف صبى ، قتل أبو عامر فى أوطاس تسعة من المشركين ، بعد أن يدعو كل واحد منهم إلى الإسلام ويقول : اللهم اشهد عليهم ، وبرز له العاشر فدعاه إلى الإسلام ، وقال : اللهم اشهد عليه ، فقال : اللهم لا تشهد علىّ فكف عنه أبو عامر ، فأفلت ثم أسلم وحسن إسلامه ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رآه قال : « هذا شريد أبى عامر » ورمى العلاء وأوفى ابنا الحارث أبا عامر فقتلاه ، فخلفه أبو موسى الأشعرى ، وقاتل حتى فتح الله وقتلا ، وكان فى السبى الشيماء أخته صلى الله عليه وسلم من الرضاعة ، وقال صلى الله عليه وسلم : « اللهم اغفر لأبى عامر واجعله من أعلى أمتى فى الجنة » .

وروى أنه لما رمى بالسهم قال لأبى موسى : يا ابن أخى أقرىء النبى صلى الله عليه وسلم السلام وقل له يستغفر لى ، ثم مات ولما فرغوا دخل أبو موسى على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بالوقعة ، أو بخبر أبى عامر ، وقوله : قل له يستغفر لى ، فدعا بماء وتوضأ ورفع يديه وقال : « اللهم اغفر لعبيدك أبى عامر » ورأيت بياض إبطيه ، ثم قال : « اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثيرين من خلقك » .

ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الطـائف فحاصرهم بقيـة الشهر ، من ذلك أنه خرج لحنين من مكة يوم السبت لست ليال مضين من شوال ، واستخلف عليها عتاب بن أسيد بفتح العين المهملة وتشديد المثناة وفتح الهمزة وكسر السين ، وانصرف عـن الطائف حين دخـول ذى القعدة ، وأتى الجعرانة فأحرم منها بعمرة ، وقسم بها غنائم حنين وأوطاس •

وتألف أبا سفيان بن حرب ، والحارث بن هشام ، وسهيل بن عمرو ، والأقرع بن حابس ، وعيينة ، وعباس بن مرداس ، وصفوان بن أمية ونحوهم بالعطاء الجزيل ، ليرسخ الإسلام فى قلوبهم وقلوب أتباعهم ، أعطى كلا ممن ذكر مائة مائة من الإبل ، إلا عباس بن مرداس فدونها ، فقال الأشعار التى ذكر صاحب الوضع رحمه الله ، والشيخ خالد فى باب النعت من التصريح ، فأتم له المائة •

وروى أن أبا سفيان بن حرب ، جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين يديه الفضة فقال : يا رسول الله إنك أصبحت أكثر قريش مالا ، فأعطنى من هذا المال ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « يا بلال زن لأبى سفيان أربعين أوقية ، وأعطه مائة من الإبل » قال : وابنى يزيد فأعطه يا رسول الله ، فقال نبى الله صلى الله عليه وسلم : « زنوا ليزيد أربعين أوقية ، وأعطوه مائة من الإبل » فقال أبو سفيان : والله إنك لكريم فداك أبى وأمى ، لقد حاربتك فنعم المحارب ، ولقـد سالمتك فنعم المسالم أنت ، جزاك الله خيرا •

وطفق يعطى رجالا من قريش المائة من الإبل ، فقال نـاس مـن الأنصار : يغفر الله لرسوله صلى الله عليه وسلم يعطى قريشـا ويتركنا

وسيوفنا تقطر من دمائهم ، فبلغه ذلك فجمع الأنصار وحدهم فى قبة من أدم فقال : « حديث بلغنى عنكم » فقال فقهاؤهم : أصادقنا لم يقولوا ، وأما ناس منا حديثة أسنانهم فقالوا : يغفر الله إلى آخر ما مر ، فقال : « إنى أعطى رجالا حديثى عهد بكفر أتألفهم ، أفلا ترضون أن يذهب الناس بالمال وتذهبون برسول الله ، فوالله ما تنقلبون به خير مما ينقلبون به » قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : « فإنكم ستجدون بعدى أثرة شديدة فاصبروا حتى تلقونى على الحوض » قالوا : نصبر ، قال أنس : فلم نصبر وخطبهم فقال : « ألم أجدكم ضلالا » إلى آخر ما مر ، وقال : « الناس دثارى والأنصار شعارى » .

وإنما أخر رسول الله صلى الله عليه وسلم قسمه الغنيمة انتظارا لقدوم وفد هوازن ، وجاء بعد قسمها وفد مسلمون فسألوه رد المال والسبى ، فقال : « إن معى ما ترون وأحب الحديث أصدقه فاختاروا إما المال وإما السبى ؟ » فقالوا : لا نعدل بالأحساب شيئا فقال :« أما ما لعبد المطلب فهو رد لكم ، وإذا صلى الناس الظهر فأظهروا إسلامكم » ولما صلى أخبرهم بأن هؤلاء جاءوا تائبين يريدون الرد ، وخيرتهم فاختاروا الأحساب ، أما مالى ولبنى عبد المطلب فقد رددته لهم ، ومن لم يطب نفسا فليعطهم فرضا علينا متى نصب نرد » فقال الناس : ما لنا لله ولرسوله ، فقال : « لا أدرى لعل فيكم من لا يرضى فليرفع إلينا عرفاءكم ذلكم » فرفعت إليه العرفاء أن قد رضوا .

(وذَلكَ جَزَاءُ الكَافرينَ) فى الدنيا ، وجزاؤهم فى الآخرة النار .

(ثمَّ يتوبُ اللهُ مِن بَعْد ذَلكَ عَلى مَنْ يَشاءُ) بالتوفيق إلى الإسلام كما قدم وفد هوازن مسلمين (واللهُ غَفورٌ) لمن تاب (رَحيمٌ) لعباده .

(يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون) أراد عبدة الأصنام ، وغالب آيات القرآن يكون المشركون فيه غير أهل الكتاب كقوله : « ولا تنكحوا المشركات » وقوله : « والذين أشركوا » وقيل : أراد أصناف الكفار مطلقا عبدة الأصنام ، واليهود والنصارى والصابئين والمجوس ، وقول بعض المتأخرين من أصحابنا : المراد فى الآية عبدة الأوثان فقط ، وإلا لم يصح لأصحابنا الأختلاف فى أهل الكتاب ، لا يشكل نحمل أصحابنا النجاسة فى الآية على نجاسة العين ، لأنه المتبادر •

(نَجَس) قال أصحابنا جميعا : المراد بالمشركين فى الآية عبدة الأوثان ، وبنجاستهم نجاسة أعيانهم ، لكن لا يتنجس مالقيها إلا إن كانت مبلولة ، أو كان مبلولا ، وكذا قالوا فى المجوس ، وكذلك قال ابن عباس فى عبدة الأوثان : إن نجاستهم لأعيانهم من حيث الشرك ، بل قال الحسن بن صالح ، والحسن البصرى : من مس مشركا أو صافحه فليتوضأ ، ولو كانا يابسين ، وبه قالت الزيدية من الشيعة •

وقيل : المراد بنجاستهم خبث باطنهم بالشرك وسائر الاعتقادات الفاسدة ، وأكثر قومنا على طهارة أبدان المشركين ، بل قيل : اتفقوا عليها ، وقيل : المراد ذمهم وتنقيصهم ، وقيل : إن الخلاف فى المذهب أيضا ، ويحتمل أن يكون المراد أنه يجب أن جتنب عنهم كما يجتنب عن الأنجاس ، أو أنهم لا يتطهرون ولا يتجنبون عن النجاسة غالبا ، قال القاضى : وفيه دليل على أن ما الغالب نجاسة نجس ، قال قتادة ، ومعمر بن رشد : سموا نجسا لأنهم يجنبون ولا يغتسلون ، وإن اغتسلوا لم يجزهم ، وعن قتادة : يجنبون فلا يغتسلون ، ويحدثون فلا يتوضئون •

وأما أهل الكتاب فقال بعض أصحابنا بطهارة أبدانهم ، وبللهم بلا كراهة ، وقيل : بالطهارة مع الكراهة ، وقيل : بالنجاسة ، وذكروا ذلك على الإطلاق ، ولم يقيدوا الخلاف بمن ليس محاربا منهم وهو ظاهر قول القواعد : أن المشرك عند أصحابنا نوعان : كتابى وسواه ، وأن الكتابى فيه اختلاف حيث أدار الكلام على الكتاب ، فقسم المشرك إلى كتابى وغيره ، ولو كان الكتابى المحارب حكمه غير حكم الكتابى الذى ليس محاربا لقسمه إلى ثلاثة أقسام ، وذا أصحابنا المشارقة تذكر الخلاف فى الكتابى مطلقا .

واحتج من قال بالطهارة بقوله تعالى : « وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم » والطعام عام وقال غير واحد : المراد به الذبائح وهو قول ابن محبوب ويتوضأ عمر من جرة نصرانية ، ويأكل النبى صلى الله عليه وسلم وصحابته من اللحم الذى أهدته اليهودية .

واحتج من قال بالنجاسة بأن النبى صلى الله عليه وسلم أمر أن تغسل آنية أهل الكتاب إذا احتج إليها ، ولا حجة فى ذلك لاحتمال أنه أمر بغسلها ، لأنهم يتناولون الأنجاس والمحرمات فيها ، وقيد الشيخ يحيى توفيق الخلاف باكتابى غير المحارب ، وأما المحارب فنجس .

واختلفوا فى ذبيحة المحارب منهم ، والراجح تحريمها عندهم ، وذكر بعض المشارقة فى كتابى غسل يده أنه قيل : طاهرة مالم تعرق ، وقيل : مالم تنشف ، وقال مالك : كل حى طاهر ولو كان عابد صنم أو كلبا أو خنزيرا ، واختلف فى مشرك أو كتابى أو مجوسى أسلم فقيل : يجب عليه الغسل وقيل : لا ، واختلف فى المرتد إذا رجع إلى الإسلام ، وفى التاج : إن ارتد فى نفسه فعليه الغسل والوضوء ، وقيل : الوضوء ، ومن

تكلم بما يشرك به ولم يرد به ردة ، ومن حاله إذا علم بخطئه تاب فلا بأس عليه فى زوجته ، ولا غســل قيل عليه ، وقيل : حــرمت عليه فى حينه إن كان ذاكرا لما كان منه ، وإن كان منه خطأ ثم نسيه وتاب فى الجملة ولم يدن بذلك ولم يتعمده فقولان انتهى .

ومذهبنا ومذهب المالكية غير ابن عبد الحكم منهم : وجوب الغسل على من أسلم من الشرك أو من الارتداد ، والإخبار بالنجس وهى مصدر أو مراد به عين الخبيث كالعذرة ، إنما هو مبالغة ، وقرأ أبو حيوة : نجس بكسر النون وإسكان الجيم تخفيفا من مفتــوح النون المكســور الجيم بالنقل ، وهو وصف ، أى جنس نجس ، وأكثر ما جاء نجس بكسر فإسكان تابعا لرجس ، هذا ما يتحصل من كلام جار الله والقاضى .

وقال ابن هشام ، فى القاعدة الثانية من الباب الثامن ما معناه : إن من إعطاء الشىء حكم مجــاورة قولهم : هــو رجس نجس بكسر النون وسكون الجيم ، والأصل نجس بفتحــة فكسرة ، وحينئذ فيكــون محل الاستشهاد إنما هو الالتزام للتناسب ، وأما إذا لم يلتزم فهذا جائز بدون تقدم رجس ، إذ يقال فعل بكسرة فسكون فى كل فعل بفتحة فكسرة نحو : كتف ولبن ونبق انتهى .

﴿ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ ﴾ وأما سائر المساجد ، وسائر المشركين من أهل الكتاب والمجوس والصابئين فحكمها مأخوذ من قوله تعالى : « ما كان للمشركين » الخ ، أو مقيس على حكم المسجد الحرام وعبدة الأصنام كما فعل مالك بن أنس ، فإن المذهب عندنا أنه لا يدخل المشرك غير الكتابى ، ولا المشرك الكتابى المسجد الحرام ولا غيره من

المساجد ، ولا مواضع الصلاة والمجالس ينهى عن ذلك ، وإن لم ينته ضرب ، ولا ينهى عن قراءة القرآن ، ودراسة الكتب ، وقيل : ينهى .

وفى السؤالات : وإن دعا مشرك إلى الجملة التى يدعو إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أمر بها أو كتبها أو صوبها فإنه يجر على التوحيد ، وأما إن نهى عنها أو حكاها أو خطأها أو هجاها بتشديد الجيم فلا يجبر ، فإذا بلغ فى الجملة إلى ما أنكر أو يستقبل القبلة ، أو أقام الصلاة أو أذن فإنه يجبر على التوحيد انتهى .

والظاهر أنه أراد باستقبالها الصلاة أو دعاء أو عبادة ، وقال الشافعى : الآية عامة فى الكفار ، خاصة فى المسجد الحرام ، وأباح دخول عبدة الأوثان وغيرهم من المشركين فى سائر المساجد ، واحتج بربط ثمامة بن وثاب وقدر مر ، وقال أبو حنيفة : خاصة فى عبدة الأوثان وفى المسجد الحرام ، فأباح دخول المشرك غير الوثنى فى المسجد الحرام ، ودخول الوثنى فى سائر المساجد .

وقال جابر بن عبد الله : لا يقرب المسجد الحرام مشرك إلا أن يكون صاحب جزية ، أو عبدا لمسلم ، وإنما نهى عن الاقتراب للمسجد الحرام ، مع أن المراد النهى عن دخوله مبالغة ، وقيل : المراد بالنهى عن دخول الحرم ، وإليه يميل عطاء ، وقيل : المراد النهى عن الحج والعمرة ، لا عن الدخول مطلقا وهو رواية عن أبى حنيفة ، وروى عنه أنه يجوز للمعاهد دخول الحرم ، وهو قول أهل الكوفة ، وعن مالك ، والشافعى ، وأحمد : لا يدخل الحرم ذمى ، ولا مستأمن ، ولا غيرهما ، فإن جاء رسول من دار الكفر خرج إليه الإمام من الحرم ، أو أرسل إليه من يسمع رسالته ، وأجاز بعضهم للمشرك مطلقا أن يدخل سائر المساجد

بإذن مسلم ، ويجوز دخول المشرك الحجاز ، ولكن لا يقيم فيها أكثر من مقام المسافر وهو ثلاثة أيام •

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب ، فلا أترك فيها إلا مسلما » وأوصى بإخراجهم ، وأراده أبو بكر ولم يتفرغ لـــه ، وأخرجهم عمر منهـــا ، وهى من جـــدة إلى أطراف الشام ، ومن أقصى عدن إلى ريف العراق ، وقيل : ما أحاط بـــه بحر الهند ، وبحر الشام ، ودجلة ، والفرات ، وقيل : ما بين جفر أبى موسى إلى اليمن طولا ، وما بين رمل بثرين إلى منقطع السماوة عرضا وقيل : المدينة ، ومكة ، والحجاز ، والطائف ، وهو قول مالك ، وقيل : كلما ملكه العرب ما بلغه التوحيد ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم عربى ، ذكر ذلك الخلاف فى أواخر السؤالات الحجاز : مكة ، والمدينة ، والطائف ، ومخالفيها لأنها حجزت بين نجد وتهامة ، أو بين نجد والسراة ، أو لأنها احتجزت بالحرار الخمس : حرة بنى سليم ، وواقم ، وليلى ، وشوران ، والنار ، وقيل : نصف المدينة حجازى ، ونصفها تهامى ، وقيل : المعنى لا يتولوا شيئا من مصالح المسجد الحرام ، ولا يقوموا به •

واعلم أن مذهبنا أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة لقوله سبحانه : « مـــا سلككم فى سقر * قالوا » الخ ونحوه ، ولا دليل فى هذه الآية على ذلك عندى ، لأنها ولو كانت بظاهرها نهيا للكفار عن مقاربة المسجد الحرام ، لكن المراد بها نهى المسلمين عن أن يتركوهم ، والمقاربة كقولك : لا يكن فى المسجد ريح الثوم ، بمعنى لا تأتوا المسجد بريحه ، ثم رأيت جار الله أشار إليه والحمد لله ، وقال القاضى : إن الآية تدل على خطابهم بالفـــروع •

(بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا) عام حَجَّ أبو بكر وهو التاسع ، وهو الذى لحقه فيه علىّ بالبراءة إلى المشركين ، وقيل : عام حجة الوداع ، وبالأول قال أبو حنيفة وأصحابه ، وقد نادى على يومئذ : ألا لا يحج بعد عامنا هذا مشرك ، ولكنهم فسروا لا يقربوا المسجد الحرام ، بلا يحجوا ولا يعتمروا ، قال جار الله : لا يمنعون من دخول الحرم عندهم ، والمسجد الحرام وسائر المساجد .

(وإنْ خِفْتم عَيْلَةً) فقرا ، وقرأ علقمة وغيره من أصحاب ابن مسعود : عائلة ، وهو مصدر كالعافية والعاقبة ، أو اسم فاعل نعت لمحذوف ، أى وإن خفتم حالا عائلة (فَسَوفَ يُغْنيكُم اللهُ مِنْ فَضْله) من عطائه أو من تفضله .

روى أن الشيطان وسوس أهل مكة لما منع المشركون من دخول الحرم ، إنكم تموتون جوعا ، وذلك أنه كان المشركون يجلبون الطعام إلى مكة للتجارة ، فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزلت الآية وأنجز الله وعده بأن أرسل عليهم السماء مدرارا ، فكثر خيرهم ، وأسلم أهل جدة وصنعاء وجرشاء من اليمن ، جلبوا إلى مكة ، وفتح عليهم البلاد ، وكثرت الغنائم والجزية ، وتوجه الناس مسلمين من النواحى إلى مكة بالطعام ، وذلك ونحوه داخل فى قوله : « يغنيكم الله من فضله » وقال عكرمة أغناهم بالمطر ، وقال مقاتل : بالميرة من مسلمى جدة وصنعاء وجرشاء ، وقال قتادة ، والضحاك ، وابن عباس : بالجزية ، وعنه أمرهم بقتال أهل الكتاب ، وأغناهم بالجزية ، وقيل : بفتح البلاد والغنائم .

(إنْ شَاءَ) قيد بالمشيئة لينبه على أنه متفضل فى ذلك ، ولا واجب على الله تعالى ، وليقطع العبد أمله من غير الله ، ويديم التضرع إلى الله ، ولينبه على أنه يعطى بحسب المشيئة ، فيعطى من شاء ، بقدر ما شاء ، فى أى وقت شاء ، وقيل ذلك تعليم للأدب إذا وعدنا بشىء قلنا : إن شاء الله ، وقيل : المعنى إن أوجبت الحكمة أغناكم ، وكان مصلحة فى دينكم .

(إنَّ اللهَ عَليمٌ) بالأحوال والمصالح كلها (حَكيمٌ) فى الإعطاء والمنع وغيرهما .

(قاتِلُوا الَّذينَ لا يُؤمنُون بالله ولا باليَومِ الآخِرِ) هم أهل الكتاب كما بينه الله بعد ، وهذا من الدلائل القوية على أنهم مشركون ، حيث وصفهم بأنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، فإنهم ولو أقروا بهما لكن لا كما ينبغى ، فإن اليهود قالوا : عزير ابن الله ، والنصارى قالوا : إن الله ثالث ثلاثة ، فذلك مبطل لإيمانهم بالله ، فإن لفظ الجلالة يتضمن الانفراد بالذات ، والفعل ، والصفة ، وهم عدّدوه وشبّهوه ، إذ جعلوه والدا فذلك انكار له ، وإنما صفة الإيمان به ، أن يؤمن به منفردا بذلك ، وقد قالوا : بأنه جسم ، وقالت اليهود خصوصا : إنه أعياه خلق السموات والأرض فاستراح ، والعياء صفة مخلوق ، فقد أخرجوه بهذه الصفة عن الألوهية ، ومن لم يؤمن بالله لم يصح منه الإيمان باليوم الآخر ، فإن الباعث هو الله ، فإذا ألحدوا فيه فكأنهم نسبوا البعث إلى غيره .

ولهم فى البعث أداء كثير كشراء منازل الجنة من الرهبان ، وقالت اليهود : يكونون فى النار أياما معدودة ، فإن البعث على الحقيقة أبعث المكلفين للخلود فى الجنة والنار ، وزعم قوم منهم : أن نعيم الجنة منقطع ، وقوم أن

نعيمها ليس من جنس نعيم الدنيا ، وزعم قوم منهم : إنما تبعث الأرواح دون الأجساد ، وإن أهل الجنة لا يأكلون ولا يشربون ولا ينكحون ، فليس إيمانهم باليوم الآخر حقا كإيمان الموحدين .

وكذلك اختلفت النصارى ، وأيضا هم كافرون برسالة بعض الرسل ، بل أكثر الرسل كنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، ولبعض الكتب كالقرآن وذلك معارض للإيمان بالله ومناف له ، فأهل الكتاب ، وكل من أنكر حرفا أو رسولا مشرك عندنا ، وقال جمهور المخالفين : ليسوا بمشركين فيما قال بعضهم ، وكذا قال عيسى بن عمير ، وأحمد بن الحسين : إن أهل الكتاب ليسوا بمشركين ، لكن منافقون مع استحلالهما منهم ما حل من المشركين ، وتحريم ما حرم منهم .

وذكر الثعالبى : أن فائدة الخلاف تبين فى فقه منافعهم وذبائحهم وغير ذلك ، قال مجاهد : وعند نزول الآية أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة الروم ، ومشى نحو تبوك ، ذكره الثعالبى ، وقال الكلبى : نزلت فى قريظة والنضير ، فصالحهم فكانت أول جزية أصابها المسلمون ، وأول ذل أصاب أهل الكتاب بأيدى المسلمين .

(ولَا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللهُ ورَسُولُه) محمد صلى الله عليه وسلم بالقرآن والسنة ، كالخمر والخنزير ، وقال أبو روق : المراد ما حرم الله فى كتابهم كالتوراة والإنجيل ، ورسول الله الذى زعموا أنهم يتبعونه كموسى وعيسى عليهما السلام ، فهم لم يتبعوا دينهم المنسوخ ، ولا ديننا الناسخ له ، لا فى الاعتقاد ولا فى العمل .

(ولا يَدِينُون دِينَ الحقِّ) دين الصواب الثابت ، وهو دين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وإضافته للحق إشارة إلى أنه ناسخ لا ينزل ما ينسخه ، إذ كان الحق بمعنى الصواب الثابت ، وقيل : الحق الله ، أى دين الله ، وهو هذا الدين ، وقيل : دين أهل الحق وهم المسلمون ، ودين مفعول مطلق أو مفعول به ، أى لا يعتقدون دين الحق .

(مِنَ الَّذِينَ أوتُوا الكِتَابَ) متعلق بمحذوف حال من الذين فى قوله : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله » ومن للبيان ، ولا يصح أن تكون للتبعيض بدليل السياق ، فإن فيه الجزية ، ولا شك أنه صلى الله عليه وسلم قبض الجزية عن أهل الكتاب كلهم ، إلا ما استتر من راهب ونحوه ، فهم كلهم مشركون ، لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق ، فالآية صادقة عليهم ، ولو أقروا بالله والتوراة والإنجيل فلا عذر لهم إلا من لم تبلغه رسالته صلى الله عليه وسلم وأوتوا بمعنى أعطوا بالبناء للمفعول ، والكتاب الجنس ، كالتوراة والزبور لبنى إسرائيل ، والإنجيل للنصارى ، وأهل الكتاب شامل للصابئين ، قيل : والسامريين ، قال على : هو شامل أيضا للمجوس ، فإنه بعث إليهم نبى اسمه زرادشت ، وكان لهم كتاب أصبحوا وقد رفع .

(حتَّى يُعْطُوا) مبنى للفاعل ، وإنما ضم أوله لأنه رباعى (الجِزْيةَ) يدعوهم الإمام إلى الإسلام ، فإن لم يجيبوا ألزمهم الجزية ، وإن امتنعوا منها قاتلهم يدعو من أهل القرى الأمراء ، ومن أهل البادية واحدا واحدا ، وقيل : المنظور إليه منهم والرؤساء وإن لم يعلم لغتهم ترجم لهم بأمينين ، وقيل : بواحد ، وإن قوتلوا بلا دعاء ردوا إلى ما منهم ، وإنما قبلت منهم الجزية حرمة لآبائهم الذين انقرضوا على الدين ، الذى هو من الله قبل نسخه ، ولأن فى أيديهم كتبا قديمة ، ولعلهم يتفكرون

فيها فيعرضوا صدق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، مع ما ينضم إلى ذلك من مشاهدتهم محاسنه وقوته ، وكثرة الداخلين فيه ٠

وسميت جزية لأنها تجزى عن قتالهم ، أو لأنها طائفة مما على أهل الذمة أن يجزوه ، أى يقضوه ، يقال جزى دينه بمعنى قضاه ، أو لأنها مكافأة للمسلمين على إبقائهم ، ويعطيها أيضا المجوس لما مر عن على ، ولأنه صلى الله عليه وسلم أخذها من مجوس اليمن ، وأن عمر أخذها من مجوس فارس ، وفى رواية أخذها صلى الله عليه وسلم من مجوس البحرين ، ولما رواه عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « سنوا بهم سنة أهل الكتاب » يعنى فى الجزية ، ولكن ظاهره يقضى أنهم ليسوا بأهل كتاب ، ولعله أراد سنوا بهم سنة أهل الكتاب الذين عهدتم أنهم أهل كتاب وشهروا ، ولكن اليهود والنصارى والصابئين تحل ذبائحهم ونكاح حرائرهم بالجزية دون المجوس ، هذا مذهبنا ، ومذهب الجمهور ، وعليه مالك وابن حبيب وغيره من أصحاب مالك إلا قليلا منهم ٠

وظاهر ما مر عن على أنه تحل ذبائح المجوس وحرائرهم بالجزية ، وبه فسر بعضهم حديث عبد الرحمن المذكور ، فإن قيل : المعنى سنوا بهم سنة أهل الكتاب فى كل شىء ، كالجزية والذبيحة ، ونكاح الحرة منهم ، وسواء فى ذلك مجوس العرب وغيرهم ، وقيل : لا يقيد من مجوس العرب إلا الإسلام أو القتل ، وقيل : الصابئون ليسوا من أهل الكتاب ، فلا يقبل منهم إلا الإسلام أو القتل ، ولا تحل ذبيحتهم ولا حرائرهم ، وقيل : تؤخذ منهم الجزية ، ولا تحل ذبيحتهم وحرتهم ، وهذا الخلاف أيضا فى السامرة ، ونسب لقول بأنهم والصابئون من أهل الكتاب ،

وأحكامهم واحدة إلى الجمهور ، والنظر إلى الدين ، فلو كان قوم من البربر من أهل الكتاب لأخذت منهم الجزية ، وحكم عليهم بحكم أهل الكتاب كله .

وقد روى أن عثمان أخذ الجزية من البربر ، فهى تؤخذ من أهل الكتاب عجما أو عربا ، وكذا قال أبو حنيفة ، لكنه قال : تؤخذ أيضا ممن كان من العجم مشركا غير كتابى ، ولا تؤخذ من عربى مشرك غير كتابى ، وقال أبو يوسف : تؤخذ من المشرك العجمى كتابا كان أو غيره ، ولا تؤخذ من العربى ولو كتابيا ، وقال مالك ، والأوزاعى : تؤخذ من جميع الكفار إلا المرتد ، وروى عن أبى حنيفة : أنها لا تؤخذ من العربى الكتابى ، فإما الإسلام وإما القتل ، ومذهبنا أنها لا تقبل إلا من أهل الكتاب وكذا قال الشافعى .

وأما غيرهم فالإسلام أو القتل أو السبى إلا قريشا ، فلا تسبى ذريتهم ونساءهم ، وقيل : العرب كلهم كذلك ، وذلك لحرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن سبيت صبيانهم ردوا إلى آبائهم أو أوليائهم ، وإن لم يكونوا فمؤنتهم من بيت المال ، واستظهر بعض المتأخرين أنهم أحرار ، وعن الزهرى : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صالح عبدة الأوثان على الجزية ، وقال لأهل مكة : « هل لكم فى كلمة إذا قلتموها دانت لكم بها العرب وأدت إليكم الجزية العجم » وعن الشافعى : لا تؤخذ من مشركى العرب غير الكتابيين ، ومن دخل فى دين أهل الكتاب بعد نسخه ، فلا تقبل عنه الجزية ، قال بعض : وكذلك إن دخل فيه بعد نسخه ، ولم يبدل فيه ، والذبيحة والنكاح تابعان للجزية ، وإن وقع الشك فى دخولهم قبله أو بعده قبلت منهم الجزية ، ولا يتزوج منهم ، ولا تؤكل ذبائحهم حوطة .

وعن على : تؤكل ذبيحة نصارى العـــرب ، فإنهم لن يبلغوا مـــن النصرانية إلا شرب الخمر ، واختار بعض أصحابنا أن من دخل مـــن العرب فى دين النصارى قبل نزول الآيـــة فهو منهم ، ومن دخل بعـــد نزولها قتل ، ولا جزية على امرأة ، أو عبد ، أو طفل ، أو شيخ كبير أو مجنون ، أو راهب ، أو مفلس ، وعن بعض قومنا : يعطيها أيضا جميع من ذكر وهو ضعيف ، كيف يطالب بها المجنون ، وقال بعض العلماء : يعطيها رهبان الكنائس الذين لم ينقطعوا ، ومن ضربت عليه ثم انقطع لم تسقط عنه ، وقيل يعطيها الراهب مطلقا .

ولا يأخذ الجزية إلا الإمام العادل بنفسه أو بأمره ، وإذا لم يكن الإمام أو كان ، ولم يقدر على منع الظلم عنهم لم تؤخذ منهم ، ومن أخذها بدون الإمام لم يعامل فيها ، وقيل : يأخذها منهم كل من منع الظلم عنهم ولو فى الكتمان ، وقيل : تؤخذ من الفقير الذى لا شىء له ، وقيل : إن كان له ما يكتسب منه ، وشدد بعض فقال : يطلى بلبن أو عسل أو نحو ذلك مما يتأذى منه بالذباب أو النمل أو نحوها ، ويحبس فى الشمس حتى يعطيها ، لأنه ترك التوحيد باختياره ، والجزية بحسب ما يرى الإمام من قوة المشرك وضعفه ، وكثرة المال وقلته ، وسدة بعض الإسلام وعدمها وغير ذلك ، حتى لو رأى الصلاح فى تسويتهم لفعل .

وقيل : دينار على كل واحد فى السنة ، وإن رضوا بالزيادة فعلى المتوسط ديناران ، وعلى الغنى أربعة ، وقيل : الجزية لكل سنة على الغنى أربعة دنانير ، وعلى المتوسط ديناران ، وعلى الفقير دينار ، وإن شاءوا أعطوا الدراهم بدل الدنانير ، فيحسب الدينار باثنى عشر درهما ، كدينار الديات والأرش ، وجماع الحيض ، وغير ذلك ، وأما دينار الزكاة فعشرة دراهم ، ودينار المعاملات يزيد وينقص ، وإن شاء الإمام أخذ فى كل شهر

دراهم ، فيكون على الغنى فى الشهر أربعة دراهم ، وعلى المتوسط درهمان ، وعلى الفقير درهم ، وقيل : على اليهودى عشرة دراهم فى كل سنة ، وعلى النصرانى اثنا عشر ، وقيل : خمسة عشر ولم يذكر صاحب هذا القول الصابئين والمجوس ، ولعله يقول : الأمر فيهم على ما يرى الإمام .

وعلى من تؤخذ عنه الجزية ضيافة المسلمين ثلاثة أيام ، وقيل : الضيافة على النصارى ، والمبيت على اليهود ، بعد أكل العشاء عند النصارى ، وعن عمر أنه ضرب على أهل الكتاب أيضا كسوة للمسلمين ، وعن عمر أنه ضرب الجزية دينارا على كل واحد فى السنة ، وبه قال الشافعى ، وبه أمر صلى الله عليه وسلم معاذا حين أرسله إلى اليمن ، وقال له : « أو خذ قيمة الدنانير معافر » ، وهى ثياب ، وقد عمل به عمر فى بعض القرى .

وروى عنه أنه كتب إلى عامله عثمان بن حنيف فى الكوفة : بأن على الغنى أربعة دنانير ، وعلى المتوسط دينارين والفقير دينارا ، وروى عنه وعن غيره غير ذلك ، فدل على أنها ليست محدودة ، وفعل النبى ليس حدا لها ، وأنها برأى الإمام ، وقال ابن القاسم من المالكية : أربعة دنانير على كل غنى أو فقير لا ينقص عنها ، وهو قول أصبغ منهم ، لكن قال : يحط للفقير بقدر حاله ، وقال ابن الماجشون منهم : لا جزية على الفقير ، ويؤخذ من نصارى العرب ضعف ما يلزم المسلم فى الزكاة على أموالهم ، فيعطى منهم من له مائتا درهم عشرة دراهم ، ومن له مائة درهم خمسة دراهم ، ولو كان لا زكاة على المسلم فيما دون المائتين ، وكذلك فى الذهب والغلة والماشية ، وكذا فعل خاد بن الوليد بنصارى تغلب فى الشام ، فأجازه عمر .

وتؤخذ على تمام السنة من حين قهرهم الإمام ، وضربها عليهم ، وبهذا قال الشافعى ، وقال أبو حنيفة : من حينه وهو ضعيف ، وكل ما صالحهم ، أعنى أهل الكتاب ، الإمام عليه قبل القتال أو بعد القتال ، إن لم يكن غالبا فجائز عليهم ولا يجوز (عَنْ يَدٍ) حال من واو يعطوا ، والمعنى عن مطاوعة أى منقادين ، أو عن يدهم بمعنى يسلمونها بأيديهم ، ولا يرسلون بها على يدى غيرهم ، كما قال ابن عباس ، ولذلك منع بعضهم من توكيل فى إعطائه ، والصحيح عندهم جوازه

وعلى ذلك الوجه يجوز كونه حالا من الجزية ، أى ثابتة عن يدهم ، أو يقدر الحال كونا خاصا ، أى منتقلة ، عن يدهم ، وتعليقه بيعطوا على أن عن بمعنى الباء ، أو عن غنى ، ولذا قال بعضهم : لا يعطيها الفقير ، ولو كان له ما يعطى والصحيح يعطيها إن كان له ما يعطى وسبق الكلام فى ذلك أو عن عجز وذل ، كما قاله بعض ، أو عن إنعام عليهم ، فإن قبلوها إبقاء لأرواحهم ، أو يعطونها نقدا ، وعلى هذا الوجه فهو حال من الجزية كأنه قيل : حتى يعطوا الجزية حاضرة ، ولا متأخرة عاجلة ، أو آجله ، وعلى كل فالمراد قاتلوهم إذ لم يؤمنوا حتى يذعنوا الإعطاء الجزية عن يد .

(وهُمْ صَاغِرونَ) أذلاء جاريا عليهم حكم الإمام ، هذا هو الظاهر فى تفسير ذلك ، وهو عام لأنواع الصغر اللازمة لقهر الإمام لهم ، وقيل : الصغر أن يأتى بها ماشيا غير راكب ، ويسلمها قائما ، أو القابض قاعدا ، ويحرك ويزعج بإقلاق ، ويؤخذ بمجامع ثيابه ، ويقال له : أدى الجزية ، وإن كان يؤديها ويضرب فى قفاه ، وفسره عكرمة بإعطائه قائما ، والقابض جالس ، وابن عباس : بأن يضرب باليد فى عنقه ، والكلبى : بأن يضرب باليد مبسوطة فى قفاه ، وقيل : هو أن يضرب ويؤخذ بلحيته ،

ويضرب فى لحمتيه تحت الأذنين ، ويقال له : أد حق الله يا عدوّ الله ، والضرب فى ذلك كله خفيف .

(وقَالتِ اليَهودُ) كان هذا القول فاشيا فى اليهود جميعا ثم انقطع ، فأخبر الله سبحانه عنهم ، وأظهره ولا عبرة بإنكار اليهود ذلك ، وقيل : لم ينكروا ذلك لاشتهاره ، ولولا أن اشتهاره فيهم لأنكروا لتالكهم على التكذيب ، وقيل : قاله بعض متقدميهم ، وقيل : قاله ناس من يهود المدينة ، عن ابن عباس ، قالها أربعة من أحبارهم : سلام بن مشكم ، ونعمان بن أوفى ، وشاس بن قيس ، ومالك بن الصيف ، أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا ، وأنت لا تزعم أن عزير بن الله ؟ فنزلت الآية .

وقيل : إنه لم يقله إلا فنحاص بن العيزار ، ونسب القول إليهم ، لأن من قاله بعضهم ، ولأنه فيهم ، ولأنه عظيم فيهم ، وبهذا على عياض ، والعرب تقول : فلان يجالس الملوك ، ولو لم يجالس إلا ملكا واحدا ، ويركب الخيل ولو لم يركب إلا فرسا واحدا .

(عُزَير ابنُ اللهِ) مبتدأ وخبر ، ولهذا تكتب ألف ابن لأنها تسقط إذا كان تابعا لعلم مضافا لعلم ، لا إذا كان خبرا أو غيره ، ولم ينون عزيز لأنه علم عجمى كعازر وعيزار ، فمنع الصرف ، لا لوجود ابن بعده ، لأنه يمنع تنوين العلم لوجود ابن بعده ، إذا كان ابن تابعا له ، أو لم ينون لالتقاء الساكتين بأن شبه التنوين بحرف اللين ، فحذف للساكن بعده ، وإلا فحق التنوين ثبوته مكسورا مثلا للساكن بعده .

ومثله قراءة بعض : أحدُ الله بحذف التنوين ، وهذا الوجه ضعيف

لقلة ذلك ، ومثله فى الشعر ولا ذاكر الله قليلا ، بنصب اسم الجلالة ، وعدم تنوين ذاكر ، ومنه قراءة بعض : « ولا الليل سابق النهار » بنصب النهار ، وعدم تنوين سابق ، وزعم بعض أنه لم ينون ، لأن ابن تابع له نعتا أو بيانا أو بدلا ، وهو خبر لمحذوف ، أى الإله فينا عزير ابن الله ، أو مبتدأ محذوف الخبر ، أى عزير ابن الله إله ، وثبتت ألف ابن مع أنه تابع فى خط المصحف شذوذا .

ويرده أن المشنع عليهم هو قولهم : إن عزير هو ابن الله وهذا يقيده كون عزير مبتدأ ، وابن خبره ، لا كون عزير مبتدأ محذوف الخبر ، أو خبر محذوف المبتدأ ، فإن هذا يفيد أن المشنع عليهم هو قولهم بأنه إله ، فإنه ولو كان مشنعا لكن غير مقصود فى الآية ، وقد يقال :المراد فيها التشنيعان معا ، كأنه قيل : انظر إلى هؤلاء القائلين هذا الكلام الذى تضمن أمرين قبيحين : نسبة الولد إلى الله ، ونسبة الألوهية لغيره ، ولكن ذلك ضعيف ، لأنه بظاهره يوهم تسليم البنوة لله ، وإنكار مجرد كون عزير إلها ، وأيضا قراءة عاصم ، والكسائى ويعقوب : تنوين عزير على أنه عربى تدل على ما قلنا من ان عزيرا مبتدأ وابن خبره ، ويحرك تنوينه بالكسر ، ولا يحرك بالضم فى مذهب الكسائى تبعا للنون ، لأن ضمة النون للإعراب غير لازمة .

قال فى عرائس القرآن : روى عطية العوفى ، عن ابن عباس : كان عزير عليه السلام من أهل الكتاب ، وكانت التوراة عندهم يعملون بها ، ثم أضاعوها وعملوا بغير الحق ، وكان التابوت فيهم ، فرفعه الله وأنساهم التوراة ، لذلك قيل : أرسل عليهم مرضا استطلقت به بطونهم ، وتيبست أكبادهم فنسوها ، ويرده أنهم لم يحفظوها فضلا عن أن ينسوها ، ولعلهم حفظوا قليلا منها ، فبينما هو يصلى مبتهلا ، إذ نزل من السماء نور

فدخل جوفه ، فعاد إليه الذى ذهب منه ، فنادى فى قومه : يا قوم أتانى الله التوراة ، وردها على فعلقوا به يعلمهم ، ومكثوا ما شاء الله ، ثم نزل التابوت فعرضوا ما علمهم على ما فيه فوجدوه مثله ، فقالوا : والله ما أوتى عزير هذا إلا لأنه ابن الله •

وقال السدى فى رواية عمار ، وابن أبى عمار : ظهرت العمالقة على اليهود وقتلوهم ، وأخذوا التوراة ، وهرب علماؤهم الذين بقوا ، ودفنوا كتب التوراة فى الجبال وغيرها ، ولحق عزير بالجبال والوحوش ، يتعبد فى رءوس الجبال ، ولا يخالط الناس ، ولا ينزل إلا يوم عيد ، وجعل يقول : يا رب تركت بنى إسرائيل بغير عالم ، وجعل يبكى حتى سقطت أشفار عينيه ، وبقى زمانا طويلا ، فنزل مرة إلى العبد ، فمر بامرأة على قبر تبكى وتقول : يا مطعمى ، ويا كاسنى ، فقال لها : اتقى الله واصبرى ، أما علمت أن الموت سبيل الناس ، ثم قال لها : من يطعمك ويكسوك قبل هذا الرجل ؟ يعنى زوجها الذى هى تندبه ، قالت : الله ، قال : فإن الله تعالى حى لا يموت ، قالت : يا عزير لست بامرأة ولكنى الدنيا ، ثم قالت : يا عزير فمن كان يعلم الناس الأوائل قبل العلماء ؟ قال : الله ، قالت : فلم تبكى عليهم ، وقد علمت أن الله حى لا يموت ، وأن الموت حق ؟ فعلم انه مخصوم ، وقالت له : سينبع لك فى مصلاك عين ، وتنبت لك شجرة ، فكل من ثمرها وسيأتيك شيخ فما أعطاك فخذه •

ولما أصبح نبع فى مصلاه عين ، ونبتت شجرة ففعل ما أمرته به ، فجاء شيخ فقال له : افتح فاك ففتحه ، فالقى فيه شيئا كهيئة الجمرة العظيمة مجتمعا ثلاث مرات ، وقال له : ادخل هذه العين ، فدخلها ، فجعل لا يرفع قدما إلا زيد فى علمه ، ورجع إلى قومه وهو أعلم الناس بالتوراة ، فقال : يا بنى إسرائيل قد جئتكم بالتوراة ، فقالوا : يا عزير ما كنت كذابا ،

فربط على كل أصبع من أصابعه قلما ، وكتب بأصابعه كلها ، حتى كتب التوراة كلها عن ظهر قلبه ، ولما رجع العلماء استخرجوا كتبهم التى دفنوا ، فعارضوها بتوراة عزير ، فوجدوها مثلها ، فقالوا : ما أعطاه الله هذا إلا أنه ابنه .

وقال الكلبى : ان بخت نصر ظهر على بنى إسرائيل ، وهدم بيت المقدس ، وقتل المقر بالتوراة وقارئها ، ولم يقتل عزيرا لأنه غلام صغير ولم يدر أنه قرأها ، ولما تمت مائة سنة ، ورجعت بنو إسرائيل إلى بيت المقدس ، وليس معهم من يقرأ التوراة ، بعثه الله عز وجل ليجدد لهم التوراة ، ويكون لهم آية ، فأتاهم بعد ما أماته الله مائة عام ، وقد أتاه الله الملك ، وأعطاه إناء فشربه ، فكانت التوراة فى قلبه ، فقال لهم : أنا عزير فكذبوه ، وقالوا : إن كنت عزيرا كما تزعم فأمل علينا التوراة فكتبها ، ثم إن رجلا منهم قال : حدثنى أبى ، عن جدى : أن التوراة فى خابئة دفنت فى كوم كذا فانطلقوا معه حتى احتفرها ، وأخرج التوراة فعارضوها بما كتب عزير فلم يجدوه غادر منها آية ولا حرفا فعجبوا وقالوا : إن الله لم يقذف التوراة فى قلبه بعد ذهابها منا إلا لأنه ابنه .

وروى أنهم قتلوا الأنبياء بعد موسى عليه السلام ، فرفع الله التوراة ومحاها من صدورهم ، فخرج عزير وهو غلام يسبح فى الأرض ، فأتاه جبريل فقال له : إلى أين تذهب ؟ فقال : أطلب العلم ، فعلمه التوراة وأملاها عليهم عن ظهر لسانه ، لا يخرم حرفا ، فقالوا : ما جمع الله التوراة فى صدره وهو غلام إلا أنه ابنه .

(وقالَتِ النَّصَـارَى المسِيحُ ابنُ اللهِ) مبتـدأ وخبر ، وقيل المسيح مبتدأ محذوف الخبر وبالعكس ، وابن تابع ، وفى ذلك ما مر ، وقائل ذلك بعض النصارى ، وقال أبو المعالى : أطبقت النصارى على أن المسيح إله وابن الإله ، وإنما قالوا ذلك لاستحالة أن يكون الولد بلا أب عندهم ، أو لأنه يُبرىء الأكمه والأبرص ، ويحيى الموتى •

وقيل : كانت النصارى على دين المسيح عليه السلام ثمانين سنة ، وكان بين النصارى واليهود حرب ، وقتل بولس وهو من شجعان اليهود جماعة من أصحاب عيسى ، ثم قال لليهود : إن كان الحق مع عيسى فقد كفرنا ، فسأحتال حتى يدخل النصارى معنا النار ، فعرقب فرسه الذى يجاهد عليه ، وأظهر التوبة ، ووضع التراب على رأسه ، ثم أتى إلى النصارى فقالوا : من أنت ؟ قال : أنا عدوكم بولس نوديت من السماء أنه لا توبة لك حتى تتنصر ، فأدخلوه البيعة ونصروه ، وقعد فى بيت فيها سنة حتى تعلم الإنجيل ، ثم خرج وقال : قد نوديت أن الله قد قبل توبتى فصدقوه ، وعلا شأنه فيهم ، وأحبوه ، فعلَّم رجلا اسمه نسطور أن عيسى ومريم والله آلهة ثلاثة ، وعلم رجلا اسمه يعقوب أن عيسى ليس إنسانا ابن الله ، وعلم ثالثا اسمه ملكان أن عيسى هو الله ، لم يزل ولا يزال ، ولما تمكن ذلك فيهم دعى كلا منهم فى الخلوة ، وقال له : أنت خالصتى ، وادع الناس لما علمتك ، وأمره أن يذهب إلى ناحية مـن البلاد ، وقال لهم : إنى رأيت عيسى فى المنام ، وقد رضى عنى ، وسأذبح نفسى تقربا إليه ، ثم ذبح نفسه فى مذبح البلدة ، فذهب واحد إلى الروم ، وواحد إلى بيت المقدس ، وواحد إلى ناحية أخرى فدعا كـل إلى مقالته ، فاتبعهم طوائف فتفرقوا واختلفوا ، ووقع القتال فكان ذلك سبب قولهم : المسيح ابن الله •

ويقال : إن بعضهم يعتقد النبوة فى ذلك بنوة حنو ورحمة ، وكذلك قيل فى قول اليهود : عزير ابن الله ، كما قالوا : نحن أبناء الله ، وعلى كل حال فقد أشركوا بذلك ، لأن هذه الكلمة ولو لم تعتقد فى القلب على حقيقتها ، لكنها توهم الولادة ، فكانت كلمة شرك ، وقد غلطها الفخر إذ قال : الأقرب أن يقال لعله ، ورد لفظ الابن فى الإنجيل على التشريف ، ففسروه بالنبوة الحقيقية ا هـ .

ونقول : تعالى الله أن ينزل ذلك اللفظ لا على التشريف ولا على الحقيقية ، والذى حفظته ما ذكره حماد قال : أنفقت على الحديث أربعة آلاف ، فليتنى أنفقتها على الأدب ، فإن النصارى صحفوا حرفا فكفروا ، أوحى الله إلى عيسى عليه السلام : أنا ولَّدتك بتشديد اللام ، وأنت نبيى بتقديم النون ، فخففوا اللام وقدموا الباء وضموها .

(ذَلِكَ قَوْلُهم بأفْوَاهِهِم) ذكر الأفواه مع أن القول إنما يكون بالفم لا بغيره تأكيدا لنسبة القول إليهم ، ونفيا للتجوز فيها ، أو إشعارا بأنه قول من مجرد الفم لم يعتقدوه فى القلوب ، ولم يكن معناه واقعا ، فهو كاللفظ المهمل ، أو إشعارا بأنه لا برهان عليه ، وأنه دعوى محضة ، ولا شبهة فيها ، وهم معترفون بأنه لا صاحبة له فلا شبهة فى انتفاء الولد .

(يُضَاهِئُونَ) أى يضاهى قولهم بحذف المضاف ، والمضاهاة المشابهة ، وفى المشابهة موافقة ومواطأة ، ولذلك فسرها الحسن بالموافقة ، ومجاهد بالمواطأة ، وقرأ عاصم ، وطلحة بن مصرف : يضاهئون بالهمز وهو لغة ثقيف ، قال أبو على الفارسى : من قال إن هذا من قولهم امرأة ضهياء بالمد ، وهى التى لا تحيض ، وقيل التى لا ثدى لها ، سميت بذلك لشبهها بالرجل ، فقوله خطأ لأن الهمزة فى ضاهاء أصل ، وفى ضهياء زائد

كحمراء ، ولذلك الألف المتصل بها قبلها ، وأما الضاد والهاء والياء فأصول ، وقال القاضى منه : امرأة ضهياء بهمزة متصلة بالياء لم تفصل بينهما ألف بوزن فعيل بإسكان العين وفتح الباء ، بعده على أن البـاء زائدة والهمزة أصل .

(قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ) من قبلهم ، وهم الذين قالوا قبلهم : عزير ابن الله ، والذى قالوا قبلهم : المسيح ابن الله ، أو العرب الذين قالوا : الملائكة بنات الله ، وذلك على أن القائلين فى زمان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، أو على أنهم قبله ، واعتبر من قال ذلك قبلهم ، أو أن العرب قالوا : الملائكة بنات الله قبل قول بنى إسرائيل الذين قبل زمانه ذلك ، والواو فى يضاهئون لليهود والنصارى ، وإن رجعته إلى النصارى فالذين كفروا من قبل اليهود فى قولهم : عزير ابن الله ، أو العرب القائلون ما مر ، أو قطعة من النصارى سابقة .

(قَاتَلَهُمُ اللَّهُ) جاء على طريق الدعاء بهلاكهم ، فإن من قاتله الله هلك وكان بعيدا عن الرحمة ، ولذا فسره ابن عباس باللعن ، وقيل : ذلك تعجيب للناس من بشاعة قولهم ، فإن العرب تقول لمن فعل عجيبا : قاتله الله ، ولا تريد إهلاكا بل تعجيبا وليس ذلك من المفاعلة التى على بابها ، لما علمت من استعمال ذلك على طريق الدعاء أو فى التعجيب .

(أَنَّى) كيف أو من أين (يُؤْفَكُونَ) يصرفون عن الحق بعد إيضاحه ، وقال أبو عبيدة : يحرمون الخير ، والأصل أنى توجهوا ، وأنى ذهبوا ، ويدل ذلك بفعل سوء كأنه قيل : أنى تقلبون على وجوههم .

(اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ) جمع حبر بفتح الحاء ، وهو العالم ،

وأما الحبر بكسرها فهو المداد كما فى القاموس ، وهو قول ابن السكيت ، وقال الفراء : سمعت فتح الحاء وكسرها فى العالم ، قال بعضهم : والكسر أفصح ، وقال يونس : لم أحفظه إلا بالكسر ، ومن حفظ حجة على من لم يحفظ .

(ورُهْبانَهم) جمع راهب وهو الخائف ، وكل من الحبر والراهب يكون فى اليهود والنصارى ، ولو اشتهر أن الأحبار علماء اليهود ، والرهبان أصحاب الصوامع من النصارى (أَرْبابا مِنْ دُون اللهِ) بأن أطاعوهم فى تحريم ما أحل الله ، وتحليل ما حرم ، فإن التحليل والتحريم إنما يتلقيان من الله ، وإنما بدل الدين ملوك السوء وأحباره ورهبانه ، وبأن سجدوا ، لهم ، فمن أطاعهم فيما ذكر قد اتخذهم أربابا ، من سجد لهم قد اتخذهم أبابا .

قال الفضيل : ما أبالى أطعت مخلوقا فى معصية الخالق ، أو صليت لغير القبلة ، وفسر ابن عباس ، وحذيفة اتخاذهم أربابا بطاعتهم فيما ذكر ، وذكر عدى بن حاتم أنى أتيت النبى صلى الله عليه وسلم وفى عنقى صليب من ذهب فقال : « يا عدى اطرح هذا الصليب من عنقك » فى رواية الطبرى ، وروى غيره : « اطرح عنك هذا الوثن » وفى رواية : « ألق هذا من عنقك » وسمعته يقرأ « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » وفى رواية غير الطبرى سمعته يقرأ سورة براءة ، حتى أتى على هذه الآية ، قلت : إنا لا نتخذهم أربابا من دون الله ، وفى رواية الطبرى قلت : يا رسول الله كيف ذلك ونحن لم نعبدهم ؟ قال : « أليسوا يحلون لكم ما حرم عليكم فتستحلونه ، ويحرمون عليكم ما أحل لكم فتحرمونه ؟ » قلت : بلى ، قال : « فتلك عبادتهم » ولذا فسر الفضيل اتخاذهم أربابا بالعبادة .

وليس هذا الحديث حصرا فى تفسير الآية ، بل تمثيل لها ، فكأنه قال : إن لم تكن يا عدى تعبدهم بالسجود ونحوه فقد عبدتهم باتباعهم فى التحليل والتحريم ، وفى الضياء ، والتاج : من أجاب قيل ناطقا فقد عبده ، فإن كان عن الله فقد عبد الله ، وإن كان عن إبليس فقد عبده ، وعبادته طاعته فيما دعاه إليه من المعاصى . انتهى .

(والمسيحَ) عطف على أحبار أو رهبان ، أو يقدر واتخذوا المسيح رباً (ابنَ مريَمَ) بأن جعلوه ابنا لله ، فإذا جعلوه ابنا له فقد أهلوه للعبادة ، بل قال فريق منهم هو أنه كما مر (وما أمِروا) فى الكتب وسنة الأنبياء (ليعبُدوا إلهاً واحداً) هو الله عز وجل ، وأما اتباع الناطق فيما كان عن الله فهو عبادة لله كما مر ، ويجوز عود الضمير للأحبار والرهبان والمسيح ، أى هم مأمورون بعبادة الله وحده ، فكيف يكون أربابا ، فهذا كالدليل على بطلان اتخاذهم أربابا ، واللام للتعليل ، أى وما أمروا بما أمروا إلا ليعبدوا ، أو صلة للتأكيد ، وحذفت إن والباء أى وما أمروا إلا ليعبدوا ، أى إلا بأن يعبدوا .

(لا إلهَ إلا هوَ) نعت ثان لإلها ، أو حال منه ، أو مستأنف مقرر للتوحيد (سبحانهُ) مفعول مطلق عامله محذوف من لفظه ، أى سبحوه ، وهو اسم للمصدر الذى هو التسبيح ، أى نزهوه التنزيه اللائق به ، وغلط من قال : ليس من لفظ سبحان فعل فقدر العامل من لفظ التنزيه ، فإن فعله سبح والنون زائد مع الألف .

(عما يشركونَ) متعلق بسبحان أو بعامله المحذوف ، وما مصدرية أى عن إشراكهم أو اسم فيقدر مضاف ، أى عن شركة ما يشركونه به ،

وذلك دليل على أن أهل الكتاب مشركون ، وزعم من يقول غير ذلك أن إطلاق الإشراك عليهم كإطلاقه على الرياء .

(يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ) نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، والقرآن ، والشريعة ، والمعجزات ، والدلائل على تنزهه عن الشركة وعن الولادة ، وقيل : النبوة ، وقيل : القرآن الدلائل على التنزه عما ذكر ، وقيل : المعجزات والقرآن والشريعة والولى التعميم .

(بأَفْوَاهِهِمْ) بأن يكذبوا ذلك ، أو بأقوال لا صحة لها ، أو بتحريف الكتاب أو بالإشراك أو شبه القرآن ، وما ذكر معه بنور سد الآفاق وانتشر فى الدنيا وشبه تكذيبهم ، وما ذكر معهم بنفخ الفم فى ذلك النور ليزول .

(ويَأْبَى اللهُ إلا أن يتمَّ نُورَهُ) مصدر يتم مفعول يأبى أو مقدر بعن ، وإنما كان الاستثناء المفرغ فى الإثبات ، لأن يأبى فى معنى النفى ، أى منع الله إلا إتمام نوره ، أو يمتنع إلا عن إتمام نوره ، وكأنه قيل : لا يريد الله إلا أن يتم نوره ، كما يدل عليه أنه قوبل به قوله : « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم » وإتمام النور إعلاء دين الله (وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ) إتمامه .

فائدة : ذكر بعض شراح الهمزية أنه إنما كانت معجزات أنبياء بنى إسرائيل محسوسات تستعظمها العقول ، كعصى موسى ويده ، لأن بنى إسرائيل كانوا بلداء لا يفطنون ، بخلاف هذه الأمة .

(وهُوَ الَّذى أَرْسَلَ رَسُولَه) محمداً صلى الله عليه وسلم

(بالهُدَى) القرآن وجميع الشر ، وكل ما يرشد إلى الحق ، وهو حال من رسول ، أى ثابتا مع الهدى (ودِينِ الحقِّ) وهو التوحيد المشتمل على الإيمان بمحمد ، وقيل : الهدى القرآن ، ودين الحق دين الإسلام .

(ليُظْهِرهُ عَلَى الدِّينِ كلّه) أى ليظهر دين الحق على الأديان كلها ، قال الاستغراقى : وتلك الأديان كلها يعمها الشرك ، فلك أن تجعل أل للعهد ، فيكون المراد دين الشرك ، فتأكيده على هذا بكل إنما هو باعتبار أصنافه ، ومعنى إظهار دين الحق على الأديان نسخها به ، وقيل : إعلاؤه عليها ، وإعزازه ، وإن وجد معه غيره كان غيره دونه ، بل لو اشتهر غيره ، وكثر وعظم ، فإنه فى القلوب أفضل .

وقال أبو هريرة ، وأبو جعفر محمد بن على ، وجابر بن عبد الله ، والضحاك : إظهاره رد الناس كلهم إليه عند نزول عيسى عليه السلام ، كما ورد فى أحاديث : « أنه لا يبقى على الأرض بيت شَعَرْ أو مدر إلا دخله الإسلام وأنه يهلك الله الملل كلها على يد عيسى ، ويقع الأمان فى الأرض حتى يرتعى الأسد مع الإبل ، والنمور مع البقر ، والذئاب مع الغنم ، ويلعب الغلمان بالحيات ، لا يضر بعضهم بعضا ، ويقتل الخنزير ، ويدق الصليب ، ويكون الدين واحدا ، ثم بعد ذلك يبعث الله ريحا طيبة تتوفى كل من فى قلبه حبة من خردل من إيمان ، فتعبد اللات والعزى » .

وقال الحسن ، والشافعى : إظهاره عليها كونه الحاكم القاهر ، وذلك أنه قتل المسلمون المشركين وسبوهم ، وضربوا الجزية على أهل الكتاب والمجوس ، وأذعنوا لها . عن المقداد بن الأسود : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يبقى بيت مَدَر ولا وبر إلا أدخله الله كلمة الإسلام يعز عزيزا ، ويذل ذليلا ، إما أن يعزهم فيجعلهم من أهلها ،

وإما أن يذلهم فيدينون لها » ومثله لأبى هريرة ، وقيل : الهاء للرسول صلى الله عليه وسلم ، أى ليظهر رسوله على أهل الدين كله بأن ينصره ويخذلهم ، وقال ابن عباس كذلك ، لكن فسر الإظهار بالاطلاع والدين بدين الحق ، أى ليطلعه على الشريعة كلها حتى لا يخفى عليه شىء منها ، وهو صحيح مناسب ، وغيره أصح وأنسب بالسياق اللاحق والسابق .

(ولَوْ كَرِه المشْرِكونَ) قيل : ذكر أولا الكافرين مرادا بهم الكفرة من لدن آدم إلى يوم القيامة ، والمشركين ثانيا مراد بهم من فى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقيل : إن المراد بالكافرين والمشركين من فى عصره ، لكن ذكرهم ثانيا بلفظ الإشراك ، ليدل على أنهم ضموا الكفر بالرسول إلى الشرك بالله ، وعلى هذا قوله : « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » كالبيان لقوله : « ويأبى الله إلا أن يتم نوره » وذلك كرر ذكر هؤلاء الملحدين ، لكن بلفظ الإشراك .

ومن كتب : « يريدون » إلى « المشركون » فى إناء زجاج جديد بزعفران وماء ورد ، وبخره بعود وعنبر ، ومحاه بدهن زئبق خالص ، ورفعه فى قارورة ، فإذا احتاج إليه وأراد الدخول على أحد دهن منه ما بين حاجبيه كان له قبول ومحبة وعز وجاه ، وتكتب أيضا فى رق غزال بزعفران وماء ورد ويبخر ببخور طيب فمن شده على عضده الأيمن من رجل أو امرأة يحصل له ذلك .

(يا أيُّها الَّذينَ آمنُوا إنَّ كَثيراً مِنَ الأحْبار والرُّهْبان لَيأكُلون أمْوالَ النَّاسِ بالبَاطِلِ) كالرشوة فى الحكم ، والتخفيف فى الشريعة ، والمسامحة فيها لجهلائهم ، وأكابرهم وكتابة خلاف ما قال

الله ، مع قولهم : إنه من الله ، وتحريف التوراة ، وصفات النبى فيها ، والتفسير بمعان باطلة ، يأخذون المال فى ذلك ، ويأخذونه على رسم البيع والكنائس ، وعلى رسم حماية الدين ، والقيام به ، ويستأثرون به ، فذلك أكل المالى بالباطل .

وإنما عبَّر عن أخذ المال بأكله ، لأن الأكل هو الغرض الأعظم فى الأخذ ، أو لأن الأخذ سبب للأكل ، والأكل مسبب عنه ، أو لشبه الأخذ بالأكل ، لأن كلاً منهما تغييب للمال ، أو لأن منها ما يؤكل بنفسه ، ومنها ما يباع فيؤكل ما اشترى به ، وقليل منهم لا يفعلون ذلك ، وهم قليل كانوا قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم .

(ويصدُّون) يعرضون فى أكلهم (عَنْ سَبِيلِ اللهِ) دينه ، أو يعرضون عن دين محمد صلى الله عليه وسلم ، أو يمنعون الناس عنه بذلك التحريف وغيره ، جلبا للمال ، وحرصا على الرياسة ، وهما أصح وأرجح ، والأولى تعميم ذلك فى زمان النبى صلى الله عليه وسلم وقبله ، فالأكل بالباطل قبله وفى زمانه ، وكذا الصد عن سبيل الله ممن قبله ، يصد عن أحكام التوراة والإنجيل بفعله ، وقوله : بما يخالفهما وفى زمانه بذلك ، وتغيير صفاته .

(والذينَ) مفعول لمحذوف على الاشتغال ، أى وبشر الذين ، وقرن الفعل المشغول بالفاء لشبه المشغول عنه باسم الشرط ، ويجوز كونه مبتدأ خبره طلب ، وأجاز بعضهم عطفه على واو يأكلون لوجود الفصل ، وتوهم بعض أن هذا لا يجوز إلا بتأكيد الضمير ، فمنعه هنا فإنه يجوز بالفصل مطلقا تأكيدا أو غيره ، ولكن هذا الوجه هنا ضعيف من حيث المعنى يجوز عطفه على كثيرا .

(يَكْنِزُونَ) والكنز الجمع والادخار والستر ، ويطلق على الحفظ ولو بلا ستر ، والأكثر إطلاقه على الستر ، وليس من شرطه الدفن ، ولو كثر فى المال الدفن (الذَّهبَ) يذكر ويؤنث ، وزعم بعض أن الأشهر تأنيثه (والفِضَّة) أى يجمعونهما ويدخرونهما (ولا يُنفِقُونَهَا) أى الذهب والفضة ، وأنث الضمير وأفرده ، على أن الاثنين جماعة حقيقة أو مجازا ، ولأن كلا من الذهب والفضة أعداد ، وحمل ودنانير ودراهم ، أو نظر إلى أنهما كنوز أو أموال ، أو الضمير للفضة ، واقتصر عليها لأنها أغلب أموال الناس ، ولدلالة حكمها على أن الذهب أولى بهذا الحكم ، أو يقدر ولا ينفقونها والذهب .

(فى سَبيلِ اللهِ) طاعته كالجهاد وتصريفها على الفقراء (فَبَشِّرهُم بعَذابٍ أليمٍ) التبشير تهكم ، كأنه قيل : أقم لهم عذابا أليما مكان الخير الذى يبشر به ، وزعم بعض أن البشارة تطلق على الشر بالقرينة بلا تهكم وبلا تجوز ، والآية فى جمع المال ، وخص الذهب والفضة بالذكر ، لأنهما أكثر يكنز ، ولأن كنزهما دليل على وجود غيرهما ، وكان كنزه محرما ، بل يجب تفريق ما فضل عن الحاجة فى فقراء المسلمين وأمراء الإسلام .

توفى رجل من أهل الصفَّة فوجد فى مئزره دينار فقال صلى الله عليه وسلم : « كية » وفى مئزر ميت آخر اثنان فقال : « كيتان » وقال : « كل بيضاء أو صفراء أوكأ عليها صاحبها فهى كنز حتى يفرقها فى سبيل الله » وذلك فى أول الإسلام ، ثم نسخ بالزكاة حين قال : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم » أو حين قال : « وأوتوا الزكاة » وذلك رواية عن أبى ذرّ ، وعمر بن عبد العزيز ، ويحتمل أن الرجلين يعيشان بالصدقة ، وعندهما الذهب ، فقال ذلك ، فالآية على رواية عمر

ابن عبد العزيز فى أهل عصر نبينا صلى الله عليه وسلم ، أو من آمن به فى عصره .

وقيل : الآية فى كل من لم يؤد الزكاة من ماله ، وما يلزمه من أهل الحقوق : من موحد ومشرك وكتابى قبل النبى ، أو عنده أو بعده ، وعن أبى ذر : نزلت فينا وفى أهل الكتاب ، وقال معاوية : وعثمان فيهم ، وخالف أبو ذر معاوية فى الشام بذلك فشكاه إلى عثمان فى المدينة ، فكتب إليه أن أقدم فقدم ، وما أديت زكاته فليس كنز أو لو بلغ الأرض السابعة ، انظر إلى كثرة مال عبد الرحمن بن عوف وغيره من الصحابة .

وأما قوله : « تبًا للذهب تباً للفضة » ثلاثا فقيل نزول آية الزكاة أو لما يجران إليه من المعصية ، وأما قوله : على ما زاد على أربعة آلاف درهم كنز ولو أديت زكاته فحمل على الأفضل ، وترغيب فى التطوع ، وفى الآية تقبيح حال مانع الزكاة ، وقرنه باليهود والنصارى الشديدى الحرص على المال ، البخيلين ، المرتشين ، وقد قاله ابن عباس ، والسدى ، وأبو ذر .

وفى رواية عنه : نزلت فى مانعى الزكاة من الموحدين ، وقرنوا بهؤلاء الأقبحين اليهود والنصارى فى الشح على المال ، والمشهور عن أبى ذر : أنها فيمن منع الزكاة من موحد وكتابى .

وقرأ طلحة بن مصرف : الذين يكنزون بغير واو على الإبدال من كثيرا ، ومن واو يأكلون أو يصدون ، أو خبر لمحذوف ، أو مفعول لمحذوف على الذم ، وهى تجرى على قول معاوية وعثمان أنها فى أهل الكتاب ، وقد روى أنه كان عثمان يريد نقض هذه الواو حين كتابة المصاحف ،

وأبى أبىّ بن كعب وقال : ليلحقنها أى لأضعن سيفى على عاتقى فألحقها ، وفى الحديث : « إن خير ما يكنز المرء المرأة الصالحة ، إذا نظر إليها سرته ، وإذا أمرها أطاعته ، وإذا غاب عنها حفظته » وتعينـه على إيمـانه ، ولسان ذاكر ، وقلب شاكر ، وإن أصحاب المال هم الأخسرون إلا من فرقة .

(يَوْمَ) متعلق بعذاب ، قيل : أو بأليم ، أو متعلق بمحذوف حال من عذاب أو نعت ثان له (يُحْمَى) أى يوقد (عَلَيها) لا ضمير فى يحمى ، لأن النائب عن الفاعل هو الجار والمجرور ، والكلام فى الضمير فى عليها مثله فى الضمير فى ينفقونها ، وأصل الكلام يوم تحمى بالنار ، أى تحمى تلك الكنوز النار ، ثم جعل الإحماء للنار مبالغة ، فأسند إليه كأنه قيل : يوم تحمى النار ، ثم حذف لفظ النار ، وأنيب الجار والمجرور تنبيها على المقصود ، فذكر الفعل ولم يؤنث ، لأنه لا يؤنث لتأنيث المجرور بحرف غير زائد ، ولا لتأنيث المحذوف النائب عنه غيره ، تقول : مر بهند لا مرت بهند ، ورفع إلى الأمير بنيابة المجرور أو الجار والمجرور ، لا رفعت إلى الأمير ، ولو كان المرفوع الفضة ، وعن ابن عباس ، والحسن : تحمى بالفوقية نظرا إلى أن الأصل تحمى النار .

(فى نَارِ جَهَنَّمَ فتُكْوَى) وقرأ أبو حيوة بالتحتية (بِهَا جِبَاهُهُم) وقرأ قوم جباؤهم بإدغام الهاء الأولى وإشمامها الضم (وجُنُوبُهُم وظُهورهُم) خصت هذه الجهات والله أعلم ، لأنهم طلبوا بجمع المـال وحبسه ، الوجاهة عند الناس ، وأن يكون ماء وجوههم مصونا ويتلقون بالجميل ، ويستحيى منهم ، فلذا تكوى جباههم ، وطلبوا بجمعه وحبسه أيضا أكل الطيبات ، ولإكثار منها حتى تنفخ جنوبهم ، فلذا تكوى جنوبهم ، وطلبوا بذلك أيضا اللباس الناعم يطرحونه على ظهورهم ، فلذا تكوى

ظهورهم ، أو لأنهم إذا سئلوا يتبين أثر المنع ، وكراهة الإعطاء فى جباههم ووجوههم بالتعبس ، واجتماع جلدة الجبهة ، واذا كرروا السؤال مالوا بجانبهم إلى جهة غير جهة السائل ، وإن ألحوا ولوهم ظهورهم •

وقيل : لأنهم يتعبسون عن الفقراء إذا رأوهم ، وإذا جمعهم مجلس مالوا عنهم وولوهم ظهورهم ، وزعم بعضهم أنها خصت لأنها أشرف الأعضاء الظاهرة لاشتمالها على الدماغ والقلب والكبد ، وزعم بعضهم أنها خصت لأنها أصول الجهات الأربع ، وهى مقادم البدن ومآخره وجنباه ، وقيل : ليس المراد خصوص تلك المواضع ، بل المراد التعميم ، وتلك المواضع ، تمثيل كما تقول : ضربت زيدا الظهر والبطن ، وتريد تعميمه بالضرب •

روى أن الكنوز يوقد عليها فى جهنم حتى تبيض من شدة الحر ، ويبسط جلد صاحبها فيكوى بها ، بكل دينار أو درهم فى موضع على حدة ، حتى لا يمس الدينار أو الدرهم أو الدينار ، كما قال ابن مسعود ، وابن عباس • وعن أبى هريرة : تصفح له صفائح فتكوى بها جبهته وجنبه وظهره ، كلما بردت أعيد عليها الإحماء حتى يقضى بين الخلائق فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، وذلك كنزه بنفسه فى الدنيا ، يحضر فى الآخرة ، ثم يدخل معه النار يكوى به ، ويعذب أبدا ، وذلك إن لم يزكه ، ويمثل له أيضا ثعبانا أعظم ذاهب الشعر لكثرة سمه أو لطول عمره ، له نابان يأخذ باللحمتين اللتين تحت الأذنين ويقول له : أنا مالك ، أنا كنزك ، ولعله تارة يكوى بها ، وتارة يمثل ثعبانا أو هذا الذى يمثل ثعبانا سائر ماله الذى تجب زكاته لأنه للتجارة ، ولم يزكه •

ومن منع زكاة غنمه أو بقره أو إبله ، بطح فى أرض مستوية فتطؤه الإبل وتعضه وتطؤه الغنم والبقر وتعضه ، وتنطحه ، ويجعلها الله كلها بقرون ، ولا قرن فيها مكسور ولا ملتو ، كلما مر عليه أول الإبل أو الغنم أو البقر رد عليه أخراها ، حتى يقضى الله بين الخلائق فى يوم مقداره خمسون ألف سنة .

وقال الأحنف بن قيس : دخلت مسجد المدينة ، وإذا رجل خشن الهيئة رثها ، يطوف فى الخلق وهو يقول : بشر أصحاب الكنوز بكى فى جباههم وجنوبهم وظهورهم ، ثم انطلق وهو يتكلم ويقول : وما عسى تصنع بى قريش اهـ ، والرجل أبو ذر ، وفى رواية عن الأحنف بن قيس : قدمت المدينة فبينما أنا فى حلقة فيها الملأ من قريش ، إذ جاء رجل خشن الثياب والجسد والوجه ، فقام عليهم فقال : بشر الكنازين برضف أى حجارة ، يحمى عليها فى نار جهنم ، فتوضع على حلمة الثدى ، وتخرج بين كتفيه ، وتوضع على كتفيه ، وتخرج من الثدى ، تتزلزل ، فوضعوا رءوسهم فما رأيت أحدا منهم رجع إليه شيئا ، فأدبر فقلت : من هذا ؟ قالوا : أبو ذر ، فاتبعته حتى جلس إلى سارية ، وقلت له : ما رأيت هؤلاء إلا كرهوا ما قلت ، قال : إن هؤلاء لا يعقلون شيئا ، وما قلت إلا ما سمعت من نبيهم .

(هَذا ما كَنَزْتم لأنفسِكُم) لتنتفع بـه وتتلذذ ، كأن عـين مضرتها وسبب تعذيبها ، يقال لهم ذلك توبيخا ، والتقدير ويقال لهم : هذا ما كنزتم لأنفسكم ، أو مقولا لهم هذا ما كنزتم لأنفسكم (فذُوقُوا ما) اسم موصول ، أو حرف مصدر (كُنتُم تَكنِزُونَ) وقرىء بضم

النون الأولى ، والمعنى ذوقوا وبال المال الذى كنتم تكنزونه ، أو وبال كونكم تكنزون •

(إنَّ عِدَّةَ الشُّهورِ عِنْدَ الله) متعلق بنسبة الخبر إلى اسم إن وهى عامل معنوى ، أو متعلق بمحذوف نعت لعدة على ما ذكر بعض المتأخرين فى مثله ، أى إن عدة الشهور الثابتة عند الله ، وعلقه القاضى بعدة وهو مصدر (اثْنَى عَشَرَ) وقرأ أبو جعفر بن القعقاع بإسكان العين قبل الشين تخفيفا ، لتوالى الحركات (شَهْراً) لا أكثر ، وكانت بالنسىء ثلاثة عشر أو أربعة عشر •

والاثنا عشر : المحرم ، وصفر ، وربيع الأول ، وربيع الآخر ، وجمادى الأولى ، وجمادى الآخرة ، ورجب ، وشعبان ، ورمضان ، وشوال ، وذو القعدة ، وذو الحجة ، وهى شهور السنة القمرية ، مبنية على سير القمر فى المنازل ، وهى شهور العرب التى يعتد بها المسلمون فى الصوم والحج والأعياد ، وأيامها ثلاثمائة وخمسة وخمسون يوما ، كذا قيل ، وإنما هذا فى عام الكبس ، وهو يكون فى كل ثلاثة أعوام وهو القياس ، ويقع فى عامين أيضا ، وذلك أن العام ثلاثمائة وأربعة وخمسون يوما وسدس يوم وخمسه ، ففى العام الثالث يكمل يوم وزيادة يسيرة ، فيجعل فى آخره ، واصطلاحهم أن يكون ذلك فى العام الثانى ينقصان ، وذلك أنه إذا اجتمع من الكسور أكثر من نصف يوم عدوه يوما كاملا •

وقيل العام ثلاثمائة يوم وأربعة وخمسون يوما وربع يوم ، إذا جعلنا شهرا ثلاثين وشهرا تسعة وعشرين ، استوفت الشهور أيام السنة ، وإذا اجتمع من الكسور يوم زيد فى آخر ذى الحجة •

والسنة العجمية ، تزيد على العام العربى بأحد عشر يوما ، وقيل بعشرة ، وسبب هذه الزيادة كان الصوم والحج تارة فى الصيف ، وتارة فى الشتاء ، وتارة فى الربيع ، وتارة فى الخريف ، وسميت الثلاثون يوما ، والتسعة والعشرون يوما شهرا أخذا من الشهرة ، لأن الناس ينظرون إلى الهلال فى أولها ويشهرونه .

وأول شهور العام : المحرم بضم الميم وفتح الراء مشددة ، سمى لتحريم القتال فيه ، وقيل لتحريم الجنة فيه على إبليس ، وقرن بأل المعرفة إشارة إلى أنه هو أول العام ، والصحيح أنها للمح الوصف ، فإن محرما اسم مفعول فى الأصل لا للتعريف ، وخص بهذا الاسم دون سائر الأشهر الحرام ، لأن التحريم فيه أشد ، لأنه أفضل منها .

وثانيها : صفر بفتح الصاد والفاء ، سمى لخلو مكة فيه من أهلها لخروجهم للحرب ، وقيل : لأنه وافق وقت خروجهم منها وتركهم لها .

وثالثها ورابعها : الربيعان ، وسميا لارتباع الناس فيهما أى لإقامتهم فيهما بلا غزو ، وقيل : لأن إرادة وضع الاسم لهما وافقت ارتباعهم ، لكن الصحيح أن الأسماء توقيف ، الله علمها آدم .

وخامسها وسادسها : جمادى الأولى والآخرة بضم الجيم ، وبألف التأنيث المقصورة لجمود الماء فيهما بالموافقة لحين الوضع .

وسابعها : رجب ، سمى لتعظيمهم له ، وقيل : لموافقته حين الوضع تثاقل الشجر بحملها حتى احتاجت إلى الترجيب ، وهو جعل ما تعتمد عليه لها ، ويسمى الأصم لعدم قعقعة السلاح فيه والأصب لكثرة صب

الله سبحانه فيه الرحمة والخيرات ، قيل : ولعدم تعذيب أمة فيه ، ورد بإغراق قوم نوح فيه •

وثامنها : شعبان لتفرق القبائل فيه ، والتشعب يطلق على التفريق وعلى الاجتماع ، وفى الحديث : « سمى لأنه يفرق فيه خير كثير » •

وتاسعها : رمضان ، لاحتراق الأكباد فيه بالجوع والعطش ، أو احتراق الذنوب فيه ، أو لموافقته حين الوضع شدة الحر ، ومنع صرفه للعلمية وزيادة الألف والنون ، قيل : ويسمى شهر رمضان وإنه هذا كله علم عليه ، وتعتبر علامتا منع الصرف فى الجزء الثانى لوجودهما فيه كأبى هريرة بمنع هريرة للعلمية والتأنيث ، وهذا فى نفسه صحيح ، لكن لا أسلم أن مجموع قولك : شهر رمضان علم مركب ، بل العلم رمضان ، والإضافة للبيان إضافة عام لخاص ، وزعم بعض أنه لا يقال : رمضان ، بل شهر رمضان ، وزعم مجاهد : أن رمضان اسم الله ، ومعنى شهر رمضان شهر الله ، فلا يجوز أن يسمى باسم لم يرد فى سنة أو قرآن ، وإن لم يشعر بنقص ، وأسماء رسوله توقيفية إجماعا ، لأن تسميته حق له ، وحق المخلوق مبنى على المشاحة ، وحق الله على المسامحة ، فلو خوطبت بما لم يسمك به أبواك لم تسمح نفسك ، كذا قال التلاتى ، والصحيح أن أسماء الله توقيفية ، ولعل له فى ذلك توقيفا •

وعاشرها : شوال ، سمى لرفع الإبل فيه أذنابها للطروق ، وقيل : لقلة اللبن فيه عند أصحاب الإبل •

وحادى عشرها : ذو القعدة بفتح القاف وهو أشهر من كسرها ، وروى ضمها وهو غريب ، سمى لقعودهم عن القتال فيه •

وثانى عشرها : ذو الحجة بكسر الحاء على الصحيح ، وقيل : بفتحها اسمى لوقوع الحج فيه فى الإسلام ، ولأنه وقت الحج أيضا فى الجاهلية على الأصل ، ولو كان تارة فيه ، وتارة فى صفر ، وتارة فى بقية الشهور للنسائى ، قال ابن هشام : تكون الحال مؤكدة لعاملها ، ولا يقع التمييز كذلك ، وأما أن عدة الشهورة عند الله اثنى عشر شهرا ، فشهر مؤكد لما فهم من أن عدة الشهور ، وأما بالنسبة إلى عامله وهو اثنا عشر فمبين ، ولا ينافى هذا قوله فى القطر وشرحه : إن هذا تمييز مؤكد لأنه لم يقل مؤكد لعامله .

(فى كِتَابِ اللهِ) متعلق بالنسبة التى تعلق بها عند على أنه بدل ، أو بمحذوف نعت لاثنى عشر ، أو بعدة على ضعف للفصل بين المصدر ومعموله حينئذ بخبر إن ، والمصدر ومعموله كالموصول وصلته ، ومنعه بعض ، وكتاب الله اللوح المحفوظ ، أو حكم الله ، والقرآن لأن فيه آيات تدل على الحساب أقوال ضعف الثالث .

(يَوْمَ خَلَقَ السَّموات ِ والأرْضَ) متعلق بكتاب إن جعل مصدرا ، أو بالنعت المحذوف النائب عنه قوله : « فى كتاب الله » أو بمحذوف مستأنف أى ثبت ذلك يوم خلق السموات والأرض .

(مِنْها أربعةٌ حُرُمٌ) جمع حرام ، والحرام ما منع وهى : رجب وهو فرد ، وذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، وهى ثلاثة فرد ، كانت العرب تعظم الأربعة وتحرم القتال فيها ، يلقى أحدهم فيها قاتل ابنه أو أبيه أو أخيه فلا يقتله ولا يروعه ، وأعظمها رجب ، وسموه متصل الأسنة ، لأنهم يدخلون فيه الأسنة فى أغمادها ، ولا يركبونها فى مواضعها

كالرمح والنبل والسيف ، واختلفوا : هل القتال فيها جائز أو حرام ؟ والصحيح جوازه وعليه الجمهور .

وقد حاصر رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أهل الطائف فى ذى القعدة ، ووقع بعض قتال ، وقال سعيد بن المسيب : كان حراما ثم نسخ تحريمه لقوله : « براءة من الله ورسوله » وقيل بقوله : « قاتلوا المشركين كافة » وقال عطاء بن أبى رباح : تالله ما يحل للناس أن يغزوا فى الحرم ، ولا فى الأشهر الحرم ، إلا أن يقاتلوا ، وما نسخت والجمهور وعطاء الخراسانى على أنه كان القتال فيها حراما ثم نسخ تحريمه ، وكان تحريمها من دين إبراهيم وإسماعيل ، وتمسكت به العرب .

وذكر بعضهم : أن معنى كونها حرما أن المعصية فيها أشد عقوبة منها فى غيرها ، وأن الطاعة فيها أكثر ثوابا منها فى غيرها ، وفى الحديث : « إن الله اختار من الشهور رمضان وهذه الأربعة ، وإن سيد الشهور رمضان ، وأعظمها حرمة ذو الحجة ، وإن أعظم الشهور بعد رمضان المحرم » واستبعد بعضهم تفضيل الأشهر الحرم على غيرها ، لتماثل الشهور ، ويرده كثرة نظائره كتفضيل ليلة القدر ، ويوم الجمعة وليلتها ، ويوم عرفة ، وفضل مكة .

وأول الأشهر الحرم ذو القعدة ، وقيل : المحرم ، والصحيح الأول ، قيل : يؤيده قوله صلى الله عليه وسلم : « إلا إن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلقه الله » ووافقت حجته من ذى الحجة ، وهى حجة الوداع ، وكانت حجة أبى بكر فى العام قبله فى ذى القعدة ، وعلى الأول تكون من سنتين ، ومن نذر صومها مرتبة بدأ بذى القعدة ، وعلى الثانى من سنة ،

ويبدأ من المحرم ، وعليه فجعل أولها المحرم لأنه أفضلها ، ووسط أحدها وهو رجب ، لتعلم بركته الوسط ، قيل : والأول ختم بذى القعدة ، وذى الحجة ، لتتم بركة الطرف الثانى ، وأما الطرف الأول له بركتان : بركة ابتدائه بالمحرم ، وأخذه جزءاً من رجب كذا زعموا ، وزعموا أيضا أنه ختم بشهرين ليقع فيهما الحج المركب من شيئين : مال وبدن ، وهو ختام الأركان الأربعة الزكاة ، وهو مال محض ، والصلاة وهى عمل بدن ، والصوم وهو عمل القلب فيما قيل وهو بدن ، لأنه الكف عما حرم ، والحج وهو مال وبدن •

وفى حديث ، عن ابن عمران : « أولهن رجب » وإذا رأى أى الشخص الهلال قال : الله أكبر اللهم أهله علينا بالأمن والأمان ، والسلامة والإسلام ، والتوفيق لما تحب وترضى ، ربى وربك الله ، هلال خير ورشد ، اللهم إنى أسألك من خير هذا الشهر وخير القدر ، وأعوذ بك من شره •

وإذا نظر إلى القمر أول ليلة فليقل : اللهم إنى أعوذ بك من شر هذا الغاسق ، ومن رأى هلال رمضان كبر خمسا وعشرين وقال : إلهى وإلهك الله ، وربى وربك الله ، سبحان من أظهر فيك من محاسن أسمائه ما عمت به البركات ، سبحان من شرف أوقاتك على سائر الأوقات ، سبحان من فتح فيك أبواب الإجابات للدعوات ، سبحان من وصفك بأتم الصفات ، سبحان من سنى فيك ملائكة الحضرات القدسيات ، إلهى توسلت إليك بالأسماء التى على أبواب ليلة القدر وبالأذكار ، التى ألهمت بها أولياءك ، فشرفت بها على ألف شهر ، تعرج الروح فيها والأملاك ، أن تشهد فى مشاهدة هذه الليلة مطابقة لشهودك ، وتلهمنى

ذكر أسمائك التى تقدست بها ملائكة الليلة ، حتى يمتزج الذكر فيصير وضعى ملكيا ونفسا روحيا يا قيوم لا إله إلا أنت .

(ذَلِكَ) أى تحريم الأشهر الأربعة (الدِّينُ القَيِّمُ) دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام المستقيم ، وقال ابن عباس : القضاء المستقيم ، وقيل : الحكم الثابت الذى لا يزول ، وقيل : الحساب المستقيم ، وقد فسر بعضهم دان بمعنى حاسب فى حديث : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت » والإشارة فى هذا القول إلى عدد الاثنى عشر شهرا .

(فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ) فى هذه الأربعة (أَنفُسَكُم) بارتكاب المعاصى ، فإن الوزر فيها أعظم كالوزر فى الحرم ، ولو كان الوزر محرما فى كل وقت ، وكل زمان ، وذلك على قول الجمهور ، وعطاء الخراسانى ، وأما على قول عطاء بن أبى رباح ، فالظلم القتال ، وكان يرى القتال فيهن حراما ، وقال ابن إسحاق : لا تظلموا فيهن أنفسكم باستحلالها ، وتحريم غيرها بالنسىء كما تفعل الجاهلية .

قيل : سبب تعظيم بعض الأشهر ، وبعض الأماكن : أن يتدرب الإنسان المجبول النفس على المعصية إلى ترك المعصية فيما سواها ، وقيل : الضمير عائد إلى الاثنى عشر ، أى خلقت الأزمنة كلها للطاعة ، فلا تعصوا الله فيها ، والجمهور وقتادة على أن الضمير للأربعة ، ويؤيده المجىء به بصورة الجمع المؤنث ، لأن الأربعة لم تبلغ عدد جمع الكثرة ، وهى لغير العاقل ، فكان الأفصح الجمع ، وإذا رد على الاثنى عشر كان بدون ذلك فى الفصاحة ، لأن الاثنى عشر بلغ عدد جمع الكثرة لغير العاقل ،

فكان الأفصح الإفراد والتأنيث ، بأن يقال فيها ، وجمع الكثرة أحد عشر ، وقيل عشرة فصاعدا •

(وقَاتِلُوا المشْرِكينَ كافَّةً كَما يُقاتلونَكُم كافَّةً) قاتلوهم وأنتم مجتمعون عليهم ، كما يقاتلونكم وهم مجتمعون عليكم ، فكافة حال من الفاعل فى الموضعين ، أو قاتلوهم ولا تتركوا منهم أحدا كما يقاتلونكم ، ولا يتركون منكم أحدا ، فكأنه حال من مفعول وهو مصدر بوزن اسم الفاعل وقع حالا ، وذلك أن الجميع مكفوف عن الزيادة ، ويجوز أن يكون حالا من الفاعل والمفعول معا ، ويجوز أن يكون اسم فاعل ، أى جماعة كافة ، أى تكف من عارضها ، وقيل : يكف بعضها بعضا عن التخلف وهو ضعيف ، قال بعضهم : المراد قاتلوا المشركين فى الأشهر الأربعة ، وأخرى أن تقاتلوهم فى غيرها •

قال بعضهم : كان الغرض بهذه الآية متوجها على الأعيان ، ثم نسخ وجعل فرض كفاية ، قال بعض : إن هذا ضعيف ، وإنه لم يعلم قط من شرع النبى صلى الله عليه وسلم أنه ألزم الأمة جميعا النفر ، وإن المراد بالآية الحض على قتال المشركين والتحزب عليهم •

(واعْلَمُوا أنَّ اللهَ مَعَ المتَّقينَ) أمرهم بعلم أن الله مع المتقين بالنصر والعون بعد أمرهم بالقتال بشارة ، ووعد بالغلبة بسبب التقوى ، وحظا على القتال والتقوى •

(إنمَّا النَّسىءُ) التأخير وهو مصدر نسأه ينسأه بالهمزة بمعنى أخره ، ويقال أيضا : أنساه والأصل النسىء بالهمزة ، أبدلت ياء وأدغمت فيها الياء ، هذه قراءة نافع فى رواية ورش ، وهى قراءة ابن كثير فى

رواية غير مشهورة ، وأبى جعفر ، وقرأ الباقون النسىء على الأصل المذكور بإسكان الياء بعدها همزة بوزن المسيس والنذير والصهيل ، وهو المشهور عن ابن كثير ، وإذا وقف حمزة وهشام وافقا نافعا ، وقرأ ابن كثير فى رواية ، وجعفر بن محمد ، والزهرى : النسىء بإسكان السين بعده ياء فقط ، وقرأ ابن كثير أيضا فى رواية : النسىء بإسكان السين بعده همزة متصلة به فقط ، وقرأ بعضهم : النساء بالمد ، وبعض النسىء بالقصر ، والكل مصادر بمعنى التأخير .

والمراد تأخير حرمة الشهر إلى شهر بعده ، كانوا إذا جاء شهر حرام وهم محاربون أو مريدون المحاربة أحلوه وحرموا مكانه آخر ، ورفضوا تخصيص الأشهر الحرم ، وحرموا من العام أربعة على حد مـا يوافقهم ، ولا يجوز أن يكون النسىء بتشديد الباء ، أو النسىء بإسكانها بعدها همزة فعيلا بمعنى مفعول ، لأن المؤخر الشهر ، والشهر لا يكون زيادة فى الكفر كما قال أبو على الفارسى ، وقال أبو حاتم : هو فعيل بمعنى مفعول ، ولعله مضافا ، أى إنما إنساء النسىء .

وقال الطبرى : معنى النسىء الزيادة ، أى إنما الزيادة فى الأشهر ، وذلك أن العام بما تفعله الجاهلية من التأخير يكون ثلاثة عشر شهرا ، وربما جعلوه أربعة عشر شهرا ، ولذلك رد الله عليهم بأن الشهور اثنا عشر شهرا لا غير ، وقال فى النسىء بإسكان السين بعده ياء : إنه الترك ، والصحيح أنه التأخير ، لكن أبدلت الهمزة ، وزعم أبو وائل : إن النسىء بإسكان الياء بعدها همزة رجل من كنانة ، أخبر عنه بزيادة فى الكفر مبالغة أو بتقديره بزائد فى الكفر ، أو بذو زيادة فى الكفر ، أو بتقدير

زيادة النسىء زيادة فى الكفر ، وأن الهاء فى به عائدة إليه وترده الهاء ان بعدها .

(زِيادةٌ فى الكُفْرِ) الشرك لأنه تحليل ما حرم الله ، وتحريم ما أحل الله ، ضموه إلى شركهم (يُضَلُّ) وقرأ أبو رجاء بفتح الضاد ، لأن ضل من باب ضرب ، ومن باب علم ، وذلك لغتان (به الَّذينَ كَفَرُوا) أى يزدادون به ضلالا ، وقرأ حمزة ، والكسائى ، وحفص ، وعاصم فى رواية عنه ، وابن مسعود بضم الياء وفتح الضاد بالبناء للمفعول ، من أصله ليناسب زُيِّن ، والمضل لهم الله أو الشيطان ، أو رؤساؤهم .

وقرأ يعقوب وابن مسعود فى رواية عنه ، والحسن ، ومجاهد ، وقتادة ، وعمرو بن ميمون ، بضم الياء وكسر الضاد ، على أن الفاعل ضمير الله سبحانه وتعالى ، أو ضمير الشيطان لعنه الله ، والذين مفعول أو هو الفاعل والمفعول محذوف ، أى يضل به الذين كفروا أتباعهم ورجحهم بعضهم والهاء عائدة إلى النسىء أى يضل بالتأخير الذين كفروا .

(يُحِلُّونه) مستأنف لبيان الضلال ، أو حال من الذين ، أو يحلون النسىء وهو التأخير ، بأن يجعلوه حلالا فيؤخروا شهرا ويحرمون مكانه شهرا آخر ، وأرجع بعضهم الهاء إلى الشهر المفهوم من المقام ، وبعض إلى النسىء على أنه بمعنى الشهر المؤخر على معنى إنما إنساء النسىء زيادة فى الكفر .

(عَاماً) ظرف (ويُحرِّمونَهُ عاماً) آخر ، أى يتركونه على حرمته فى العام الآخر (ليُواطِئُوا) يوافقوا متعلق بيحلونه ، أو يحرمونه

على التنازع ، أو بمحذوف يتضمن ذلك التحليل ، وذلك التحريم ، أى ينسأون أو يفعلون ذلك ليواطئوا ، وقرأ الزهرى ليوطئوا بالتشديد .

(عِدَّةَ ما حَرَّم الله) وهو أربعة الأشهر ، يوافقون عددها دون أعيانها كلها ، وقد يوافقون بعض أعيانها (فَيُحِلُّوا ما حرَّم الله) أى يزيلون الحرمة عما جعلها الله له بمراعاتهم العدد ، دون الوقت المعين .

(زُيِّنَ) وقرىء بالبناء للفاعل وهو الله ، وقال ابن عباس : الشيطان ونصب سُوء (لَهم سُوءُ أعْمالهم) قبيحها فحسبوه حسنا ، كانت العرب لا عيش لأكثرها إلا من الغارات وإعمال سلاحها ، فكانوا إذا توالت حرمة ذى القعدة ، وذى الحجة ، والمحرم ، صعب عليهم وأملقوا ، وكان بنو فقيم من كنانة أهل دين فى العرب ، وتتمسك بشرع إبراهيم عليه السلام فيما يزعمون ، فانتدب منهم القلمس وهو حذيفة بن عبد فقيم ، فنسأ الشهور للعرب ، ثم خلفه على ذلك ابنه عباد بن حذيفة ، ثم ابنه قلع بن عباد ، ثم ابنه أمية بن قلع ، ثم ابنه عوف بن أمية ، ثم ابنه أبو ثمامة جنادة بن عوف ، وعليه ورد الإسلام .

وقيل : هو أول من أحدث ذلك كان يقوم على جمل فى الموسم فينادى بأعلى صوته : إن آلهتكم قد أحلت لكم المحرم فأحلوه ، ثم يقوم فى القابل فيقول : إن آلهتكم قد حرمت عليكم المحرم فحرموه .

وقال الكلبى : أول من فعل ذلك رجل من كنانة يقال له : نعيم ابن ثعلبة ، يكون على الناس فى الموسم ، فإذا هموا بالصدر خطبهم وقال : أنا الذى لا يرده ما قال ، لا أجاب ولا أعاب ، فيقول له المشركون :

لبيك ، ثم يسألونه أن ينسئهم شهرا ، فإن أحل لهم المحرم كان صفر حراما •

وعن ابن عباس : أول من فعل ذلك عمرو بن يحيى بن قمعة ، وهو أول من سيب السوائب ورآه صلى الله عليه وسلم فى النار ، وإذا أحلوا المحرم وحرموا صفرا سموا ربيعا الأول صفرا ، وربيعا الآخر ربيعا الأول ، وهكذا فتكون السنة من ثلاثة عشر شهرا ، قال مجاهد فيحجون فى كل شهر عامين ، فكانت حجة أبى بكر فى ذى القعدة حقيقة ، وهم يسمونه ذا الحجة ، وقيل : فى ذى الحجة •

وحج رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع فى ذى الحجة حقيقة ، وخطب فى منى وقال : « ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ، ثلاثة متوالية : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان » وقال : « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا ، وهو يوم النحر فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا ، وستلقون ربكم يسألكم عن أعمالكم ، ألا فلا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض ، ألا ليبلغ الشاهد الغائب فلعل بعض من يبلغه أوعى من بعض من يسمعه » ثم قال : « ألا هل بلغت ، ألا هل بلغت » قالوا : نعم ، قال : « اللهم اشهد » وإنما نسب رجبا إلى مضر لأن قبائل ربيعة تجعل رجبها رمضان ، بخلاف قريش ومن تابعهم •

وكان أول السنة المحرم ، لأن عمر دوّن ديوان المسلمين وأرّخه بالمحرم ، أو لأن سفينة نوح رست فيه ، وقال قوم : كانوا يحلون

المحرم ويحرمون صفرا ، ويحرمون المحرم من قابل ، ويحلون صفرا ، وكانوا يسمونهما الصفرين ، ولو فرضنا أنهم حرموا صفرا وأحلوا المحرم قبله ، وفى السنة الثانية أحلوهما وحرموا ربيعا الأول ، وفى الثالثة أحلوهن وحرموا ربيعا الآخر وهكذا ، أرجع التحريم إلى المحرم فى الثانية عشر ، لكنهم قد يفعلون ذلك ، وقد يفعلون غير ذلك ، وقد يحلون رجبا ويحرمون شعبان ، فيحلون ذا القعدة ، ويحرمون صفرا ، وقد يحلون ذا القعدة فيحرمون مع المحرم صفرا وربيعا الأول ، ويفعلون نحو ذلك .

(واللهُ لا يهْدِى القَوْمَ الكافِرِينَ) الذين سبقت شقاوتهم هداية توفيق ، وأما هداية البيان فقد هداها كل كافر ، وهكذا فى مثل الآية ، وقد مر الكلام فى مثلها .

(يا أيُّها الذين آمنُوا ما لكُم إذا قِيلَ لَكُم انفِرُوا فى سَبِيلِ اللهِ) أى إذا قال لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم : انتقلوا بسرعة فى سبيل الله للجهاد ، وأصل النفر التنقل من مكان إلى آخر لأمر يحدث ، والمضارع ينفر بكسر الفاء فى بنى آدم ، وبضمها فى الدواب كذا قيل ، تضم وتكسر فيهما ويستعمل أيضا النفر فى مطلق الذهاب ، والخطاب لمن لم ينفر فى غزوة تبوك .

(اثَّاقلْتُم) إلى الأرْض) تباطأتم ، وعدى بإلى لتضمنه معنى الإخلاد والميل ، فهو مثل قوله : « أخلد إلى الأرض » وهذا جواب إذا ، وإذا جوابها وشرطها حال من الكاف فى قوله : « ما لكم » أو هذا حال وجواب إذا محذوف مدلول عليه به ، وهو بمعنى المضارع لكونه دليل جواب ، والأصل تثاقلتم أبدلت التاء المثناة مثلثة ، وسكنت وأدغمت

فى المثلثة بعدها ، فكان أول الكلمة ساكنا ، فجلبت همزة الوصل ، وقد قرأ الأعمش تثاقلتم بتاء مثناة فثاء مثلثة على الأصل ، وقال أبو حاتم : قرأ الأعمش تثاقلتم بمثناتين فمثلثة ، ولا يصح ذلك ، إذ لا تزاد فى أول الماضى تاءان ، وقرىء أثاقلتم بقطع الهمزة مفتوحة على الاستفهام التوبيخى ، وقد سقطت همزة الوصل ، وعلى هذا فجواب إذا محذوف قطعا دل عليه اثاقلتم بهمزة استفهام تقديره : اثاقلتم بهمزة الوصل ، أو أبطأتم أو نحو ذلك ، أو دل عليه ما لكم ، فإنه بمنزلة ما تصنعون .

(أرضيتم) استفهام توبيخ (بالحياة الدنيا من الآخرة) عوض الآخرة ، فمن للبدلية متعلقة بمحذوف حال من الحياة ، أو برضيتم ، والدنيا مؤنث الأدنى ، أى الحياة التى هى قرينة الزوال ، أو دنية خسيسة ، وهو خارج عن التفضيل ، وهذا دليل على أن تثاقلهم كان بسبب حب الحياة ونعيمها ، والمال والأهل والولد والزهد عن نعيم الآخرة .

(فما متاع الحياة الدنيا)أى إن رضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ، فليست منفعة الحياة الدنيا التى تتمتعون بها فى الحياة الدنيا (فى الآخرة) أى فى جنب الآخرة ومقابلتها (إلا قليل) لنقصانه وتكدره وفنائه ، بخلاف نعيم الآخرة ، وفى متعلقة بنعت محذوف ، أى المعتبرة فى جنب الآخرة ، أو بنسبة الخبر إلى المبتدأ .

(إلا) إن لا (تنفروا) إذا ما استنفركم إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم (يعذبكم عذابا أليما) فى الآخرة ، وقيل : فى الدنيا بقحط أو ظهور عدو أو نحو ذلك ، وعن ابن عباس : استنفر رسول الله صلى الله عليه وسلم نفرا من العرب فلم ينفروا ، فعذبهم الله بالقحط

وإمساك المطر ، وقول بعضهم : إن العذاب الأليم مختص بالآخرة غير مقبول ، وكم من عذاب أليم فى الدنيا •

(ويستبدلْ) بكم (قوماً غيرَكم) مطيعين لله ورسوله كأهل اليمن ، وأبناء فارس ، ينصرون دين الله إن خذلتموه ، وقيل : يهلككم بالعذاب ، ويستبدل قوما غيركم ينصرونه ، وعن ابن جبير ، عن ابن عباس : أبناء فارس ، وقيل : أهل اليمن •

(ولا تضرّوه) أى الله بتثاقلكم فى نصرة دينه ؛ فإن الله غنى عن العالمين فى النصر وغيره ، لا يصله ضر من مخلوق ولا نفع ، وإنما تضرون أنفسكم ، أى الهاء لسبيل الله ، وقيل : هى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، أى لا تضروه بالخذلان ، لأن الله وعده النصر وهو ناصره حقا ، وهو أنسب بالسياق اللاحق (والله على كل شىء قدير) فإن شاء نصر دينه ونبيه بلا جنود •

قال الحسن ، وعكرمة : هذه الآية منسوخة لقوله : « وما كان المؤمنون لينفروا كافة » والصحيح أنها عتاب وخطاب لقوم تثاقلوا ، فليست منسوخة ، وهى تحضيض على غزوة تبوك ، وذلك أنه بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأقباط الذين يقدمون بالزيت من الشام إلى المدينة ، أن الروم تجمعت بالشام مع هرقل ، فندب الناس إلى الخروج وذلك بعد رجوعه من الطائف ، وأعلمهم بالمكان الذى يريد ليتأهبوا ، وكان صلى الله عليه وسلم لا يريد الخروج لغزوة إلا ورى عنها بغيرها ، إلا غزوة تبوك ، فإنه بينها للناس لبعد المشقة ، وشدة الحر ، وكثرة وذلك بعد رجوعه من الطائف ، وأعلمهم بالمكان الذى يريد ليأهبوا ،

العدو ، والناس يريدون المقام فى ثمارهم ، وهو وقت طيبها ، وقلة إبلهم كما قال ابن عقيل شارح الألفية .

خرجوا فى قلة من الظهر ، وفى حر شديد ، حتى كانوا ينحرون البعير فيشربون ما فى كرشه من الماء ، فكان ذلك عسرة فى الماء والظهر والنفقة ، فسميت غزوة العسرة ، وكان خروجهم إليهم يوم الخميس فى رجب سنة تسع من الهجرة بلا خلاف ، وتسمى أيضا الفاضحة ، لافتضاح المنافقين ، فيها ، وعن عمران بن حصين : لأن نصارى العرب كتبت إلى هرقل أن هذا الرجل الذى يدعى النبوة هلك وأصابتهم سنون ، فهلكت أموالهم ، فبعث رجلا من عظمائهم ، وجهز معه أربعين ألفا ، فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن للناس قوة ، وكان عثمان قد جهز عيرا إلى الشام ، فقال : يا رسول الله هذه مائتا بعير بأقتابها وأحلاسها ، ومائتا أوقية .

قال صاحب المواهب القسطلانى ، وهو من علماء الأندلس ، منسوب إلى بلدته فى الأندلس وهى قسطلان ، قال عمران بن حصين : فسمعته يقول : « لا يضر عثمان ما عمل بعدها » والعهدة على القسطلانى وعمران ، فإن صح ذلك فمعنى ذلك الدعاء له بالخير لا القطع بأنه من أهل الجنة ، وعن عبد الرحمن بن سمرة : جاء عثمان بن عفان بألف دينار فى كمه حين جهز جيش العسرة ، فنثرها فى حجره صلى الله عليه وسلم ، فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقلبها فى حجره ويقول : « ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم » فإن صح هذا فذلك أيضا دعاء .

وإنما قلت ذلك لأخبار سوء وردت فيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومثل ذلك ما رواه الطبرى ، عن حذيفة : أن عثمان بعث فى جيش

العسرة بعشرة آلاف دينار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فصبت بين يديه ، فجعل يقلبها ظهرا لبطن ويقول : « غفر الله لك يا عثمان ما أسررت وما أعلنت وما هو كائن إلى يوم القيامة ، ما يبالى ما عمل بعدها » وهذا كما يقول المتلطف لمن أراد قتله : يا سيدى لا أموت ، أى لا تقتلنى ، فكأنه قال : اغفر له ولا تعاقبه بذنب بعد هذه الفعلة ، أو بعد هذه النفقة .

وعن قتادة : حمل عثمان فى جيش العسرة على ألف بعير ، وسبعين فرسا ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جنود من المسلمين ، لا يجمعهم كتاب حافظ ، قاله كعب بن مالك ، يريد ديوانا . وعن زيد ابن ثابت : كنا فى غزوة تبوك ثلاثين ألفا ، لقد كان الناس يرحلون عند ميل الشمس كما ترحلون ، والساقة مقيمون حتى يرحل آخر العسكر ، قال بعض من كان على الساقة : يرحل آخرهم نساء ، وترحل على أثرهم فلا ننتهى إلى العسكر إلا مصبحين من كثرة الناس ، وقال أبو زرعة : كانوا سبعين ألفا ، وعنه أربعون ألفا .

وقال الواقدى قالوا : كانوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثين ألفا ، ومن الخيل عشرة آلاف فارس ، واستخلف على المدينة محمد بن مسلمة على الصحيح ، وقيل : إنه استخلف عليا على المدينة وعياله ، ولم يتخلف علىّ عن غزوة غير تبوك لما استخلفه صلى الله عليه وسلم ، وقال له يؤمئذ : « أنت منى بمنزلة هارون من موسى » يعنى فى القرابة المطلقة ، والنصر والإعانة ، وخاف أن تتوهم نبوة علىّ فقال : « إلا أنه لا نبى بعدى » ورجحه ابن عبد البر من علماء الأندلس ، وهو فى حديث سعد بن أبى وقاص ، وقيل : استخلف سباع بن عرفطة ، وأمر

رسول الله صلى الله عليه وسلم كل بطن من الأنصار والقبائل من العرب ، أن يتخذوا لواء وراية •

ولما خرجوا وكانوا فى السير ، جعل الرجل يتخلف فيقولون : تخلف فلان يا رسول الله ، فيقول : « دعوه فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم ، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه » حتى قيل : يا رسول الله تخلف أبو ذر وأبطأ به بعيره ، فقال : « دعوه فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم ، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه » ثم إنه حمل متاعه على ظهره واتبع أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض منازله ، فنظر ناظر من المسلمين فقال : يا رسول الله إن هذا الرجل يمشى على الطريق وحده ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رحم الله أبا ذر يمشى وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده » يشير إلى أنه أبو ذر وفى رواية : « كن أبا ذر » •

ولقد خرج إلى الربذة ومات فى الطريق ومعه امرأته وغلامه ، وقد أوصاهما أن يغسلاه ويكفناه ويضعاه على قارعة الطريق ، ويقولا لأول ركب يمر بهما هذا أبو ذر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعينونا على دفنه ، ففعلا ذلك ، ومر ابن مسعود فى رهط من أهل العراق عمارا ، فقام إليهم الغلام فقال ذلك ، فاستهل ابن مسعود يبكى ويقول : صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تمشى وحدك وتموت وحدك وتبعث وحدك » وصلوا عليه ودفنوه ، وحدثهم بما قال فى مسيره إلى تبوك •

وتخلف أيضا أبو خيثمة ، وذهب إلى جنابهم وله فيه امرأة حسناء وقد أينع ، ففرشت له فى الظل ، وبسطت له الحصير ، وقربت إليه الرطب والماء البارد ، فنظر فقال : ظل ظليل ، ورطب يانع ، وماء بارد ، وامرأة

حسناء ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحر والريح ، ما هذا بخير ، فقام فرحل ناقته ، وأخذ سيفه ورمحه ، ومر كالريح ، ثم لحقه بعد وصوله تبوك ونزوله قالوا : هذا رجل راكب فقيل فقال : « كن أبا خيثمة » أى أنت أبو خيثمة ، فالطلب بمعنى إن خيار ، وقيل المعنى : اللهم اجعله أبا خيثمة ، قالوا : هو يا رسول الله ، وفرح به صلى الله عليه وسلم .

ومرّ صلى الله عليه وسلم بالحجر ديار ثمود ونزلها واستقى الناس من بئرها ، وقال صلى الله عليه وسلم : « لا تشربوا من مائها شيئا ، ولا تتوضئوا منه للصلاة ، ومن كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبل ، ولا يخرجن أحد منكم الليلة إلا ومعه صاحب له ، وستهب ريح شديدة ، ومن كان له بعير فليشد عقاله » وهبت وفعلوا إلا رجلين من بنى ساعدة ، خرج أحدهما لحاجته ، وخرج الآخر فى طلب بعير له ، فأما الذى ذهب لحاجته فإنه خنق على مذهبه ، وأما الذى ذهب فى طلب بعيره فإنه احتملته الريح حتى طرحته بجبل طيىء ، فأخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « ألم أنهكم أن يخرج منكم أحد إلا ومعه صاحبه » ثم دعا للذى أصيب على مذهبه فشفى ، وأما الذى وقع بجبل طيىء فإن طيئا أهدته لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة .

وروى أنه لما مر بالحجر سجى ثوبه على وجهه ، واستحث راحلته ثم قال : « لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا إلا وأنتم باكون لئلا يصيبكم ما أصابهم » ولما أصبحوا ولا ماء شكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدعا الله سبحانه فأرسل الله سبحانه سحابة فأمطرت وارتووا ، وحملوا حاجتهم من الماء ، وكان منافق معروف النفاق يسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث سار ، فأقبلوا عليه يقولون : ويحك هل بعد هذا

شيء سحابة مارة ، وضلت ناقته ببعض الطريق فخرج بعض أصحابه في طلبها ، وعند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من أصحابه يقال له : عمارة بن حزم ، وكان عقبيا بدريا ، وكان في رحله زيد بن لصيت القينقاعي ، وكان منافقا ، فقال زيد بن لصيت وهو في رحل عمارة ، وعمارة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم : أليس محمد يزعم أنه نبي يخبركم عن خبر السماء ، وهو لا يدري أين ناقته ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمارة عنده : « إن رجلا قال هذا محمد يخبركم أنه نبي ويزعم أنه يخبركم بأمر السماء وهو لا يدري أين ناقته ، وإني والله لا أعلم إلا ما علمني الله ، وقد دلني الله عليها وهي في هذا الوادي من شعب كذا وكذا ، قد حبستها شجرة بزمامها ، فانطلقوا حتى تأتوني بها » .

فذهبوا فجاءوا بها ، فرجع عمارة إلى رحله فقال : والله لعجب من شيء حدثناه رسول الله صلى الله عليه وسلم آنفا عن مقالة قائل أخبره الله عز وجل كذا وكذا للذي قال زيد بن لصيت ، فقال رجل ممن كان في رحل عمارة ، ولم يحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، زيد والله قالها قبل أن تأتي ، فأقبل عمارة على زيد يضربه بيده في عنقه ويقول : يا لعباد الله ، إن في رحلي لداهية ، اخرج يا عدو الله من رحلي ، ولا تصحبني ، فزعم بعض الناس أن زيدا تاب بعد ذلك ، وقال بعض : لم يزل متهما بشر حتى هلك .

وعن معاذ بن جبل : وردوا عين تبوك تخرج قليلا من الماء ، وغرفوا منها قليلا قليلا ، حتى اجتمع في شيء ، ثم غسل صلى الله عليه وسلم وجهه ويديه ، ثم أعاده فيها فجرت بماء كثير فاستقوا ، ولما انتهى إلى تبوك أتاه يجنة صاحب أيلة ، فصالح رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعطاه الجزية ، وأتاه جربا وأذرح فأعطوه الجزية ، جربا بالجيم وأذرح بذال

معجمة وحاء مهملة بلدتان بالشام بينهما ثلاثة أميال ، وكتب لهم كتابا : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذه أمانة من الله ومحمد النبى رسول ليجنة وأهل أبلة لمن فى البر أو فى البحر ، لهم ذمة الله ومحمد النبى ، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن ، فمن أحدث منهم حدثا فإنه لا يحول ماله دون نفسه ، وإنه طيب لمن أخذه ، ولا يحل أن يمنعوا ما يردونه من بر أو بحر .

ووجد هرقل بحمص فأرسل خالد بن الوليد إلى أكيدر بن عبد الملك وهو نصرانى ملك عظيم بدومة الجندل ، وهو من كندة فى أربعمائة وعشرين فارسا وقيل : أرسله فى رجب فى غير غزوة تبوك ، وقال : « ستجده ليلا يصيد البقر » فخرج خالد حتى إذا كان من حصنه بمنظر العين فى ليلة مقمرة صائفة ، وتلقاه وأخاه حسانا يطارد البقر ، فشدت عليه خيل خالد فأسروه وقتلوا حسانا ، وهرب من كان معهما ، فدخل الحصن وأتوا بأكيدر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يقتلوه على أن يفتح له دومة الجندل ، ففعل وصالحه على ألفى بعير وثمانمائة فرس ، وأربعمائة درع ، وأربعمائة رمح .

وروى أن البقر باتت تحك بقرونها باب الحصن ، فقالت له امرأته : هل رأيت مثل هذا قط ، قال : لا والله ، قالت : فمن يترك هذه ؟ قال : لا أحد ، فنزل فأمر بفرسه فأسرج له ، وركب معه نفر من أهل بيته ، فيهم أخوه حسان ، فتلقته خيل رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسروه وقتلوا أخاه ، وعليه قباء من ديباج مخوص بالذهب ، فاستلبه خالد ، فبعثه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل قدومه به عليه ، فجعل المسلمون يلمسونه بأيديهم متعجبين ، فقال صلى الله عليه وسلم : « أتعجبون

من هذا ، فوالذى نفسى بيده لمناديل سعد بن معاذ فى الجنة أحسن من هـــذا » .

وقدم خالد بأكيدر بعد قيادة ، فصالحه رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجع إلى قريته ، ومقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بتبوك بضع عشرة ليلة ، وقيل : عشرون وهو يقصر ولم يجاوزها ، وروى أنه كتب فيها إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام ، فقارب الإجابة ولم يجب ، وروى أنه كتب إلى رسول الله : إنى مسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كذب عدو الله ليس بمسلم » وانصرف إلى المدينة ، ولم يلق كيدا .

وبنى فى طريقه مساجد ، وكان فى طريقه ماء من عين ، يروى الراكب والراكبين والثلاثة بواد يقال له ، المشقق ، فقال : « من سبقنا إلى ذلك الوادى فلا يسقين منه شيئا منه شيئا حتى نأتيه » فسبق إليه نفر من المنافقين : مقتب بن قشير ، والحارث بن زيد ، ووديعة بن ثابت ، وزيد بن لصيت فاستقوا ما فيه ، فلما أتاه صلى الله عليه وسلم لم ير فيه شيئا فقال : « من سبقنا إلى هذا ؟ » فقيل : يا رسول الله ، فلان وفلان وفلان ، فقال : « أو لم أنههم أن يستقوا منه شيئا حتى آتيه » ولعنهم ودعا عليهم ، ووضع يده تحت الماء النازل من العين ، ومسح به ودعا ، فانخرق من الماء ماحسة كالصواعق ، فشرب الناس واستقوا حاجتهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لئن بقيتم أو بقى بعضكم لتسمعن بهذا الوادى » وهو أخصب ما بين يديه وما خلفه .

وفى غزوة تبوك مات عبد الله ذو البجادين بلا قتال ليلا ، وأدلاه أبو بكر وعمر رضى الله عنهما إلى النبى صلى الله عليه وسلم فى قبره

يقول لهما : « أدليا أخا كما » رأى ابن مسعود شعلة نار فى طرف العسكر فاتبعها ، فإذا هم كذلك ، ولما هيأه لقبره قال صلى الله عليه وسلم : « اللهم إنى قد أمسيت راضيا عنه فارض عنه » ويقول ابن مسعود : ليتنى صاحب الحفرة ، ولقب ذا البجادين لأنه ينازع إلى الإسلام فضيق عليه قومه حتى تركوه فى بجاد ، وهو الكساء الغليظ الجافى ، فهرب منهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما كان قريبا منه شق بجاده باثنين ، اتزر بواحد ، واشتمل بالآخر ، ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل له : ذو البجادين .

ولما دنى رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة خرج الناس لاستقباله ، وخرج النساء والصبيان والولائد يقلن :

طلع البدر علينا
من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا
ما دعا لله داع

ووهم من قال : إن هذا عند قدومه المدينة من مكة مهاجرا ، لأن ثنيات الوداع من ناحية الشام لا يراها القادم من مكة إلى المدينة ، ولما دنا من المدينة قال : « إن بالمدينة أقواما ما سرتم مسيرا ، ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم حبسهم العذر » أى وقد نووا السير ، ولما أشرف على المدينة قال : « هذه طابة ، وهذا جبل أحد يحبنا ونحبه » .

(إلا تنصروه) إلا هى إن الشرطية ولا النافية ، لكن أبدلت

النون لاما وأدغمت فى لام لا ، ولذلك حذفت النون فى تنصروه ، وابن مالك على جلالته فى النحو والتصريف كغيرهما من الحديث والتفسير ، والفقه واللغة ، والعروض ، ذكر إلا هذه فى شرح التسهيل من أقسام إلا ، وإنما ذلك منه على جهة الغفلة ، أو زلة القلم ، وجواب إن محذوف تقديره فسينصره الله وقوله :

(فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِىَ اثْنَيْنِ) كالدليل عليه القائم مقامه ، وذلك أن نصره حين لم يكن معه إلا رجل واحد يتضمن أنه ينصره ، وقد كان معه آلاف رجل ، وهذا باعتبار شأن الإنسان فى النظر إلى الوسائط ، وإلا فالقلة والكثرة عند الله سبحانه سواء ، أو الآية مشيرة إلى أن وجودكم وعدمه سواء ، ألا ترون أنه نصره إذ لم تكونوا معه ، ولم يكن معه إلا واحد ، وأجاز جار الله كون قوله : « فقد نصره الله » جوابا على أن المعنى فقد أوجب الله له النصر المطلق فى ذلك الوقت الذى كان فيه ثانى اثنين ، فنصره فيه ، وينصره فى غيره انتهى بإيضاح .

وذكر النقاش : أن هذه الآية أول آية نزلت من سورة براءة ، وأسند الإخراج إلى الكفار ، لأنه لما هم بإخراجه أذن الله له بالخروج ، أو لأنهم ضيقوا عليه حتى خرج ، وثانى حال ، وقرىء بإسكان الياء على لغة من لا يظهر النصب فى المنقوص ، وهى قراءة حكاها أبو عمرو بن العلاء ، والآخر من الاثنين هو أبو بكر ، روى أن جبريل عليه السلام ، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهجرة فقال : « من يخرج معنى ؟ » قال : يخرج معك أبو بكر ، وطلبه أبو بكر بلا علم منه بمقالة جبريل أن يخرج معه ، فقال : نعم .

(إِذْ هُمَا فِى الْغَارِ) إذ بدل بعض من إذ قبله ، لأن المراد بإذ قبله زمان متسع ، سمى كله زمان الإخراج ، والغار ثقب فى أعلى ثور ، وثور جبل على يمين مكة ، وهو غربى لها ، بينهما مسيرة ساعة ، وأل للعهد الذهنى .

(إِذْ) بدل ثان بدل بعض ، أو بدل من إذ الثانية بدل الشىء من الشىء ، أو متعلق باستقرار قوله : « فى الغـــار » أو بثـــانى (يَقُولُ لِصَاحِبِهِ) هو أبو بكر رضى الله عنه ، من أنكر صحبة أبى بكر أشرك للإجماع على أنه المراد فى الآية (لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا) تعليل جملى ، والمعنى لأن الله معنا بالحفظ ، طلع المشركون على الغار ، فأشفق أبو بكر رضى الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما ظنك باثنين ثالثهما الله » فأعماهم الله عن الغار ، فما علموه غارا ، وجعلوا يترددون حوله فلم يروا له فما ، فهو عندهم صخرة ، وقيل : علموه غارا ورأوا فمه ، لكن بعث الله حمامتين وحشيتين باضتا فى أسفله ، وعنكبوتا نسج على فمه بقدر ما يظن أنه نسج لعام وهو المشهور .

(فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ) الطمأنينة التى خلقها تسكن إليها القلوب ، ورحمة منه سبحانه (عَلَيْهِ) أى على رسوله ، وقيل : الضمير عائد إلى صاحب وهو أبو بكر رضى الله عنه ، وهو أظهر لأنه كان منزعجا فى الغار ، بخلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه لم يزل ساكن النفس ، مطمئنا ، والجمهور على الأول وهو أنسب بما يعد ذلك فى الآية ، ووجهه أنه ولو كان لم يزل ساكن النفس مطمئنا ، لكنه قد تعتريه مخافة ، ما أو أنه أراد أنه أنزل عليه سكيته على السكينة التى هو فيها ، أو أنه

أراد بالسكينة الحفظ الذى من شأنه أن يسكن إليه ساكن ، أو أمرا يختص بالتبيين •

ولا يخفى ما خص الله به أبا بكر ، واختاره به على غيره بعد النبى صلى الله عليه وسلم ، مثل جعله صاحبا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى الغار حالة الخوف لشدة صفائه فى الظاهر والباطن ؛ وذكر صحبته فى القرآن ، ومثل جعله صاحبا له فى الهجرة قبل الغار ، وفيه وبعده ، صعد يوما على المنبر وقال : أيكم يحفظ سورة براءة ؟ فقال رجل : أنا ، فقال : اقرأ فقرأ ، فلما انتهى إلى قوله : « إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا » بكى وقال : أنا والله صاحبه •

قال الليث : ما صحب الأنبياء عليهم السلام مثل أبى بكر رضى عنه ، قال سفيان بن عيينة : عاتب الله الأمة بقوله : « إلا تنصروه » إلا أبا بكر فإنه خرج بقوله : « إذ أخرجه الذين كفروا » الخ ، وليس كذلك ، فإن المعاتبة إنما هى لمن تخلفه ، ومثل عدم تخلفه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر ولا حضر ، هو مثل نفعه لرسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه وماله ونيته ، وقد ذكر بعض العلماء أنه ثانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أكثر الأحوال كالإمامة والتوبة •

ومثل كونه أول من آمن عند بعض ، وقيل : علىّ ، وقيل : خديجة ، وقيل : راهب ، وعلى يده آمن عثمان ، وطلحة ، والزبير ، ومثل كونه ما يقف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى موقف من غزواته إلا وأبو بكر معه فى ذلك الموقف ، ومثل كون الله ثالثهما ، ومثل ذكره بخصوصه بإنزال السكينة عليه مع عموم إنزال السكينة على المؤمنين إياه على ما مر •

وعن عمر رضى الله عنه : وددت أن عملى كله مثل عمل أبى بكر يوما واحدا من أيامه ، وليلة واحدة من لياليه ، أما يومه فيوم منعت العرب الزكاة فقال : لو منعونى عقالا لجاهدتهم عليه ، فقلت : يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم تألف الناس وارفق بهم ، فقال لى : أجبار فى الجاهلية خوار فى الإسلام ، أنه قد انقطع الوحى ، وتم الدين ، أينقص وأنا حى ، وأما ليلته فليلة سار مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الغار ، ودخل قبله ليتلقى ما فيه من ضر وكسحه ، وشق إزاره وسد به ثقبات ، وبقيت واحدة فألقمها رجله ، ثم قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ادخل فدخل ، فوضع رأسه فى حجره ، ولدغ فى رجله من الثقبة ، ولم يتحرك مخافة أن ينتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم فسقطت دموعه على وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « مالك يا أبا بكر ؟ » فقال لدغت فداك أبى وأمى ، فتفل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فذهب ما يجده وعادت عليه هذه اللدغة ، وكانت سبب موته ليموت شهيدا ، أو مما لا ينسى لأبى بكر مفارقته الرياسة التى هو فيها فى طاعة الله ورسوله ، وفى الكفر مدة وإباء

(وأَيَّدَهُ) قوى رسوله (بِجُنُودٍ) من الملائكة (لَمْ تَرَوْها) أنزلها عليه لتحرسه فى الغار ، تصرف وجوه الكفار من الغار ، أو عن رؤيته ، وليلقى الرعب فى قلوب الكفار حتى يرجعوا ، وليعينوه على العدو ويوم بدر والأحزاب وحنين ، فالعطف على : « نصره الله » ويجوز على : « أنزل الله سكينته عليه » أى على رسوله ، ويضعف هذا إذا رجع الضمير لأبى بكر ، والخطاب للناس أو للمؤمنين أو للمعاتبين ، وهو أولى ، وفى مصحف حفصة : فأنزل الله سكينته عليهما وأيدهما ، وقرأ مجاهد : وأيده بهمزة فألف وتخفيف الياء بوزن أفعل .

(وجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا) وهى كلمة الشرك أو الدعاء إلى الكفر ، وقيل : كيدهم بالقتل (السُّفْلَى) بإدحارها ودحضها ، وذلك حصر لتعريف الطرفين وهما كلمة والسفلى ، فإنهما مفعولا جعل ، وأصلهما مبتدأ وخبر ، كأنه قيل : ما جعل كلمة سفلى إلا كلمة الذين كفروا ، وهذا كالنص فى أن كلمة الإسلام عليا ، وصرح بذلك مع قصر العلو عليه فى قوله :

(وكَلِمَةُ اللهِ) أى التوحيد ، وقيل : الدعاء إلى الإسلام ، وقيل : الشرع كله ، وقيل : وعده بالنصر ، وقرأ الحسن ، ويعقوب بنصب كلمة عطفا على معمول عامل ، ويناسبهما ، قال الأعمش : من أنه رأى فى مصحف أنس بن مالك ، المنسوب إلى أبى بن كعب : وجعل كلمته هى العليا ، والرفع أولى وأبلغ لإشعاره بأن كلمة الله عاليه فى نفسه بدون أن تكون أسفل ، ثم صيرت أعلى ، فإنه ولو فاق غيرها فلا ثبات لتفوقه ، ولا اعتبار ، ولكونه أولى وأبلغ ، عقب ذلك بضمير الفصل وهو قوله :

(هِيَ) وهو ضمير لا محل له ، أو حرف وهو ضعيف وما بعده خبر كلمة أو مبتدأ خبره ما بعده ، والجملة خبر كلمة وعلى النصب ، وهو ضمير لا محل له ، أو حرف وما بعده مفعول ثان ، أو مبتدأ خبره ما بعده والجملة مفعول ثان (العُلْيَا) فى ذاتها ، وينصر الله لها وإظهارها ، ونصر رسوله حيث حضر ، وحفظه وتأييده بالملائكة ، وبتخليصه من أيدى الكفار إلى المدينة إذ هاجر ، والحكمة فى هجرته إلى المدينة ، وإقامته بها حتى مات أن تتشرف به المدينة كما تشرفت بإبراهيم وإسماعيل ، فلا يتوهم أن شرفه بمكة ، وقد أجمعوا على أن أفضل البقاع قبره ، ويليه على الصحيح الكعبة ، والمسجد الحرام ، وخرج بعد بيعة العقبة بنحو ثلاثة أشهر ، وقيل : أول ربيع الأول بعد البيعة بشهرين وبضعة

عشر يوما ، وقدم المدينة لاثنى عشرة خلت من ربيع الأول ، وقد خرج يوم الخميس عند بعض ، وتواترت الأخبار أنه خرج يوم الاثنين ، ودخل المدينة يوم الاثنين ، ويجمع بأنه خرج من مكة يوم الخميس ، ومن الغار يوم الاثنين أقام فيه ثلاث ليال ، وخرج صبيحة الثالثة فقيل فى أثنائها :

قالت عائشة رضى الله عنها : بينا نحن جلوس فى بيت أبى بكر فى نحر الظهيرة ، وهو أول الزوال ، إذا قال قائل لأبى بكر : هذا رسول صلى الله عليه وسلم متقنعا فى ساعة لم يكن يأتينا فيها ، فقال أبو بكر : فدى له أبى وأمى ، والله ما جاء به فى هذه الساعة إلا أمر ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستأذن له فدخل ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم لأبى بكر : « أخرج مَنْ عندك » فقال أبو بكر : إنما هم أهلك بأبى أنت يا رسول الله ، وذلك أنه قد زوجه عائشة رضى الله عنها قبل ذلك ، وكان معها غيرها مثل أمها ، قال صلى الله عليه وسلم : « إنه قد أذن لى فى الخروج » قال أبو بكر : الصحبة بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نعم » قال أبو بكر : فخذ بأبى أنت يا رسول الله إحدى راحلتى ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بالثمن لتكون هجرته إلى الله بنفسه وماله ، ويكمل فضل الهجرة ، وتكون على أتم الأحوال .

قالت عائشة : فجهزناهما أحب الجهاز ، وصنعنا لهما سفرة فى جراب ، فقطعت أسماء بنت أبى بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب ، فبذلك سميت ذات النطاقين ، ثم لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رضى الله تعالى عنه بغار ثور ، ومكثا فيه ثلاث ليال وهو المشهور ، وقيل : بضعة عشر يوما ، ولما وقف رسول الله صلى الله عليه

وسلم فى خروجه على موضع عند باب الخياطين يسمى الحزورة بوزن قسورة لا بالتشديد كما قيل ، نظر إلى البيت وقال : « والله إنك لأحب أرض الله إلىّ وإنك لأحب أرض الله إلى الله » مخاطبا لمكة وهو من أصح مـا يحتج به فى تفضيل مكة على المدينة ، ولم يعلم بخروجه إلا أبو بكر وآله وعلىّ .

وروى أنهما خرجا من خوخة لأبى بكر فى ظهر بيته ليلا ، ولما فقدت قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم ، طلبوه بمكة أعلاها وأسفلها ، وبعثوا القافة أثره فى كل وجه ، فوجد الذى ذهب نحو ثور أثره هنالك ، فلم يزل يتبعه حتى انقطع به لما انتهى إلى ثور ، وقيل : اتبعه أيضا فى الجبل حتى بلغ فم الغار ، وقـال : هو فى الغـار ، فكذبوه البيضتين والحمامتين والنسج ، وقيل : لما وصل الغار قال : من هنا طلع إلى السماء ، وشق على قريش خروجه ، وجزعوا ، وجعلوا مائة ناقة لمن رده ، ولمـا دخل الغار أنبت الله على بابه راءة وهى من شجر السهل ، فحجبت عن الغار أعين الكفار ، وقيل : هى أم غيلان ، وعن أبى حنيفة تكون كقامة الإنسان ، زهرها أبيض يحشى به المخاد ، فيكون كالريش لخفته ولينه ، لأنه كالقطن .

ويروى أن الله سبحانه أمر العنكبوت فنسجت على وجه الغار ، وأرسل حمامتين وحشيتين باضتا فيه وعششتا ، ووقفتا بفمه ، وقيل : وقفت بفمه يمامة ، وذلك مما صد المشركين عن الغار ، قيل : حمام الحرم من نسل الحمامتين .

أقبل فتيان قريش من كل بطن بعصيهم وهراويهم وسيوفهم ، فجعل بعضهم ينظر فى الغار فلم ير إلا حمامتين وحشيتين بفم الغار فرجع

إلى أصحابه فقالوا به : مالك ؟ قال : رأيت حمامتين وحشيتين ، فعرفت أنه ليس فيه أحد ،وقال الآخر : ادخلوا الغار ، فقال أمية بن خلف : وما إربكم إلى الغار ، إن فيه لعنكبوتا أقدم من ميلاد محمد ، وقالوا : لـــو دخل الغار لتكسر البيض ، وتفسخ نسج العنكبوت •

وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : « اللهم أعم أبصـــارهم » فعميت عن دخوله ، وجعلوا يضربون يمينا وشمالا حول الغار ، وروى أن أبا بكر قال : يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لرآنا ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما ظنك باثنين الله ثالثهما » وروى أنأبا بكر قال : نظرت إلى قدمى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الغار وقد تقطرتا دما ، فبكيت بكاء شديدا وعلمت أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن يعود الحفاء والجفوة ، وروى أنه رأى ثقبا فى الغار فألقمه عقبه لئلا يخرج ما يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعلت الأفاعى والحيات تضربنه وتلسعنه ، فجعلت دموعه تتحدر ، ولما رأى القافة وسمع وقع حوافر دواب المشركين ، اشتد حزنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم وبكى ، فقال له : « ما يبكيك يا أبا بكر ؟ » فقال : إن قتلت فإنما أنا رجل واحد ، وإن قتلت أنت هلكت الأمة ، ولا يعبد الله بعدك ، فقال له رسول الله صلى الله عليه : « لا تحزن إن الله معنا » فجعل أبو بكر يمسح الدموع عن خده ، وكان أرق خلق الله ، وأحضرهم دموعا •

وكان حين خرجا إلى الغار ، تارة يمشى خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتارة أمامه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مالك يا أبا بكر ؟ » فقال : أذكر الطلب فأمشى خلفك ، ثم أذكر الرصد فأمشى بين يديك ، ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أبا بكر أن

يجعل تمامة فى باب الغار ، فجعلها فتخليها المشركون نابتة فانصرفوا ، وقيل : جعلها بيده •

والمشهور أن أنصرافهم عن الغار للحمامتين والبيضتين ونسج العنكبوت ، ونسجت العنكبوت أيضا على داود عليه السلام حين طلبه جالوت ، وعلى الغار الذى دخله عبد الله بن أنيس لما بعثه صلى الله عليه وسلم لقتل خالد بن نبيح الهذلى بالعرنة ، فقتله ثم حمل رأسه ودخل فى غار ، فجاء الطلب فلم يجدوا شيئا فانصرفوا راجعين ، وعلى عورة زيد بن الحسين بن على أبى طالب حين قتل وصلب عريانا ، فى سنة إحدى وعشرين ومائة •

وكان يبيت عندهما إذا كانا فى الغار : عبد الله بن أبى بكر وهو شاب ثقف أى ثابت المعرفة بما يحتاج إليه لقن ، أى سريع الفهم ، فيدلج من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة كبائت فلا يسمع أمرا يكادان به إلا خبرهما به ، يأتيهما حين يختلط الظلام ، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبى بكر منحة من غنم فيريحها عليهما بعد العشاء بساعة كل ليلة ، وكان أبو بكر رضى لله عنه ورسول الله صلى الله عليه وسلم استأجرا عبد الله بن أريقط الديلى ، وهو على دين قريش ، ولم يعرف له إسلام دليلا ، وهو ماهر فى الدلالة ، دفعا إليه راحلتيهما ووعداه غار ثور بعد ثلاث ليال ، فأتاهما براحلتيهما صبح الثالثة ، وانطلق معهما عامر بن فهيرة ، وأخذ بهم الدليل طريق الساحل ، ومروا بقديد على أم معبد عاتكة بنت خالد الخزاعية تسقى وتطعم من مر ، وكان القوم مسنتين ، فطلبوا لبنا ولحما يشترونه منها فلم يجدوا عندها شيئا ، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى شاة فى كسر الخيمة خلفها الجهد عن الغنم ، فسألها رسول

الله صلى الله عليه وسلم : « هل بها من لبن ؟ » فقالت : هى أجهد من ذلك ، فقال : « أتأذنين أن أحلبها » فقالت : نعم بأبى أنت وأمى ، إن رأيت بها حلبا فاحلبها ، فدعا بالشاة فاعتقلها ، ومسح ضرعها ، وسمى الله ففتحت ما بين رجليها ، ودرت ودعا بإناء يشبع الجماعة فحلب فيه سائلا ، وسقى القوم حتى رووا ، ثم شرب آخرا ، ثم حلب فيه وتركه عندها ، ولبثت قليلا .

وجاء زوجها أبو معبد أكتم بن أبى الجون ، ويقال ابن الجون يسوق أعنزا عجافا مخهن قليل ، فقال : أنى لك هذا يا أم معبد والشاء عازل حيال ولا حلوب فى البيت ؟ قالت : مر بنا رجل مبارك من حاله كذا وكذا ، فقال : صفيه يا أم معبد ، فقالت :

رأيت رجلا ظاهر الوضاءة ، وضىء الوجه ، حسن الخلق ، ليس بعظيم البطن ، ولا بريق الجسم ، عظيم الرأس ، حسن الوجه والأعضاء ، فى عينه سواد ، كثير شعر الجفن ، وفى صوته بحة ، شديد سواد العين وبياضها ، وسواد شعر الأجفان وغيرها ، دقيق طرف الحاجبين ، كادا يلتصقان ولم يلتصقا ، طويل العنق ، لا دقيق اللحية ولا طويلها ، وفيها كثافة ، فى سكوته وقار ، وفى كلامه بها يعلو أصحابه ، وكلماته كالدر ينحدر ، حلو المنطق ، كلامه فاصل بين الحق والباطل ، ولا يكثر كلامه ، ربعة القد ، يحف به رفقاؤه ، تبادرون لأمره ، غير عابس الوجه ، ولا يكثر اللوم .

فقال : هذا والله صاحب قريش ، لو رأيته لاتبعته .

قالت أسماء بنت أبى بكر : لما خفى علينا أمر رسول الله صلى الله

عليه وسلم ، أتانا نفر من قريش منهم أبو جهل ، فخرجت إليهم فقل : أين أبوك ؟ فقلت : والله لا أدرى أين أبى ، فلطم خدى لطمة خرج منها قرطى ، وكان فاحشا خبيثا ، ثم انصرفوا ، وأنشد رجل من الجن يسمع ولا يرى :

جَزَى الله رب الناس خير جزائه
رفيقين حلاّ خيمتى أم معبد

هما نزلا بالبرِّ ثم ترحَّلا
فأفْلح من أمسى رفيق محمد

فيالَ قُصىّ ما زوى الله عنكم
به من فعال لا تجارى وسؤدد

ليهنا بنى كعب مكان فتاتهم
ومقْعَدها للمؤمنين بمرصد

سلُوا أختكم عَن شاتها وإنائها
فإنكم إن تسألوا الشَّاة تَشهْد

دَعَاها بشاة حائل فتحلَّبت
له بصَريح ضرة الشَّاة مزبد

فغادَرَها دهنا لديها لحالب
يرددها فى مصدر ثم مورد

ولما سمع الناس قوله ، عرفنا حيث توجه ، والضرة لحمة الضرع فاعل تحلبت ، والأصل يا آل قصى فخفف بالحذف ، أو يكتب بلام متصلة

بالقاف ، وأسلمت أم معبد وزوجها بعد ذلك ، قالت : بقيت الشاة إلى خلافة عمر نحلبها صبوحاً وغبوقاً ، وما فى الأرض قليل ولا كثير .

وتعرض لهم بقديد سراقة بن مالك بن جشـعم ، فبكى أبو بكر وقال : يا رسول الله أتينا ، قال : « كلا » ودعا بدعوات فساخت قوائم فرسه ، وطلب الأمان فقال : أعلم أن قد دعوتما علىَّ فادْعُوا لى ، ولكما أن أردّ الناس عنكما ، فوقفا له ، فركب فرسه فجاءهما ، قال : ووقع فى نفسى حين لقيت ما لقيت أن سيظهر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبرتهما بأن قومهما جعلوا دية كل واحد منهما لمن قتله أو أسره ، وعرضت عليهما الزاد والمتاع ولم يأخذا شيئا .

وذكر سراقة : أنى بينما أنا جالس فى مجلس قومى بنى مدلج ، أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس ، فقال : يا سراقة إنى رأيت آنفا ، أشخاصا بالساحل أرهما محمداً وأصحابه ، فعرفت أنهم هم ، فقلت : ليسوا هم ، ولكنك رأيت فلانا وفلانا انطلقا بأعيننا ، ثم لبثت فى المجلس ساعة ، ثم قمت فدخلت ، فأمرت جاريتى أن تخرج بفرسى وتحبسها علىَّ وراء أكمة ، وأخذت رمحى ، فخرجت من ظهر البيت معتمدا على الرمح حتى وصـلت الأرض وأتيت فرسى فركبتهـا تغدو حتى دنوت منهم ، فعثرت بى فخررت عنها ، فقمت فأهويت بيدى إلى كنانتى ، فاستخرجت منها الأزلام واستقسمت بها أضرهم أم لا ، فخرج لا ، فركبت فرسى وعصيت الأزلام ، ودنوت حتى سمعت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو لا يلتفت ، وأبو بكر يلتفت مرارا ، وساخت يدا فرسى فى الأرض حتى بلغت الركبتين ، فخررت عنها ، ثم زجرتها فنهضت ، فلم تكد تخرج يديها ، فلمـا استوت قـائمة إذ

لأثر يديها غبار ساطع فى السماء كالدخان ، فرجعت للأزلام فخرج الذى أكره ، فناديتهم بالأمان ، فوقفوا إلى آخر ما مر .

وروى أنه ساخت يداها ثلاث مرات ، وقيل : سبعا ، وقال له : أخف عنا ما استطعت ، قال : فسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكتب لى كتاب أمن ، فأمر عامر بن فهيرة فكتب لى فى رقعة من جلد مدبوغ .

وروى أن أبا بكر التفت ، فإذا بفارس فقال : يا رسول الله هذا فارس قد لحق بنا ، فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :« اللهم اصرعه » فصرعه عن فرسه ، ثم قامت تحمحم وهو سراقة ، فقال : يا نبى الله مرنى بما شئت ، فقال : « قف مكانك لا تتركن أحدا يلحق بنا » فكان أول النهار جاهدا على نبى الله صلى الله عليه وسلم ، وآخره مسلحة له .

وفى رواية قال : يا محمد قد علمت أن هذا عملك فادع الله أن ينجنى مما أنا فيه ، فوالله لأعمين على من ورائى من الطلب ، وهذه كنانتى فخذ منها سهما فإنك ستمر على إبلى وغنمى بمكان كذا وكذا فخذ منها حاجتك ، فقال صلى الله عليه وسلم : « لا حاجة لى فى إبلك » ودعا له ، فانطلق راجعا لا يلقى أحدا إلا قال : كفيتم ما هنا ورده ، ولامه أبو جهل على رجوعه بلا شىء ، فقال سراقة مخاطبة له :

أبا حكم والله لو كنت شاهداً
لأمرى جوادى إذ تسوخ قوائمه
علمت ولم تشكك بأن محمداً
رسول ببرهان فمن ذا يقاومه

عـليك بكفّ القـوم عنـه فإننى
أرى أمره يومـا ستبدو معـالمه

بأمر يود النـاس فيـه بأسرهم
بأن جميع النـاس طـرأ يسالمه

وروى أن راعيا عرف خبرهما فأسرع إلى قريش يعلمهم ، فلما ورد مكة ضرب على قلبه فما يدرى ما يصنع ، وأنسى ما جاء له حتى رجع إلى موضعه .

ومرا بعبد يرعى غنما فاستسقياه اللبن ، فقال : ما عندى شاة تحلب ، غير أن هاهنا عناقا حملت عام أول فمـا بقى لها لبن ، فقـال : « ادع بها » فاعتقلها صلى الله عليه وسلم ، ومسح ضرعها ، ودعا حتى أنزلت ، وجاء أبو بكر بشىء كالترس ، يوضع على الرأس يقى من يمشى بين الشجر من الشوك يسمى المجن ، فحلب فسقى فيه أبا بكر ، ثم حلب فسقى الراعى ، ثم حلب فشرب ، فقال الراعى : بالله من أنت ، فوالله ما رأيت مثلك ؟ فقال : « أو تراك تكتم علىّ حتى أخبرك ؟ » قال : نعم ، قال : « إنى محمد رسول الله » فقال : أنت الذى تزعم قريش أنه صابىء ، قال : « إنهم ليقولون ذلك » قال : فأشهد أنك نبى ، وإنما جئت به حق ، وإنه لا يفعل ما فعلت إلا نبى وأنا متبعك ، قال : « إنك لن تستطع ذلك يومك فإذا بلغك أنى قد ظهرت فأتنا » .

ولقى الزبير فى ركب من المسلمين كانوا تجارا قافلين من الشام ، فكسى الزبيرُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر ثيابا بيضا ،

وكان الناس يعرفون أبا بكر ، ولا يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولون : من هذا ؟ فيقول : رجل يهدينى السبيل ، يعنى دين الله ، ويظنون أنه أراد الطريق فى الأرض ، أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بإخفاء أمره .

ولما سمع المسلمون بالمدينة خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة ، كانوا يغدون كل غداة إلى الحرة وهى الأرض التى يعلوها حجارة سود ينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة ، وكان الإسلام فيهم من البيعة التى بايعوه إياها فى الموسم ، وانقلبوا يوما بعد ما أطالوا الانتظار ، فلما آووا إلى بيوتهم ، أوفى رجل من اليهود على بناء رفيع لهم ، لأمر ينظر إليه ، فبصر برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ذوى ثياب بيض ، يزول بهم السراب ، فلم يملك اليهودى نفسه فنادى بأعلى صوته : يا بنى قيلة وهم الأوس والخزرج ، هذا جدكم أى حظكم ومطلوبكم قد أقبل ، وقيل قال : يا معشر العرب هذا جدكم الذى تنتظرونه ، فخرجوا سراعا بسلاحهم ، فتلقوه صلى الله عليه وسلم بظهر الحرة يعدل بهم ذات اليمين ، حتى نزل بهم فى بنى عمرو بن عوف بقباء .

وقام أبو بكر للناس ، وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم صامتا ، فطفق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله صلى الله عليه وسلم يحيى أبا بكر ، حتى أصابت الشمس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه ، فعرف الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك ، وإنما كانت الغمامة والملائكة تظلله قبل البعثة .

وقدم فى أول يوم من ربيع الأول ، وقيل : ليلتين منه ، وقيل :

لاثنتى عشرة منه يوم الاثنين وهو صحيح ، وقيل : لثلاث عشرة ، ويجمع بين هذين بالاختلاف فى رؤية الهلال ، وقيل لاثنتين وعشرين .

قال ابن حزم : خرجا من مكة ، وقد بقى من صفر ثلاث ليال ، وأقام علىّ بمكة بعد مخرج النبى صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام ، ثم أدركه بقباء يوم الاثنين سابع ربيع الأول ، وقيل : ثامن عشرة ، وأقام مع النبى صلى الله عليه وسلم ليلة أو ليلتين ، وأمر صلى الله عليه وسلم بالتاريخ فكتب من حين الهجرة .

وقيل : إن أول من أرخ عمر ، وجعله من المحرم ، وأقام صلى الله عليه وسلم بقباء فى بنى عمرو بن عوف اثنين وعشرين يوما ، وقيل : أربعة عشر يوما ، وقيل : يوم الاثنين والأربعاء والخميس ، وأسس مسجد قباء الذى أسس على التقوى ، وهو أول مسجد بنى فى الإسلام ، وأول مسجد صلى فيه صلى الله عليه وسلم بأصحابه جماعة ظاهرا ، وأول مسجد بنى لجماعة المسلمين عامة ، وأما ما تقدمه من المساجد فلخصوص بانيه ، مثل الذى بناه أبو بكر بفناء داره ، وذلك أن الدين أسرع فى أهل أبى بكر كما قالت عائشة : لم أعقل أبوى إلا وهما يدينان الدين ، أى يعتقدانه ويخضعان له ، ولم يمر علينا [يوم] إلا أتانا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بكرة وعشية ، طرفى النهار .

وضيق المشركون على المؤمنين ، فخرج أبو بكر نحو أرض الحبشة ، حتى بلغ برك الغماد ، وهو موضع بخمسة ليال من مكة مما يلى ساحل البحر إلى المدينة من بلاد غفار ، وقيل : قليب ماء لبنى ثعلبة ، لقبه ابن الدغنة وهو سيد القارة فقال : أين تريد يا أبا بكر ؟ فقال : أخرجنى قومى ،

فأريد أن أسيح فى الأرض فأعبد ربى ، فقال : مثلك يا أبا بكر لا يُخرَج ، إنك تكسب المعدوم بضم التاء على حذف مفعول ، أى تملك الشىء المعدوم من لا يملكه أو بفتحها ، أى تحصل بكسبك ما عدمه الناس ، وتصل الرحم ، وتحمل الكل ، ، أى المنقطع أو ما يثقل من حقوق الناس ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، أى مثل الَدية وسائر المغارم ، فأنا لك جار ، أى ناصر وحافظ ، فارجع واعبد ربك ببلدك ، فرجع مع ابن الدغنة بفتح الدال المهملة وكسر الغين المعجمة وتخفيف النون ، وأطاف فى أشراف قريش وقال : إن أبا بكر لا يُخرَج مثله ، أتخرجون رجلا يكسب المعدوم ، ويصل الرحم ، ويحمل الكل ، ويقرى الضيف ، ويعين على نوابب ، الحق .

فأنفذت قريش جواره وأمنوا أبا بكر و قالوا له : مُرْه يعبد ربه فى داره ويصلى ويقرأ ما شاء ولا يؤذينا بذلك ، ولا يعلن فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا ، فقال لأبى بكر ذلك ففعل ، ثم بدا له فابتنى مسجدا بفناء داره ، وكان يصلى فيه ، وينتصب فيه أبناء المشركين ونساؤهم يعجون منه ، وكان لا يملك عينيه من البكاء إذا قرأ القرآن ، فأتوه فقالوا : إنه قد ظهر أمره وكرهنا هو أن يحقرك ، فيرد لك جوارك ، فأتاه فقال له : أخف أمرك أو رد إلىّ جوارى ، فإنى لا أحب أن تسمع العرب أنى حقرت فى رجل عقدت له ، قال أبو بكر : فإنى رددت إليك جوارك ، وأرضى بجوار الله .

وأراد الخروج من مكة ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اصبر فلعل الله يسهل فى الصحبة ، وإنى أرجو أن يؤذن لى فى الهجرة ،

وقد رأيت دار هجرتكم حرة سبخة ، ذات نخل بين لابتين » أى جبلين فقال له : هل ترجو ذلك يا رسول الله بأبى أنت وأمى ؟ قال : « نعم » فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلف راحلتين كانتا عنده من ورق السمر أربعة أشهر ، فخرج إلى الغار معه ، ثم خرجا منه حتى نزلا ببنى عمرو بن عوف فى قباء ، على حد ما مر .

وخرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من قباء يوم الجمعة حين ارتفع النهار ، فأدركتهما الجمعة فى بنى سالم بن عوف ، فصلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن كان معه من المسلمين وهم مائة فى بطن رانوناء ، براء ونونين ومد بوزن عاشوراء ، فيسمى مسجد الغيب ، ومسجد الجمعة ، وهو صغير ، بنى بحجارة قدر نصف القامة ، وهو يمين السالك إلى قباء ، وركب منه على راحلته إلى المدينة ، قال أنس : وهو مردف أبا بكر قال : وأبو بكر شيخ يُعرَف والنبى صلى الله عليه وسلم غير شيخ ولا يعرف ، وقال صلى الله عليه وسلم لأبى بكر : « اله الناس عنى » فيلقاه الرجل فيقول : يا أبا بكر من هذا الذى بين يديك ، فيقول رجل يهدينى السبيل ، يريد سبيل الخير ، ويحسبون أنه أراد الطريق ، ويلقاه الرجل فيقول : من أنت ؟ فيقول : باغى حاجة ، فإذا قيل : من هذا معك ؟ قال : هذا يهدينى السبيل ، وكان فيهم من يعرف أبا بكر لأنه مر بهم مسافر إلى الشام .

وذكر بعضهم : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أسن من أبى بكر ، لكنه لم يشب يومئذ ، ولم يكن من الذين هاجروا أشمط غير أبى بكر ، وكان صلى الله عليه وسلم كل ما مر على دار من دور الأنصار يدعونه إلى المقام عندهم : يا رسول الله هلمَّ إلى القوة والمنعة ، فيقول :

« خلوا سبيلها ، يعنى ناقته ، فإنها مأمورة » وقد أرخى زمامها وما يحركها ، وهى تنظر يمينا وشمالا ، حتى إذا أتت دار مالك بن النجار ، بركت على باب المسجد ، وهو يومئذ مربد ، أى منشر للتمر ، وهو لسهل أو سهيل ابنى رافع بن عمرو ، وهما يتيمان فى حجر معاذ بن عفراء ، أو سعد بن ذرارة وهو الصحيح ، ثم ثارت ورسول الله صلى الله عليه وسلم عليها ، حتى بركت على باب أبى أيوب الأنصارى ، ثم ثارت منه ورجعت خلفها ، وبركت فى مبركها الأول ، وألقت جرانها بالأرض ، أى باطن عنقها أو مقدمه ، وصوتت من غير أن تفتح فاها ، ونزل عنها ، صلى الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : « هذا المنزل إن شاء الله » واحتمل أبو أيوب رحله وأدخله بيته ، ومعه زيد بن حارثة ، وكان دار بنى النجار أوسط دور الأنصار وأفضلهم ، وهم أخوال عبد المطلب ، جد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واسم أمه سلمى بنت عمرو .

روى أنه لما مر بهم قالوا : يا رسول الله هلمّ إلى أخوالك ، إلى العدد والعدّة والمنفعة ، قال : « خلوا سبيلها فإنها مأمورة » فانطلقت حتى أتت دار بنى مالك بن النجار على حد ما مر ، وكان أبو أيوب فى العلو ، ولما خلا بامرأته قال لها : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحق بالعلو منا ، تنزل عليه الملائكة والوحى ، فما بات تلك الليلة ولا امرأته ، فلما أصبح قال : ما بت الليلة أنا ولا أم أيوب ، قال : « لِمَ يا أبا أيوب ؟ » قلت : كنت أحق بالعلو منا ، تنزل عليك الملائكة والوحى ، والذى بعثك بالحق لا أعلو سقيفة أنت تحتها أبدا .

وهذا البيت الذى لأبى أيوب بناه تبّع الأول للنبى صلى الله عليه

وسلم بالمدينة ، وترك فيها أربعمائة عالم ، وكتب كتابا للنبى صلى الله عليه وسلم ، ودفعه إلى كبيرهم ، وسأله أن يدفعه للنبى صلى الله عليه وسلم ، فتداول الدار الملاك إلى أن صارت لأبى أيوب ، قيل : وهو من ولد ذلك العالم قبل ، وأهل المدينة الذين نصروه صلى الله عليه وسلم من ولد أولئك العلماء ، وعلى هذا فقد نزل فى منزل نفسه ، وسيأتى إن شاء الله بعض كلام فى أمر تبع .

وبنى صلى الله عليه وسلم مساكنه ومسجده ، وعمل فيه بنفسه مع المهاجرين والأنصار ، ودخل عمار بن ياسر وقد أثقلوه باللبن ، فقال : يا رسول الله قتلونى يحملون علىّ ما لا يحملون ، قالت أم سلمة رضى الله عنها : فنفض وفرته بيده ، وهو يقول : « ويح ابن سمية ليسوا بالذين يقتلونك ، إنما تقتلك الفئة الباغية » وقتله أصحاب علىّ وهو مع من أنكر الحكومة .

وقد اشتهر أن ذوات الخدور طلعن على السطوح والولدان والإيماء تلقوه وكلٌ يقول :

طلعَ البدرُ علينا
من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا
ما دعا لله داع

عند قدومه المدينة صلى الله عليه وسلم ، وتقدم أن هذا عند مرجعة من تبوك ، وأن ثنية الوداع من جهة الشام ، قيل : ويحتمل أن تكون

الثنية التى من كل جهة يصل إليها المشيعون يسمى ثنية الوداع ، وسميت ثنية الوداع لأن المسافر يشيع إليها ويودع عندها قديما ، كما يدل عليه البيت السابق ، وقيل : لأنهم يشيعون الحاج والغازى إليها ، ويودعونه عندها ، وقيل : لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم شيع إليها بعض سراياه فودعها عندها ، وقيل : ودع بها بعض المقيمين بالمدنة فى بعض أسفاره ، ولما نزلت الناقة فى باب أبى أيوب خرج من جوار بنى النجار بالدفوف ويقلن :

نحن جوار من بنى النجـــــار
يا حبذا محمداً من جـــــار

فقال صلى الله عليه وسلم : « أتحببننى » قلن : نعم يا رسول الله ، فقال : « الله يعلم أن قلبى يحبكم » وتفرق الغلمان والخدم فى الطرق ينادون : جاء محمد ، جاء رسول الله ، ولما قدم المدينة أرسل عليا ، وقيل : زيد بن حارثة ، وأبا رافع مولاه ، وأرسل أبو بكر ابن أريقط فجاءوا بأهليهما .

(واللهُ عَزيزٌ) فلا يغلب من أراد أن يكون غالبا (حَكيمٌ) فى أمره كله .

(انفِرُوا خِفافاً) بنشاط أو قلة عيال ، أو لركوب أو إقـــلال سلاح ، أو لصحة أو شباب ، أو فقر أو عدم ضيعة مشغلة ، أو لعزية أو قلة حاشية وأتباع ، أو لمبادرة الخروج بلا ترو ولا استعداد ، أو لعدم شغل ، أو لشجاعة ونحو ذلك مما يمكن به السفر بسهولة (وثِقالاً)

لعكس ذلك ، ويجوز دخول الغنى بالخفة نظرا إلى أن الغنى تسهل له مؤنة التجهيز والفقر فى الثقل ، ودخول الرجولة فى الخفة ، والركوب فى الثقل ، لأن الراكب يتجهز لمركوبه ولنفسه جميعا ، ودخول الجبان فى الخفة نظرا إلى أن الجبان هين عند العدو ، والشجاعة فى الثقل نظرا إلى شدتها عنـــده .

والمراد : انفروا على أى حال كنتم ، شهد أبو أيوب الأنصـــارى المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يتخلف بعد موته عن غزوة ، فقيل له فى ذلك فقال : سمعت الله سبحانه وتعالى يقول : « انفروا خفافا وثقالا » ولا أجدنى إلا خفيفا أو ثقيلا ، قال أبو طلحة : ما أسمع الله عذر أحد ، وخرج إلى الشام فجاهد حتى مات .

وذكر الطبرى ، عن بعض : أنه رأى المقداد بن الأسود بحمص وهو على تابوت صراف ، وقد فضل على التابوت من سمنه وهو يتجهز للغزو فقيل له : لقد عذرك الله ، فقال : أبت علينا سورة البعوث « انفروا خفافا وثقالا » وروى سورة البحوث ، قال صفوان بن عمرو : وكنت واليا على حمص ، فلقيت شيخا قد سقط حاجباه على عينيه ، وأهل دمشق على راحلة يريد الغزو ، فقلت : يا عـــم أنت معذور عنـــد الله ، فرفع حاجبيه فقـــال : يا ابن أخى استنفرنا الله خفافا وثقالا ، إلا أنـــه من يحبه يبتليه .

وخرج سعيد بن المسيب وقد ذهبت إحدى عينيه فقيل له : إنك عليل ، فقال : استنفر الله الخفيف والثقيل ، فإن لـــم يكن القتـــال فكثرة السواد ، وخفض المتاع ، قال الحسن وعكرمة : ذلك فرض عين ، ثم نسخ

بقوله سبحانه وتعالى : « وما كان المؤمنون لينفروا كافة » وهو رواية عن ابن عباس رضى الله عنهما .

وقال السدى : نسخت بقوله : « ليس على الضعفاء ولا على المرضى » الآية ، وقال ابن أم مكتوم لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أعلىّ أن أنفر ؟ فقال : « نعم » حتى نزل : « ليس على الأعمى حرج » وقال جار الله : الأمر هنا ندب بالنظر إلى الأعيان ، والنفر فرض كفاية ، ولم يدخل فيه من لا يمكن غزوه كالعمى ، فضلا عن أن ينسخ ، وقد خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الغزوة النساء ، وبعض الرجال فى المدينة .

وقيل : المراد انفروا إذا نفر النبى صلى الله عليه وسلم ، وقيل : انفروا إذا استغفرتم عند الخوف الشديد ، ودهمكم الأمر من العدو ، وصيح فيكم بالنفير .

(وجاهِدُوا بأموالكُم وأنفُسِكم) بما أمكن من ذلك ، فالقوى الذى له مال يجاهد بنفسه وماله ، ومن له مالٌ وهو ضعيف لمرض أو غيره ، أو لا يصلح للقتال يجاهد بماله ، بأن يعطى منه ويجهز به من يجاهد بنفسه فقط لفقره ، وقيل : ذلك وصف لأكمل ما يكون فى الجهاد وأنفعه عند الله ، بأن يكون بالنفس والمال معا ، وقد ذكر الأموال لأنها أول مصرف وقت التجهز .

(فى سَبيلِ الله ذلكُم خيرٌ لكم) من تركه أو ذلك منفعة لكم تفوزون بها (إنْ كنْتُم تعلَمونَ) الأفضل أو المنفعة ، وإنما صح

وجه التفضيل بالنظر إلى أن قعودهم عن الجهاد تستحسنه أيضا طباعهم ، وجواب إن دل عليه ما قبلها ، بيانه أن ذلك يكون خيرا لهم بالنظر إليهم إن كانوا يعلمون الخير ، وإلا فلا يكون خيرا ، ولو كان فى الحقيقة خيرا ، أو عبر عن العمل بسببه وملزومه وهو العلم ، فالمراد أن ذلكم خير لكم إن علمتم ، هذا ما ظهر لى ، وقال القاضى : إن كنتم تعلمون الخير علمتم أنه خير أو كنتم تعلمون أنه خير إذا أخبر به صادق فبادروا إليه ، وذلك فى شأن غزوة تبوك ، وهى آخر غزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت فى حر شديد ، وقت طيب الثمار ، وعسرة فى الناس ، فجعل المنافقون يستأذنونه فى القعود ويعتبون ، فمن صاحب علة ، ومن لا علة له ، حتى قالوا : استأذنوه واقعدوا ، وإن لم يأذن لكم ولا سيما لقبائل مجاورة للمدينة ، وكانوا يهابون غزو الروم بضعف إيمانهم وعدمه ، وأما المؤمنون فيرون جهاد الروم كقتل حية .

(لَوْ كَانَ) الجهاد المأمورون هم به (عَرَضًا) نفعا دنيويا ، فإن الدنيا بما فيها شىء عارض لا يدوم ، وفى الحديث : « الدنيا عرض حاضر يأكل منه البر والفاجر » (قَرِيباً) سهل التناول ، ويجوز عندى أن يكون المعنى عرضا قريب الفناء ، أو غير بعيد المرتبة والشأن ، وذلك نفع مستطرد فى منافع الدنيا .

(وسَفَراً قَاصِداً) متوسطا وقيل هين يسير (لاتَّبَعُوكَ) إلى تبوك لذلك العرض لا لله (ولَكِنْ بَعُدَتْ) وقرأ عيسى بن عمرو ، والأعرج بكسر العين ، وقال أبو حاتم : موافقة تميم (عَلَيهِمُ الشُّقَّةُ) وقرأ عيسى بن عمرو بكسر الشين ، قال أبو حاتم : تميم هو لغة وهى المسافة التى تقطع بمشقة .

(وسَيَحْلِفُونَ باللهِ) إذا رجعت من تبوك معتذرين ، والباء متعلق بيحلف ، لو استطعنا خروجا لخرجنا معكم ، ولكن منعنا عدم قوة البدن ، وعدم العدة ، وهذا إخبار بغيب ، والجواب للو وشرطها وجوابها جواب ليحلف ، لا كما قال جار الله ، والقاضى : إن لخرجنا ساد مسد جوابى القسم والشرط ، ولا يحتاج إلى تقدير القول ، ويجوز أن يكون بالله قسما من كلامهم ، فيعلق بمحذوف ، فحينئذ يضمن يحلف المذكور معنى القول ، أو يقدر القول أى يقولون بالله .

(لو استَطَعْنا لخرجْنَا مَعَكم) وذلك ما ظهر لى وهو صحيح إن شاء الله ، وقال جار الله : يقدر القول على الوجهين ، أى سيحلفون بالله يقولون : لو استطعنا ، أو سيحلفون يقولون : بالله لو استطعنا ، قال أبو الفتح : قرأ الأعمش بضم واو لو تشبيها بواو الجماعة المفتوح ما قبلها ، المسكن ما بعدها ، فتمنوا الموت ، واشتروا الضلالة .

(يُهْلِكُون أنفُسَهم) باليمين الفاجرة ، كما ورد فى الحديث : « إنها تذر الديار بلاقع وإنها تورث النار » والجملة بدل من يحلفون أو حال من واوه ، أو من الضمير فى لخرجنا ، وعلى الأخير فأصل الكلام لخرجنا معكم ونحن مهلكون أنفسنا بالشقة ، أى لخرجنا معك صابرين على ذلك ، وجىء بلفظ الغيبة .

(واللهُ يعلَم إنَّهم لكَاذِبُون) فى ادعاء الاستطاعة ، قيل هم تسعة وثلاثون رجلا .

(عَفَا اللهُ عَنْك) كناية عن أنه فعل ما ينبغى أن لا يفعله وهو الإذن لهم فى القعود ، كما بينه بقوله : (لِمَ أذِنْتَ لَهم) وهـذا

عتاب وزجر عن المعاودة بعد العفو ، وذلك عتاب على ترك الأولى لا ذنب ، وذلك من اللطف والإكرام بمكان ، بدأ بالعفو قبل ذكر ما عنه العفو ، وقال عمرو بن ميمون الأودى : صدع رسول الله صلى الله عليه وسلم برأيه فى قضيتين دون أن يؤمر فيهما بشىء : هذه وأمر أسارى بدر فى الفداء ، فعاتبه الله فيهما .

وليس العتاب بعد حصول العفو مستحيلا ، بل مستعمل كثير ، وفائدته تأكيد الزجر والتوقيف على عين لا عن العفو ، كما يعاتب السعيد يوم القيامة ، وقد بشر فى قبره أو عند موته بالجنة ، ذلك هو الذى ظهر لى .

قال الشيخ هود رحمه الله ، وجار الله ، والقاضى ما حاصله : إن العفو كناية عن أنه لم يصب فى الإذن ، وأن العفو إنما يكون عن ذنب ، وهو من روادف ذلك ، ولا بأس بذلك ، لأن المراد أن إذنه ولو كان غير ذنب لكنه كالذنب فى حقه صلى الله عليه وسلم ، بل جوز بعضهم الصغائر فى حق الأنبياء ، وقال السعد : أجاز الكثيرون الصغائر على الأنبياء سهوا منهم عليهم السلام ، ولكن فى عبارة جار الله خشونة ، إذ قال : أخطأت وبئس ما فعلت ، وما كان يحسن له أن يعبر بذلك ، وقد راعى الله سبحانه وتعالى مخافته ووقاره بتقديم العفو ، وذكر الإذن المنبىء عن علو المرتبة ، وقوة التصرف ، وأراد الكلام فى صورة الاستفهام ، وإن كان القصد إلى الإنكار .

وقيل : قوله : « عفا الله عنك » استفتاح كلام بخير ، كما تقول : أعزك الله ، وأصلحك الله ما فعلت فى أمرى ، ولا ذنب هناك ، أو فيه

ترك الأولى ، وفى حديث : « عفا الله لكم عن صدقة الخيل والرقيق » مع أنه لم تلزم صدقة فيهما قط ، بل قال القشيرى : إنما يقول : إن العفو ولا يكون إلا عن ذنب ، ولم يعرف كلام العرب ، وإن معنى : « عفا الله عنك » لم يلزمك ذنب ، كما يقال : لا بأس عليك .

وقيل : المعنى عافاك الله ، وقيل : أدام لك العفو كيف يكون إذنه ذنبا ، مع أن ذلك من جنس ما يتعلق إلى اجتهاده فى الحروب ومصالح الدنيا ، قيل : ومع أن الله سبحانه وتعالى قد قال له : « فأذن لمن شئت منهم » قلت : بل قال هذا فى المؤمنين ، وآية هذه السورة فى المنافقين .

(حتَّى يتبيَّنَ) متعلق بمحذوف ، أى هلا توقفت حتى يتبين ، ويجوز أن يكون المراد الزجر عن معاودة مثل ذلك فيقدر لا تأذن لهم (لَكَ الَّذينَ صدقُوا) فى اعتذار (وتَعْلم الكَاذِبينَ) فيه ، والفريقان منافقون ، وقيل : مختلطون ، والصادقون مؤمنون وهو ضعيف ، بل يجوز ألا يكون فيهم صادق فى اعتذاره أصلا ، ولكن أتى الله بذلك الكلام تتميما للعتاب ، كأنه قال : لم أذنت لهم قبل تبين الصادق لو كان فيهم والكاذب ، وقيل : الذين صدقوا فى أنهم لو لم تأذن لهم لخرجوا معك ، والكاذبين لأنهم لا يعرجون ولو لم تأذن لهم ، وفى كتاب الناسخ والمنسوخ إن قوله سبحانه وتعالى : « عفا الله عنك لم أذنت لهم » منسوخ بقوله : « فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم » بل قيل : إن الآيات الثلاث إلى « يترددون » منسوخات به ، وهو إلى ما يتأتى على قول قتادة : أن آية النور نزلت بعد هذه ، ورد بأن آية

النور نزلت سنة أربع من الهجرة فى غزوة الخندق ، فى استئذان بعض المؤمنين رسول الله صلى الله عليه وسلم قيل : هو عمر .

(لا يَسْتَأذِنُكَ) نفى للاستمرار أو استمرار للنفى (الَّذِينَ يؤمِنُونَ بالله واليَوْمِ الآخِرِ) فى (أن يُجاهِدُوا بأموالهم وأنفُسِهِم) الاستئذان إرادة جهاد ، والاستئذان إرادة تخلف عن الجهاد ، بل عادتهم أنهم يمضون فيه بإذنى ، أمر أو تلويح به بما استطاعوا ؛ أو لا يستأذنونك فى التخلف كراهة أن يجاهدوا أو لا يستأذنونك كراهة أن يجاهدوا ، بل إذا استأذنوك فلعذر ، والأول هو قول سيبويه وهو أصح ، بل كان المخلص من المهاجرين والأنصار يقولون : ألا نستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم أبدا ، ولنجاهدن معه بأموالنا وأنفسنا .

(والله عليم بالمتَّقين) شهادة لهم بالتقوى ، ووعد بالثواب الجزيل من حيث إن مقتضى علمه يعمل هو الثواب أو العقاب ، ويتضمن تغييرا للمنافقين وطعنا عليهم ، والمراد بالاتقاء اتقاء المخالفة بأمر الله .

(إنَّمـا يستَأذِنكَ) فى التخلف (الَّذينَ لا يؤمِنُون بالله واليومِ الآخِرِ) خص الإيمان بالله واليوم الآخر فى الآيتين فى الذكر ، إشعارا لأن الباعث على الجهاد الإيمان بهما ، والكاف عنه عدم الإيمان بهما (وارْتَابَتْ) شكت قلوبهم فى أمر الإيمان ، تارة يتخيل لهم صحة أمر النبى صلى الله عليه وسلم ، وتارة يتخيل أنه غير صحيح ، والعطف على لا يؤمنون ، وقيل كانوا موقنين ، ولكن شكوا أن لا يعذبهم الله بالتخلف عنه وهو ضعيف لقوله سبحانه وتعالى : « لا يؤمنون بالله واليوم

الآخر » اللهم إلا أن يقال : شكهم فى ذلك ناقض لإيمانهم ، أو أراد نفى الإيمان الكامل (فَهم فى رَيْبهِم يترددُونَ) يتحيرون •

(ولَوْ أرادُوا الخُروجَ) معك إلى الغزو ، ويكتب « ولو أرادوا » إلى « القاعدين » بالآبق والهارب والسارق فى قضارة ثوب كتان مقصورة أول الشهر ، واسمه مع أمه حول ذلك ، ويضرب فى وفق القوارة بمسمار حديد ، حيث لا يرى ، ويغطيها بتراب ، يرجع •

(لأعدُّوا) هيئوا (لَه) للخروج (عُدّةً) أهبة من آلات السفر والقتال ، وقرىء بكسر العين كسدرة ، وقرأ محمد بن عبد الملك بن مروان وابنه معاوية : عده ، بضم العين وبهاء الإضمار دون تاء التأنيث ، والهاء ضمير الخروج ، فقال الفراء : الأصل عدته ، حذفت التاء إذ أضيف ، كما يجوز حذف تاء الفعلة بكسر فإسكان من واوى الفاء الذى من باب وعد ، وتاء الأفعال والاستفعال بالكسر من معد العين كالإقامة والاستعاذة عند الإضافة ، وضعفه أبو الفتح بأنه إنما حذف تاء التأنيث ، وعوضها هاء الضمير •

قلت : هذا مراد الفراء وكلامه قابل له ، فكيف يرد به عليه ، وقال أبو حاتم : جمع عدة كغُرفة وغُرف وبرة وبُر ودرة ودر ، وقرأ عاصم فيما روى عنه إبان وزرُّ حبيش بكسر العين وهاء إضمار وهو أمام جمع عدة بالكسر ككلمة وكلم ، بكسر الكاف وإسكان اللام فيهما ، إما مفرد حذفت تاؤه ، وإما بمعنى ما يعد كالذبح بكسر الذال بمعنى ما يذبح •

(ولكن كَرِه اللهُ انبعاثَهم) خروجهم إلى الغزو ، لأنهم يكونون

عيونا على المؤمنين وينمّون بينهم ، والاستدراك راجع إلى النفى الذى دلت عليه لو الامتناعية ، فإن الامتناع نفى كأنه قيل : ما أرادوا الخروج ، ونفى إرادة الخروج نفى للخروج ، فكأنه قيل : ما خرجوا ، ولكن منعهم عن الخروج كما قال •

(فثبّطهم) أى حبسهم بالجبن والكسل ، فإن كراهة الله خروجهم تستلزم منعهم عنه إذ لا يغلب تعالى على ما يكره ، وقال الصفاقصى : أصل لكن أن تقع بين نقيضين أو ضدين أو خلافين على خلاف فيه (وقيلَ) أى قال الله عز وجل (اقعُدوا) عن الخروج مع (القاعدينَ) النساء والصبيان والزَّمْنى ونحوهم من المعذورين ، ولا يخفى ما فى إلحاقهم بهؤلاء من الذم ، وإن أريد بالقاعدين من قعد سواهم وليس معذورا أيضا ففيه ذم أيضا وتهديد ، كأنه قيل : اقعدوا مع هؤلاء البطالين الذين لا يعرفون مصالحهم ، ولا منفعة فيهم أولى لهم فأولى •

ومعنى قول الله سبحانه : « اقعدوا » إلقاؤه محبة القعود فى قلوبهم إلقاء مترتبا على أعمالهم واعتقادهم ، لا جبرا أو قضاءه عليهم فى الأزل بالقعود ، وقيل : القائل لهم إبليس والعياذ بالله منه ، والقول وسوسته ، وقيل : قال بعضهم لبعض : اقعدوا ، وقيل : المراد إذن رسول الله لهم بالقعود ، قال بعضهم : أذن لهم غضبا فاغتنموه منه ، والعطف على ثبّط المسبب عن الكراهة ، فالمعطوف أيضا مسبب كأنه قيل : لكراهته أو قضائه ألقى محبة القعود فيهم ، أو أخذ لهم فأثرت فيهم وسوسة إبليس ، أو أثر قول بعضهم لبعض ، أو يسر قول الرسول لهم اقعدوا ، ويجوز أيضا كون الواو للحال إذا فسر القول بالقضاء •

(لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ) فى جملتكم أو معكم حال من الواو (ما زادُوكُمْ إلاَّ خَبَالاً) أى فسادا وشراكا إيقاع الجبن ، وتهويل الأمر ، وأصل الخبال مرض يؤثر فى العقل كالجنون ، والاستثناء متصل ، أى مازادوكم شيئا إلا الخبال ، والخبال من جنس الشىء لا منفصل ، لأن الاستثناء المنفصل لا يكون مفرغا كذا حفظنا فى كتب النحو وهو الصحيح ، ثم رأيت القاضى ذكره أخذا من كلام جار الله .

وقال بعض : إنه منفصل أى مازادكم خيرا أو قوة ولا شدة ، لكن خبالا ، وذكر بعضهم أن فى تلك الغزوة منافقين كثيرين ، ولهم خبال ، ولو خرج الباقون ازدادوا خبالا ، والاستثناء أيضا متصل ، لأن الشىء المقدر على أنه لا منافق فيهم فى تلك الغزوة كالمقدر ، على أن فيهم منافقين عام اللغط ، وقرأ ابن أبى عبلة ما زادكم بإسقاط الواو وفتح الدال ، أى ما زادكم خروجهم .

(ولأوْضَعُوا) أسرعوا ركائبهم بالنميمة والهزيمة ، والأحاديث الكاذبة ، وحذف المفعول لأن الغرض الإخبار بإيقاع نحو النميمة بسرعة ، لا كونها بركائب ، واللام هى الواقعة فى جواب لو ، وإنما وقعت هنا لأنه معطوف على جوابها ، ولم يقرن جوابها لأن الأفصح أن لا يقرن بها إذا تصدر بما النافية ، ويوجد فى المصاحف لا أوضعوا بزيادة ألف مع اللام قبل الهمزة ، ووجهها أن الفتحة كانت قبل الخط العربى تكتب ألفا ، والخط العربى اخترع قريبا من نزول القرآن ، وقد بقى من ذلك الألف أثر فى الطباع ، فكتبوا صورة الهمزة ألفا وفتحها ألفا أخرى ونحوه : أو لأذبحنه .

قال جار الله : قلت : لا نسلم أنه مخترع قريبا من نزول القرآن قبل ذلك ، لخشونة هجاء الأولين ، قال الزجاج : إنما وقعوا فى ذلك ، لأن الفتحة بالعبرانية ، وكثير أمر الألسن تكتب ألفا ، ويمكن أن يمطل حركة اللام فتحدث ألف .

قال أبو بكر بن عبد الغنى : المشتهر باللبيب فى شرح عقيدة الشاطبية ، قال أبو داود : رسموا « لا إلى الله تحشرون » فى آل عمران ، « ولا إلى الجحيم فى الصافات » « ولا أوضعوا » فى التوبة ، « ولا أذبحنه » فى النمل بالألف إلا عطاء بن يسار فإنه لم يكتب الألف فى التوبة ، فعلى قول أصحاب المصاحف : أن المزيد هو المنفصل عن اللام ، والهمزة هى المتصلة باللام ، فقيل : هى صورة لفتحة الهمزة من حيث إن الفتحة مأخوذة منها وإن الإعراب قد يكون بهما ، وقيل : إنها نفس الحركة لا صورة لها ، ولم تكن العرب تشكل ولا تنقط ، وكانوا يصورون الفتحة ألفا ، والكسرة ياء ، والضمة واوا إذا أرادوا البيان ، ويفرقون بزيادة حروف كواو عمرو جرا ورفعا ، فارقة بنيه وبين عمرو ، وواو أولى الفارقة بينه وبين ألى ، وياء أيدى الفارقة بين القوة وأيدى الأبدان ، والألف فى مائة فرقا بينها وبين مئة ، وبقيت أشياء لم تغير عن تلك القاعدة .

وقيل : الألف دليل على إشباع فتحة الهمزة وتعطيلها فى اللفظ لخفاء الهمزة ، وبعد مخرجها فرقا بين ما يحقق من الحركات وما يختلس ، وليس ذلك مولدا للحرف ، بل إتمام صورة الحركة ، وقيل : الألف تقوية للهمزة وبيان لها لخفائها ، والحرف الذى تقوى به قد يتقدم وقد يتأخر ؛

وعلى قول الفراء ، وأحمد بن يحيى وغيرهما من النحاة : أن الزائد المتصلة باللام ، والمنفصل همزة فزيادتها دلالة على إشباع فتحة اللام أعنى تخفيفها ، وتقوية للهمزة وتأكيد لبيانها ، وخصت الألف لأن الهمزة المبدوء بها تصور ألفا بأى حركة ، وبعد أى حركة وقعت . انتهى بتصرف .

(خِلاَلَكُم) ظرف مكان ، أى بينكم ، وقال الزجاج : معناه فيما يخل بينكم ، ولا يصح هذا فى : « فجاسوا خلال الديار » ولكنه فسر الواقع ، وقرأ مجاهد : ولأوفضوا أى أسرعوا رواه النقاش ، وحكى عن الزبير أنه قرأ : ولأوقصوا يقال أوقص البعير أسرع فى مشيه .

(يَبْغُونَكُم الفِتْنَةَ) مفعول ثان ليبغى لتضمين معنى ما يتعدى لاثنين ، أى يلبسونكم الفتنة من ألبسه ثوبا إلباسا ، أى يجعلونكم لا بسين ، أو بدل اشتمال من الكاف ، والرابط أل عوضا عن الضمير ، أو الضمير محذوف أى الفتنة لكم أو بينكم أو فيكم ، والفتنة إيقاع الخلاف فيما بين المسلمين وفساد نياتهم فى غزوهم ، والرعب فى قلوبهم ، يقولون : لقد جمعوا كذا وكذا وكذا ، ويستهزئون ، وطلب العيب والشر وقيل : يبغونكم ظهور الشرك ، والشرك فتنة ، والجملة حال من واو أوضعوا .

(وفَيكُم سمَّاعُون لَهم) أى ضعفة يسمعون للمشركين ويطيعونهم ، وقال الجمهور : للمنافقين أو فريق يسمعون كلامكم لهم ، أى يسمعون لينفوه إليهم ، وهؤلاء منافقون ، ومعنى كونهم فى المسلمين كونهم مختلطين بهم ، وقيل : مؤمنون ضعف إيمانهم ينقادون نلرؤساء المشركين أو لأقاربهم ذوى القوة من المشركين ، وقيل : الهاء للمنافقين ، والسماعون

مؤمنون ضعف إيمانهم ، كذلك والقول بأنهم يسمعون الكــلام لينقلوه رجحه الطبرى ، وقال النقاش يضعفه بناء المبالغة •

(واللهُ عَليمٌ بالظّالمينَ) تهديد للسماعين بأنه يعلم ضمائرهم فيجازيهم عليها ، وفيه تلويح بأنكم لا تعلمونهم ، وقيل الظالمون المشركون ؛ إن قلت : إذا كان عدم خروجهم مصلحة للمؤمنين ، وخروجهم مفسدة ، فلم عاتب الله سبحانه نبيه فى الإذن لهم فى القعود ؟

قلت : عاتبه لأنه أذن لهم قبل أن يتبين صادقهم من كاذبهم ، ولم يأذن لهم نظرا للمصلحة ، لأنه لم يعلمها حينئذ ، أو لأنه أذن لهم قبل أن يوحى إليه فى أمرهم بالقعود ، ولأنه لو قعدوا بغير إذنه كان ذلك أقطع لعذرهم ، ولا يقال : كيف ألهم الله المنافقين عدم الخروج وهو قبيح ، لأنا نقول كما مر ، إنه يلقيه فى قلوبهم إلقاء مرتبا على أعمالهم لا جبرا ، وفيه مصلحة حسنة ، وهى ارتيــاح المؤمنين مــن خيالهم والإيضاح بينهم •

(لَقَدِ ابْتغَوُا) بكسر الواو وقرىء بضمها (الفِتْنةَ) مــا يوهن الإسلام ويقوى الشرك ، كتشتيت أمرك ، وتفريق أصحابك ومــا يهلك أصحابك ، وقد فسر بعضهم الفتنة بالشرك •

(مِنْ قَبْلُ) أى قبل حالهم هذه ، وهى حال غزو تبوك ، وذلك أن عبد الله بن أبى انصرف يوم أحد ومن معه ، كما تخلفوا عن تبوك بعد خروجهم إلى ذى حدة أسفل من ثنية الوداع ، وعن ابن جريج : وقفوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم على الثنية ليلة العقبة أيلة ، وهم اثنا

عشر رجلا ليفتكوا به ، وهذا على أن الواو للمشركين ، كما فسر بعضهم ابتغاء الفتنة بإجماعهم فى دار الندوة ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه ، فمعنى من قبل أى من قبل الهجرة ، وما كان قبل الهجرة فهو أيضا قبل غزوة تبوك •

(وقَلَّبُوا لكَ الأمُورَ) بحثوا جهدهم فيما يهلكك أو يبطل دينك من مكيدة وحيلة ، كمن يقلب شيئا ظهرا لبطن لشدة الفحص عن حاله ، وعن الحسن : قلب المنافقون لك الأمور فى قتلك قبل أن تقدم المدينة ، وقرأ مسلم ومحارب بتخفيف اللام •

(حتَّى جاءَ الحق) النصر والظفر (وظَهَرَ أمْرُ اللهِ) علا دينه (وهُم كارِهُون) لظهوره ، وإنما صح بعد ظهور أمره غاية لتقليب الأمور ، ومجىء الحق ، وهما قد مضيا لأن ذلك إخبار عن غاية ومعنى كلاهما مضى كأنه قيل : مازالوا يقلبون لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله ، ويجوز ، والله أعلم ، أن يكون ذلك تلويحا لأن تقليبهم الأمور كان سببا لظهور الأمر ومجىء الحق ، فهم ساعون فى هلاك أنفسهم كما قال الشاعر :

وإن لـــم يكن عونـــا مـــن الله للفتى
فأول مـــا يجنى عليه اجتهـــاده

(ومنهمْ منَ يقُولُ ائْذنْ لى) فى القعود عن الغزوة هذه الياء هى فاء الكلمة ، وهى الهمزة فى أذن أبدلت ياء لسكونها بعد كسرة همزة الوصل ، وإذا وصل الكلام بالياء ولم يوقف عليه سكنت حيا ولو لم

نضبط بالإسكان فى مصاحف المغاربة ، فإنهم تركوها على حالها بحين الابتداء لهمزة الوصل ، وفى مصاحف المشارقة همزة ساكنة بعد همزة الوصل بزوال القلب بزوال كسرة همزة الوصل بالوصل .

(ولا تَفْتِنِّى) بعدم الإذن ، فإنى تخلفت عنك بغير إذنك ، وقعت فى الفتنة وهى الإثم بمخالفتك ، وهذا منه ، لعنه الله ، إشعار بأنه متخلف ولو لم يأذن له ، كأنه قال : لا تصعب على حتى أحتاج إلى مواقعة معصيتك ، وهذا تأويل حسن واقف مع اللفظ .

وقيل : لا تفتنى بنساء الروم ، وبه تظاهرت الروايات ، عن الجد ابن قيس ، لعنه الله ، أنه قائل ذلك ، وشذ من قال إنه عبد الله بن أبىّ ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حرض الناس على غزو الروم ، وقال للجد بن قيس : « هل لك العام فى جلاد بنى الأصفر ؟ » فقال له وللناس : « اغزوا تغنموا الأصفر » فقال له الجد بن قيس : إيذن لى فى التخلف ولا تفتنى بذكر بنات الأصفر ، فقد علم قومى أنى لا أتمالك عن النساء إذا رأيتهن ، وقيل : قال له : « هل لك فى جلاد بنى الأصفر — يعنى الروم تتخذ منهم سرارى ووصائف ؟ » فقال : لقد عرف قومى ، وروى قد عرفت الأنصار أنى مولع بالنساء ، ولا أصبر عن بنات الأصفر إن رأيتهن ، فلا تفتنى بهن .

قال ابن عباس : قال : لكنى أعينك بمالى فاتركنى ، قال العباس : لم تكن له علة إلا النفاق ، وأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : قد أذنت لك ، وقيل : الفتنة ضياع ماله وعياله ، يزعم أنه كافل لهم بعده إن خرج ، والأصفر هو الروم بن عيص بن إسحاق ، كان

أصفر اللون ، وذكر النقاش ، والمهدوى : أن الأصفر حبشى وقع ببلاد الروم ، فتزوج وأنسل بنات لهن جمال ، وهذا ضعيف ، وقرأ عيسى بن عمرو بضم التاء الأولى وهى لغة تميم يقولون أفتنه بفتنة .

(ألا فى الفتنة سقطوا) أى انتبهوا أيها الناس ، وحققوا أنهم وقعوا وقوعا متمكنا فى الفتنة الكاملة بتخلفهم ، وظهور إنفاقهم ، وفساد ما بينكم وبينهم ، وفى مصحف أبى سقط بفتح الطاء وإسقاط الواو إرجاعا للضمير إلى القائل ، وقال جار الله : مراعاة للفظ من ، وأن المعنى على الجماعة وإنما يصح هذا لو كان القائل متعددا بخلاف قراءة الواو فإنها إخبار عن المتخلفين بلا عذر جميعا ، اللهم إلا إن قال قائل : إن ذلك كالجماعة إذ كان رئيسا يتبعه قومه فى التخلف .

(وإن جهنم لمحيطة) يوم القيامة أو من الآن فإنهم فى أسبابها ، فكأنهم فيها (بالكافرين) المنافقين والمشركين لا يشذ عنها واحد .

(إن تصبك حسنة) ما يستحسن طبعا كظفر وغنيمة (تسؤهم) يحزنهم تلك الحسنة لشدة حسدهم (وإن تصبك مصيبة) كشدة وهزيمة كما جرى يوم بدر .

(يقولوا قد أخذنا أمرنا) حذرنا بالتخلف عنهم (من قبل) أى قبل هذه المصيبة (ويتولوا) إلى منازلهم عنه صلى الله عليه وسلم ، أو عن متحدثهم (وهم فرحون) بسلامتهم وبإصابتك .

(قل) يا محمد (لن يصيبنا إلا ما كتب الله) فى اللوح

المحفوظ أو ما قضاه (لَنَا) من محبوب أو مكروه لا يتغير بموافقتكم أو مخالفتكم ، فاللام للاستحقاق أو للتعليل ، وقيل : إلا ما كتب الله لنا من النصر والظفر فى الدنيا ، والثواب فى الآخرة على ما أصابنا فى خلال ذلك من مكروه ، وقرأ ابن مسعود رضى الله عنه : قل هل يصيبنا ، بهل والرفع وإسكان الياء الثانية ، وقرأ طلحة بن مصرف ، وأعين قاضى الرى كذلك لكن شدد الياء مكسورة وفتح الصاد ، وهو يفعل بضم الياء وفتح الياء وإسكان الياء ، وكسر العين ، الأصل يصوى بنا بضم الياء وفتح الصاد وإسكان الياء وكسر الواو ، وأبدلت ياء وأدغمت فيها الياء لا يفعل بضم الياء وفتح الفاء وكسر العين مشددة وإلا قال : يصوبنا ، لأن العين واو لقولهم صاب السهم يصوب أى وقع فيما قصد به ، واشتقاقه من الصواب ، يقال : صوب رأيه تصويبا ، وفى جمع مصيبة مصاوب أو من الصوب وهو الانحدار إلا أن يكون من صاب السهم يصيب وهو لغـــة .

وعن عمرو بن شقيق سمعت أعين قاضى الرى يقرأ : لن يصيبنا بتشديد النون على التوكيد بالنون الخفيفة مدغمة فى نون الضمير ، قال أبو حاتم : ولا يجوز ذلك ، لأن النون لا تدخل مع لن (هُوَ مَوْلانَا) متولى أمرنا بالحفظ والنصر ومالكنا أحياء وموتى .

(وعَلَى اللهِ) لا غيره مع السعى بالجوارح ، وزعم قوم أنه يجوز للإنسان أن يدخل غارا يعبد فيه ولا يعلم به أحد ، فإن كان له رزق أتاه وإلا مات ، وإن هذا أعلى درجة توكل وهو خطأ فاحش ، ولا حجة لـــه فى حديث : « يدخل الجنة سبعون ألفا من أمتى بلا حساب ، لا يرقون

ولا يسترقون ، ولا يكتوون ولا يتطيبون ، وعلى ربهم يتوكلون » (فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنُونَ) فى أمورهم ، والفاء صلة للتوكيد فلا تمنع من تعلق ما قبلها بما بعدها .

(قُلْ هَلْ تربَّصُونَ) تنظرون (بِنَا) الأصل تتربصون ، حذفت إحدى التائين والخطاب للمنافقين (إلا إحْدَى الحُسْنَيَيْنِ) تثنية الحسنى بالضم والقصر أى إلا إحدى العاقبتين الحسنيين ، إحداهما النصر وتترتب عليه الغنيمة ونحوها ، والأخرى الموت على الشهادة ، وتترتب عليها المغفرة والثواب ، وفى الحديث القدسى : « من خرج جهادا فى سبيلى وإيمانا بى وتصديقا برسلى فإما أن يموت فأدخله الجنة ، وإما أن أرجعه إلى منزله نائلا ما نال من أجر أو غنيمة » وأفضل الحسنيين الموت على الشهادة .

وإن قلت : كيف يتربص المنافقون إن ينصر المؤمنون ؟

قلت : سمى مراقبتهم بالمؤمنين على وجه الشر تربصا ، وإذا كانت عاقبة مراقبتهم نصر المؤمنين فكأنهم كلما تربصوا بهم تم نصرهم ، وهذا على طريق لام الصيرورة ، أو سمى ذلك تربصا تغليبا لتربص الحسنى الأخرى وهى الموت ، أو المراد بإحداهما خصوص الموت ، أو مشاكله لقوله : « ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله » الخ هذا ما ظهر لى والحمد لله فى توجيه ذلك ، ولم أر أحدا تكلم عليه ، وقرأ ابن محيصن بوصل همزة إحدى ، قيل : وهى لغة شاذة ، قلت : لعل ابن محيصن لم يمكن صوته فى الهمزة بل اختلس وأسرع مع ما فيها من الخفاء فحسب السامع أنه وصلها .

(بعَذابٍ مِنْ عِنْده) بقارعة من السماء كما جرى على عاد وثمود ، أو خسف من الأرض ، أو مصيبة من المصائب قيل ، ويحتمل أن يكون توعدا بعذاب الآخرة •

(أو بأيْدِينَا) أى أو يصيبكم بأيدينا ، بأن نقتلكم ونأسركم ، وهذا أولى من قول القاضى ، أو بعذاب بأيدينا بسلامته من الحبس (فتربَّصُوا) عاقبتنا أمر تهديد (إنَّا معَكُم متربِّصُونَ) عاقبتكم ، ولفظ مع لإشراك الكل فى التربص ، ولو اختلف التربصان •

(قلْ أنفقُوا طَوْعاً أو كَرْهاً) أى إنفاق طوع أو كره ، أو طائعين أو كارهين ، أو ذوى طوع أو كره ، أو سماهم طوعا أو كرها على طريقة العرب فى المبالغة ، وضم ابن وثاب ، والأعمش الكاف ، وذلك تهديد أيضا ، أو بمعنى الخبر ، ومعنى إنفاقهم كرها أن ينفقوا مع كراهة أنفسهم ، ولم يكن ثم حبس أو ضرب أو قتل إجبارا على الإنفاق ، وكان رؤساؤهم يحملونهم على الإنفاق لمصلحة يرونها ، وذلك تسوية بين الإنفاق طوعا أى برضا نفس ، والإنفاق بكرهها إذ لم يقع إيمانا واحتسابا فى عدم القبول كما قال •

(لَنْ يتقبَّلَ منْكُم) أى لن يتقبله الله ، أو لن يقبضه منكم رسوله صلى الله عليه وسلم ، كأنه قيل : أنفقوا طوعا أو كرها ، وانظروا هل يتفاوت الإنفاق قبولا وعدما أو لا يتفاوتان ، وعلل عدم القبول بقوله :

(إنَّكُم كنتُم قوماً فاسِقينَ) كافرين ، وذلك كإنفاق الجد بن قيس ونحوه ممن تخلف بلا عذر ، أو خرج فى نفاق وكفر ، وقد قيل : نزلت لقول الجد بن قيس : أعينك بمالى •

(ومَا مَنَعهم أن تُقْبَل مِنْهم نَفَقَاتُهم) أى ما منعهم من قبول ، أو تعدى منع لاثنين ، ، أو القبول بدل اشتمال ، وقرأ حمزة والكسائى : أن يقبل بالتحتية لجواز تذكير فعل المؤنث الظاهر المجازى التأنيث وللفصل ، وهو رواية عن نافع ، ولم تصح عنه ، وقرأ الأعرج فى رواية عنه : أن تقبل منهم نفقتهم بالمثناة والإفراد ، وقرأت فرقة بالنون والبناء للفاعل ، ونصب النفقة بالإفراد ، وقرأ السلمى بالتحتية والبناء للفاعل وهو الله أو النبى صلى الله عليه وسلم ، ونصب النفقات بالكسرة جمعا ، وقرأ الأعمش : أن تقبل منهم صدقاتهم بالمثناة الفوقية والبناء للمفعول •

(إلا أنَّهم كَفَروا بالله وبرسُولِه) المصدر من خبر إن فاعل منع ، ولك أن تجعل الفاعل ضمير الله سبحانه وتعالى ، أو رسوله صلى الله عليه وسلم ، وتقدر اللام بعد إلا ، أى إلا بأنهم كفروا بالله وبرسوله ، وفى صحيح مسلم ، عن النبى صلى الله عليه وسلم : « إن ثواب الكافر على أفعاله البرة هو فى الطعمة يطعمها ونحو ذلك ولا تنفعه فى الآخرة وأما أفعاله القبيحة فتزيد فى عذابه » •

(ولا يأتُونَ الصَّلاةَ إلاَّ وهُم كُسَالى) جمع كسلان ، أى متثاقلون لا يرجون بها ثوابا ، ولا يخافون بتركها عقابا ، وفى كتبنا الفقهية لا يوصف المسلم بالكسل ، ويؤيده ما رواه جابر الله عنه صلى الله عليه وسلم : أنه كره أن يقال لمؤمن كسلت والعطف على خبر إن •

(ولا يُنْفِقُون إلاَّ وهُم كارِهُونَ) إذ لا يرجون بالإنفاق ثوابا ، ولا يخافون بتركه عقابا ، بل يعدونه مغرما وتركه مغنما •

(فَلا تُعْجِبكَ) الفاء للسببية ، والخطاب للنبى ، والمراد أمته ، لأنه لا تعجبه زهرة الدنيا ، أو للإنسان أموالهم وأولادهم ، أى لا تعجبك ، لأن فيها حقرقا لم يؤدها ، ولو أنفقوا منها لا يطهرها إذ لم ينفقوا لله ، وأولادهم ربوا بذلك المال ، ويكونون على طريقتهم ، وعلل أيضا بعد ذلك تعليلا مستأنفا لقوله : (إنَّما يُرِيدُ اللهُ ليعذِّبهُم بها فى الحَيَاة الدُّنْيا) فهى استدراج لهم ، ووبال عليهم ، فلا يحسن لأحد أن تعجبه زينة الدنيا لعلها استدراج إلى بطر وكفر وهلاك ، ولأن النظر إلى من فوقه فى أمر الدنيا سبب للانهماك فى جمعها من حل وغيره ، ولعدم الرضا بالقسم ، واللام صلة التأكيد ، وأضمرت أن بعدها جوازا كما بعد لام التعليل ، والمصدر مفعول يريد ، ويدل ذلك إسقاط اللام بعد ، وإظهار إن فى نظيرها .

وبيان تعذيبهم بها فى الدنيا أنهم يكابدون أموراً عظاما فى شأن أولادهم ، وفى حفظ المال وجمعه ، وهذا ولو كان يحصل أيضا للمؤمن ، لكنه قد علم أنه مثاب على ما يصيبه ، أو ممحوة به خطاياه ، بل هو يعنى بالمال والولد أمر الآخرة ، وقيل : تعذيبهم بها أخذ الزكاة منها ، والنفقة غير مثابين عليها ، وقتل الولد فى الغزو فلا يثاب والده ، وقيل : الرزايا فيهما مطلقا ، وقيل : تعذيب بالمال تعب فى جمعه وحفظه ، وكره إنفاقه والحسرة على تخلفه عند من لا يحمده .

وعن بعضهم الضمير فى بها للأموال ، وقال قتادة ، والكلبى : إن التعذيب فى الآخرة ، وعلى هذه ففى الحياة لا يتعلق بيعذب ، بل بتعجب أو بمحذوف حال من الأموال والأولاد .

(وتَزْهَقَ) ترحزح بصعوبة (أنفُسُهم) أرواحهم (وهُم كافِرُونَ) أشغلتهم عن النظر فى أمر الآخرة ، حتى ماتوا على الكفر ، فما لهم بعد ذلك إلا العقاب ، وهذا استدراج فظيع ، والجملة حال ، وزعم بعضهم أنه يجوز أن تكون المراد وترهق أنفسهم من شدة التعذيب الذى ينالهم ، فلا يلزم كون الجملة حالا •

(ويحْلِفُونَ باللهِ إنَّهم لمنْكُم) فى الإسلام (وما هُم منْكُم) لكفر قلوبهم (ولكنَّهم قومٌ يفْرقُون) يخافون على دمائهم وأموالهم وأولادهم ، فأظهروا الإسلام تقية •

(لَوْ يَجِدُونَ ملجأ) موضعا يلجئون إليه كحصن منيع ، ورأس جبل أو قلعة أو جزيرة (أوْ مغَاراتٍ) جمع مغارة وهى اسم لمكان الغور ، أى الدخول والخفاء ، ومنه الغار فى الجبل ، وغار الماء دخل الأرض ، فإن شئت فقل : المغارات الغيران •

وقرأ سعيد بن عبد الرحمن بن عوف بضم الميم اسما لمكان الإغارة ، أى إدخال الشىء وإخفاؤه ، تقول : أغرت الشىء أى أخفيته وأدخلته ، فالمراد أمكنة يدخلون فيها أنفسهم ، ويخفون فيها ، وقيل : غار وأغار بمعنى واحد ، أى دخل وخفى ، ويجوز أن يكون من أغار الثعلب إذا أسرع ، فالمراد مهارب ومغار قوم ، أو من أغار حبلا أى شدد فتله ، فالمراد أمور مرتبطة تعصمهم •

(أوْ مدَّخَلا) مفتعل من دخول ، وهو اسم مكان ، أصله مدْتخلا بإسكان الدال وفتح التاء ، قلبت التاء دالا وأدغمت فيها الدال ، والمراد

السرب فى الأرض ، وهذا الوزن هنا تأكيد أو مبالغة ، وعن الزجاج : المراد قوم يدخلون فى جملتهم ، وقرأ أبى" متدخلا بفتح التاء وتشديد الخاء وهو متفعل ، ورواه أبو حاتم ، وقيل : قـرأ أبى مندخلا بنون ساكنة وتخفيف الخاء وهو منفعل ، وقرأ قتادة وعيسى بن عمر والأعمش مدخلا بتشديد الدال والخاء ، وهو متفعل أصـله متدخل بفتح التاء والـدال والخاء المشددة ، سكنت التاء وأبدلت دالا ، وأدغمت فى الدال ، وقرأ مسلم بن محارب ، والحسن ، وابن أبى إسحاق ، وابن محيصن ، وابن كثير بخلاف عنه مدخلا بفتح الميم والخاء وإسكان الدال اسم مكان من دخل ، وفى رواية عن الأعمش ، وعيسى بن عمرو بضم الميم وإسكان الدال من أدخل •

(لَوَلَّوا إليه) لرجعوا إليه ، وقرأ جد أبى عبيدة بن قرمل : لؤالوا بالهمزة بمعنى لنجو (وهُم يجْمَحون) يسرعون كالفرس الجموح إذا حمل ، لا يرده لجام ولا غيره ، وقرأ أنس بن مالك يجمزون بالزاى من الجمز وهو ضرب من السير فوق العنق •

(ومنْهُم مَنْ يَلمزُك) يعيبك ويطعن عليك ، وقرأ أهل مكـة والحسن وأبو رحى وغيرهم بضم الميم ، ورواه حماد بن سلمة ، عن ابن كثير ، وقرأ الأعمش بضم الياء وفتح اللام وكسر الميم المشددة ، وروى حماد أيضا عن ابن كثير يلازمك ، وهو مفاعلة للمبالغة لا لوقوع الفعل من جانبين ، لأن اللمز وقع من جانبهم فقط •

(فى الصَّدَقات) أى فى قسمها ، زعم الخازن وصاحب القاموس وغيرهما أنها نزلت فى ذى الخويصرة التميمى ، وهو رجل أسود إحدى

عضديه مثل ثدى المرأة ، وروى مثل البضعة ، واسمه حرقوص بن زهير ، وكذلك فى صحيحى البخارى ومسلم ، وفى موضع من البخارى : عبد الله بن ذى الخويصرة ، فقيل : روايتان ، وقيل : هو عبد الله الخويصرة ، وزيادة الابن .

وهم زعموا أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقسم الصدقة ذهبا أو فضة ، وقيل : غنائم حنين ، واستعطف قلوب أهل مكة بتوفير العطى ، فقال : يا رسول الله اعدل ، فقال صلى الله عليه وسلم : « ويحك من يعدل إن لم أعدل ؟ ! » وهو من المنافقين ، وفى رواية قال له : « قد خبت وخسرت إن لم أعدل » فقال عمر : إيذن لى أضرب عنقه ، فقال له : « دعه فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته إلى صلاتهم ، أو صيامه إلى صيامهم يقرءون القرآن ولا يجاوز تراقيبهم يمرقون من الدين ، أو قال من الإسلام روايتان ، كما تمرق السهم من الرمية » وذلك غلط أو عمل فاحش أوصلهم إليه الغلق فى ذم أهل الصواب ، الذين هم الأباضية ، حتى كذبوا وخرجوا الآية والحديث فيه وفى أصحابه ، وإنما حرقوص صحابى مرضى شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة .

قالت عائشة رضى الله عنها : أشهد أن محمدا رسول الله فى بيتى ، وقال : « يا عائشة أول من يدخل من هذا الباب من أهل الجنة » فقلت فى نفسى : أبو بكر ، عمر ، فلان ، فلان ، فبينما أنا كذلك إذا أقبل حرقوص ابن زهير ، وقد توضأ ، وإن لحيته تتقطر ماء ، ثم قال ذلك فى اليوم الثانى والثالث ، ودخل فيهما حرقوص .

وقد قال أبو موسى الأشعرى : والله الذى نفسى بيده ، لو اجتمع أهل

المشرق والمغرب على الرمح الذى طعن به حرقوص لدخلوا به النار جميعا ، وإنما قائل ذلك أبو الجواظ المنافق قال : ألا ترون إلى صاحبكم إنما يقسم صدقاتكم فى رعاة الغنم ، ويزعم أنه يقعد ! فقال صلى الله عليه وسلم : « لا أبا لك أما كان موسى راعيا ، أما كان داود راعيا » ولما ذهب قال : « احذروا هذا وأصحابه فإنهم منافقون » وعليه الكلبى •

وروى أنه قال له : لم يقسم بالسوية ، وقال قتادة : إن قائل ذلك بدوى حديث عهد أتاه يقسم ذهبا أو فضة ، فقال : يا محمد لأن كان الله أمرك أن تعدل فما عدلت هذا اليوم ، فقال له : « ويحك فمن يعدل عليك بعدى » ثم قال : « احذروا هذا وأشباهه فإن فى أمتى أشباهه قوم يقرءون القرآن ولا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية » وكان عابس الجبين ، مشرف الحاجبين ، غائر العينين •

وفى رواية قال : « لقد شقيت إن لم أعدل » وقيل قائل ذلك من الأنصار ، وقال ابن زيد : قال المنافقون : والله ما يعطيها محمد إلا من أحب ، ولا يؤثر إلا هواه ، قيل : هم المؤلفة قلوبهم ، إذ لم يعطوا بحسب آمالهم •

(فإنْ أعْطُوا مِنْها) كما يحبون (رَضُوا) عنك (وإنْ لَمْ يعْطَوا منْها) فربط أصل أو لم يعطوا ما يأملون (إذا هُمْ يسْخَطُون) إذا للمفاجأة نابت فى الربط عن الفاء ، وأفادت سرعة السخط عقب عدم الإعطاء •

(ولَوْ أنَّهم رَضُوا) لو حصل رضاهم (ما آتاهم الله ورسوله)

ما أعطياهم من الصدقة أو الغنيمة ، وإعطاء الله تقديره وتيسيره وخلقه إعطاء الرسول ، وإعطاء الرسول مناولته ، وقيل : المراد ما أعطاهم رسول الله ، وذكر الله للتعظيم أو التنبيه ، على أن ما فعله الرسول كان بأمره .

(وقالُوا حَسْبُنا اللهُ) كفانا بما أعطانا وإن قلّ (سَيُؤْتِينَا اللهُ مِنْ فَضْلِه) من غنيمة أو صدقة يتفضل بها علينا (ورَسُولُه) ما نحتاج إليه وأكثر ، وقرأ بنصب رسول عطفا على نا (إنَّا إلَى اللهِ راغِبُونَ) فى أن يوسع علينا ، وجوابه محذوف بدلالة ظاهر الكلام عليه ، وذلك من فصيح الكلام وإيجازه ، أى لكان خيراً لهم ، ثم بين مصارف الصدقة تصويبا لفعل رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله :

(إنَّما الصَّدقاتُ) إلخ وفى ذلك حسم لأطماع المنافقين عنها ، وإشعار بأنه لا كلام لهم فيها ، وأنها ليست مما يهاود فيها ، بل تولى الله قسمها ، وهذه الآية تقوى أن المراد فى الصدقات فى قوله : « ومنهم من يلمزك فى الصدقات » الزكوات ، وقد حصرها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الثمانية أخذا من الحصر فى الآية بإنما ، قال زياد بن الحارث : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فبايعته ، فأتاه رجل فقال : أعطنى من الصدقة ، فقال : « إن الله تعالى لم يرض بحكم نبى ولا غيره فى الصدقات حتى حكم فيها » فجزأها ثمانية أجزاء ، فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك حقك » وليس المراد بالحصر إيجاب قسمها عليهم جميعا عندى ، بل بيان أنها لا تخرج عنهم ، فلو قسمها الإمام أو غيره بأمره ، أو إذا لم يكن على بعضهم ، أو صرفها فى واحد ، أو أعطاها شخصا واحدا لجاز وبه قال مالك ، وأبو حنيفة ، وأحمد وغيرهم ، وذلك بالنظر والمصلحة ، وبه قال ابن عباس ، وحذيفة فى رواية عنهما من

وغيرهما من الصحابة ، وابن جبير ، ويقدم الأحوج فالأحوج ، ولكن لا بد للعامل من أجرة إلا إن تركها .

وقال الشافعى : تصرف للأصناف الثمانية كلها ، إلا إن لم يوجد منهم صنف ، وبه قال عمر ، وحذيفة ، وابن عباس فى رواية عنهما ، وعكرمة ، والزهرى ثم قيل : يسوى بينهم ، ثم قيل : وليس كذلك عندى ، إذ قد يكون العامل ما تعنى إلا يسيرا ، وقد يتعنى كثيرا ، ويكون أشد فقرا فيأخذ من الجهتين ، وكذا الباقون قد يتفاوتون فى الحاجة .

وقال النخعى : إذا كثر المال قسم بينهم جميعا ، وإلا أعطاه صنفا واحدا ، ويقسم سهم الصنف بين ثلاثة منه فأكثر ، وأجيز لشخص واحد وإنما يعطى الإنسان بقدر ما يدفع عن نفسه الحاجة كالدين ، وما كوتب به ، وما يشترى به ما لا بد له منه كمسكن ، ولا بأس بالزيادة على ذلك ما لم يبلغ فيها النصاب ، هذا ما عندى .

وقال أحمد : لا يعطى أكثر من الخمسين درهما ، على أن الغنى من له خمسون درهما ، وأبو حنيفة لا تتم له مائتا درهم ، لأن من له المائتان غنى ، وإذا تمتا جاز ، وقال الحسن : لا يعطى أكثر من أربعين ، على أن ملكها غنى ، وإن عدم المحترف القوى آلة الحرفة أعطى قدر ما يحصلها .

ويفضل فى الزكاة العالم المشتغل بأمر المسلمين ، ويعطى نفقته وكسوته ومؤنة عياله ، ومن أعطاها إنسانا وتبين أنه غنى ردها منه ،

وإن تعمد فلا يحكم له بالرد ويعيدها ، وقيل : إذا لم يتعمد وتبين غناه بفور ذلك أخذها منه ، وإلا فإن غره ضمنها ، وإن عقد جوازها له أو لم يتحقق مقصد المعطى ، فإن انتفع بها ضمن وإن تلفت ولم ينتفع بها لم يضمن ، وفى جزائها عن المعطى قولان وبالإجزاء يقول الحسن •

وللإمام أو نائبه تفريقها فى فقراء من أخذت منه بالنظر والمصلحة ولا يجوز لغير الإمام ونائبه أن يخرج زكاته من بلده ، وإن فعل ووصلت أصحابها أجزأت قيل : اتفاقا ، وقد ردها عمر بن عبد العزيز إلى خرسان من الشام ، إذ وجهت إليه •

ولا تحل لبنى هاشم والمطلب ، وقال أبو حنيفة : تحل لبنى المطلب ، ولا تحرم على موالى بنى هاشم والمطلب عند مالك ، وقيل : تحرم بقوله صلى الله عليه وسلم : « مولى القوم منهم » والظاهر أنه لا دليل فيه إذ لا يوصله كونه منهم إلى تحريم الزكاة عنه ، إذ ليس منهم بالنسب ، ثم رأيت حديثا نصا فى أنه لا تحل له ، أخرجه الترمذى والنسائى ، وهو : أنه استعمل صلى الله عليه وسلم عاملا على الصدقات من بنى مخزوم ، فأراد أبو رافع أن يتبعه فقال : لا تحل لنا الصدقة ، وإن موالى القوم منهم ، قال ابن القاسم صاحب مالك : يعطى بنو هاشم من صدقة التطوع ومواليهم منها ، ومن صدقة الفرض ، ولا يعطى صاحب المال زكاته من تلزمه نفقته ، وقال أبو حنيفة لا يعطيها أباه وإن علا ، ولا ابنه وإن سفل ، ولا زوجته ، ويعطى من عداهم •

وإنما شرعت الزكاة والله أعلم تأليفا بين صاحب المال والمحتاج ، وإعانة على العبادة ، ورحمة للمحتاج ، ولأن حب المال يشغل عن الله ،

ويبعد عنه ، فشرعت فيه ، ليتقرب بها إليها ، وليقل المال الذى هو سبب لقسوة القلب ، وحب الدنيا ، ولامتحان العبد ، لأن التكاليف البدنية أقل مشقة على العبد ، ولأن المال مال الله ، والأغنياء خزان الله ، والفقراء عيال الله ، فليصرفوا على عياله من خزائنه ، وإلا عوقبوا ، ولتطيب نفس المحتاج إذ ربما تعلقت نفسه بما فى يد غنى ، ولأن الفاضل عن الحاجة من المال يبقى متعطلا ، فشرعت لئلا يتعطل المال بالكلية .

(للفُقَرَاء) من لا مال لهم ولا كسب ، يقع موقعا من حاجتهم كأن فقارهم مكسورة بالحاجة .

(والمسَاكِينِ) من لهم مال أو كسب لا يكفيهم ، كأن العجز أسكنهم فما يتحركون قاله الشافعى ، والأصمعى ، واستدلا بقوله تعالى : « أما السفينة فكانت لمساكين » والسفينة تسوى دنانير كثيرة ، وبأنه صلى الله عليه وسلم يسأل المسكنة ويتعوذ من الفقر ، روى أنس قال النبى صلى الله عليه وسلم : « اللهم أحينى مسكينا ، وأمتنى مسكينا واحشرنى فى زمرة المساكين » .

وبالابتداء فى الآية للفقراء ، مع أن القصد بها دفع الحاجة ، فيفهم أنه بدأ بهم ، ولأنهم أشد حاجة ، لأن الابتداء بالأهم أولى ، وقد يجاب بأنه سماهم فى الآية الأولى مساكين بالإضافة إلى الغاصب ، وإن كانوا أغنياء ، أو على طريق العرب فى الشفقة تقول فى جماعة مظلومة : هم مساكين لا حيلة لهم ، ولو كانوا أغنياء ، وكما ورد : يا ابن آدم يا مسكين أو إضافتها إليهم لملابستهم لها بالعمل لا لملكهم إياها .

قال النقاش : وقد قرأ لمساكين بتشديد السين بمعنى دباغين

يصلحون المسوك وأن الابتداء بالأهم غير متعين ، ولو كان أولى فبالاحتمال يرفع الاستدلال ، ولم يظهر لى جواب عن الحديث ، بل هو كالنص فى قول الشافعى وهو الصحيح .

وقال أبو حنيفة ، وأصحاب الرأى : المسكين أشد من الفقير لقوله عز وجل : « أو مسكينا ذا متربة » أى لاصق الجلد بالتراب لغاية الشدة ، وأنه ساكن لا حركة به ، بخلاف من كسرت فقار ضهره فقد يتحرك ، ولجعل الله سبحانه الكفارة للمساكين ، أو لقول الراعى :

أما الفقير الذى كانت حلوبته
وفق العيال فلم يترك له سبد

ويجاب بأن الشدة إنما أفادها النعت وهو ذا متربة ، ولولا التقييد به لم تستفد من الكلام ، فدل على أنه قد يوجد مسكين بدون هذه الصفة ، وكان المستدل يرى أن هذا النعت بيان لما دلّ عليه لفظ مسكين لا قيد ، وأن المسكين أبدا كذلك ، وبأن الفقير إذا ذكر وحده يجوز إطلاق اسم المسكين عليه ، وبأنه إنما سماه فقيرا بعد أن صار لا حلوبة له ، وإنما ذكر الحلوبة بأنها كانت كذا قبل ، ويرده معنى القصيدة ، ومقصد الشاعر ، فإنه إنما يصف سعاية أتت على حال الحى بأجمعهم ، فقال : أما الفقير فاستوصل ماله فكيف بالغنى مع هذه الحال .

وقال الحسن ومجاهد ، وعكرمة ، والزهرى : الفقير من لا يسأل ، والمسكين من يسأل ، وهو قول ابن عباس ، وابن زيد ، وجابر بن زيد ، ومحمد ابن مسلمة ، ووجهه عندى أن المسكين قد ذل وخضع ، وبذل وجهه وسأل كما

ينبىء بذلك ظهور المسكنة عليه ، بخلاف الفقير ، فلم يفعل التعفف ، المفرط ، أو البلغة ، وقد وصف الله سبحانه بنى إسرائيل بالمسكنة ، وقرنها بالبذل ، ووصف الفقراء بأنهم لا يستطيعون ضربا فى الأرض ، وأن الجاهل يحسبهم أغنياء من التعفف ، وفى الحديث : « ليس المسكين بهذا الطواف الذى ترده اللقمة واللقمتان ، ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه ، ولا يفطن له فيتصدق عليه اقرءوا إن شئتم : « لا يسألون الناس إلحافا »» أى إن المسكين هو الطواف فى لغتكم هو المسكين ، وأنا أنبهكم على المسكين الذى له شأن ، وهو من لا يسأل إلحافا ، وهذا كما يقول : ليس الفقير من لا مال له ، إنما الفقير من لا حسنة له .

وقيل : الفقير المحتاج الزمن ، والمسكين المحتاج الصحيح ، وزعم عكرمة فيما قيل عنه : أن الفقراء من المسلمين ، والمساكين من أهل الذمة ، ولعل هذا إذا جمعا ذكر الفريقان ، وأن ذكر الفقراء فقط ، أو المساكين عم ، وقيل : الفقير من هاجر ، والمسكين من لم يهاجر ، ونسب للضحاك والنخعى ، وقيل : الفقير الذى له المسكن والخادم ، والمسكين لا ملك له ، ومن ادعى الفقر أو المسكنة أعطى ، وقيل : لا يعطى إلا ببيان ولا تجبى لغائب إن جاوز فرسخين ، وإن كان قريبا ولم يجاوزهما ، فالحاضر الأجنبى أولى ، وقيل : هو أولى ، وقيل : هما .

(وَالعَامِلِينَ عَلَيْهَا) الساعين فى تحصيلها أو جمعها فيعطون ، ولو كانوا أغنياء بقدر عنائهم عندنا وعند الشافعى ، وهو قول ابن عمر وهو الصحيح ، وله الأكل والركوب ، وقال مجاهد ، والضحاك : يعطون الثمن ، والجمهور على الأول ، وهذا مذهب مالك ، فإن كان عناؤهم أكثر من الثمن تمم لهم من الأنصباء ، وقيل : من خمس الغنيمة ، ولا يجوز

الهاشمى أو المطلبى أن يكون عاملا على الصدقات على الراجح عندهم ، لحديث أبى رافع المذكور ، وإن عمل أعطى أجرته منها ، وقيل : من الخمس ، وما يعطى للعامل هدية فهو لبيت المال إذا كان قد أعطى له لكونه عاملا .

(والمؤلَّفةِ قلُوبُهم) سواء قد كانوا أسلموا وضعفت نيتهم كالأقرع بن حابس ، أو كانوا كفارا يخاف منهم إعانة العدو ، أو القطع على المؤمنين ، أو يرجو منهم إعانة المؤمنين ، أو يرجو منهم الإسلام ، ولا سيما إن كانوا أشرافا يسلم الكثير بإسلامهم ، أو كفارا كان فى قربهم مؤمنون ، ولا تصلهم جنود الإسلام ، وقيل إنما يعطى غير النوع الأول من الغنيمة من خمس الخمس ، وهو سهم سبيل الله ، ويجوز أن يعطى من الزكاة للأشراف المؤمنين الأغنياء ترغيبا لأقوامهم وأمثالهم فى الإسلام ، كما يعطون من الغنيمة .

ويعطى منها ، وقيل من الزكاة : من يأخذ الزكاة من قومه للإمام ، وقد كرهوا . جاء عدى بن حاتم بثلاثمائة بعير من صدقة قومه ، فأعطاه أبو بكر ثلاثين منها ، قيل : وكان صلى الله عليه وسلم يعطى قوما كفارا ليقاتل الكفار ومانع الزكاة ، والصحيح أن منهم المؤلفة قلوبهم باق إلى يوم القيامة إذا خيف منهم لضعف الإسلام .

وزعم بعض أنه ساقط من حين عزّ الإسلام لمنع عمر سهمهم ، وإذا تأملت وجدت أن عمر لا ينكر التوليف جملة ، وفى ثغور الإسلام على الإطلاق ، بل تعليله بكون الإسلام قد ينزل بدل على رجوع سهمهم إذا

لم ينزل ، وفسر الزهرى المؤلفة بمن أسلم من يهودى أو نصرانى ليحب الإســلام .

(وفى الرِّقابِ) عطف على قوله : « للفقراء » وقدر بعض تصرف فى فك الرقاب من الرق ، على أن المكاتب عبد ما لم يخلص ، ويقدر عندنا فى فك الرقاب مما عليها ، أو على أن المراد بقوله : « وفى الرقاب » العتق والولاء لصاحبه ، وقيل : لجماعة المسلمين ، فيرجع لبيت المال ، وعند الولاء لصاحب المكاتب ، وأما المعتق من الزكاة فعلى تقدير جواز ذلك فولاؤه لبيت المال ، وعدل عن اللام إلى فى ، إيذانا بأن الرقاب والغارم والسبيل ، وابنه أحق بالصدقة وأرسخ ، فهم ظرف لها ، وموضع ومنصب لما فى ذلك من فك المكاتب مما عليه والأسر والدين وجمع السبيل بــين العبادة والفقر والغربة عن الأهل والمال .

وقيل : عدل إلى اللام إيذانا بأن الاستحقاق للجملة لا للرقاب ، والمراد ، والله أعلم ، فك المكاتب مما كاتب عليه ، سواء كاتب على نجوم أو دفعة ، لكن إن كانت على نجوم لا يعطى له إلا للنجم الحاضر ، وان أعطى للكل جاز ، والمكاتب حر عندنا ، ولو لم يؤد شيئا فما يعطى فى يده فيعطيه لمن كاتبه ، وما فضل يعطيه لمكاتب مثله ، كما قال ، صلى الله عليه وسلم ، لأول مكاتب وهو أبو مؤمل ، وقال غيرنا : فهو عبد ما لم يتخلص مما كوتب عليه كله ، فسهمه يعطى لسيده ، وأن هذا هو فائدة العــدول إلى فى والمعنى فى تخليص الرقاب من الرق ، ولا يمكنون مــن التصرف فى سهمهم ، وكذا قيل فى الغارم ، يعطى بمراقبة ومحاسبة فى قضاء دينه ، وكذا الغازى وابن السبيل إنما يصرف إليها ما يحتاجان إليه .

وقال مالك ، وأحمد : الرقاب للعبيد يشترون ويعتقون ، لرواية عن

ابن عباس : لا بأس أن يعتق الرجل من الزكاة ، وقال أبو حنيفة : لا يعتق بها رقبة كاملة ، لكن يعطى منها فى عتقها ، ويعان بها مكاتب ، وقال الزهرى : نصف للمكاتبين ونصف ليشترى به عبيدا قدم إسلامهم فيعتقون ، وعن مالك : يعتق العبد ويعان المكاتب ، والواضح ما ذهبنا إليه ، والشافعى : أن المراد إعطاء المكاتب ، لأن هذه الأصناف إنما تعطى لمنفعة المسلمين ، أو لحاجة فى أنفسها ، والعبد ليست له علة من هاتين ، ويدل له أيضا : « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » لكنه عبد عند الشافعى مالم يتخلص ، ويعجبنى قول ابن حبيب من المالكية بأنه فدى الأسارى من سهم الرقاب ومنعه غيره .

(والغَارِمِينَ) المدينين بلا إسراف ، ولا فساد ، ولا معصية ، ولم يكن لهم وفاء ، ولا صلاح ، سوى أن كانوا لأنفسهم أو لإصلاح ذات البين ، قلت : بل يعطى منها من دانوا بصلاح ذات البين ولو كانوا أغنياء لقوله صلى الله عليه وسلم : « لا تحل الصدقة لغنى إلا لخمسة : لغاز فى سبيل الله ، أو لغارم ، أو رجل اشتراها بماله ، أو رجل له جار مسكين فتصدق على المسكين ، فأهدى المسكين للغنى ، أو لعامل عليها » وأراد بالغارم من دان لإصلاح ذات البين ، وقيل لا تعطى لمن دان لنفسه ، وهو قول ضعيف ، وقيل : الغريم تباع عروضه وجميع ما يملك ، ثم يعطى بالفقر ولا يعطى منها من عليه دين الله ككفارة وحج وزكاة ليؤديه ، وقيل : تعطى وإنما الغارم من عليه دين يسجن فيه ، واختلفوا فى دين الميت هل يؤدى منها ؟ .

(وفى سَبِيلِ اللهِ) كالإنفاق على الغازى ، وشراء السلاح والدواب ة

وقيل : لا يعطى منها الغازى إلا إن كان ضعيفا ، وأجاز بعضهم الصرف من سهم السبيل فى بناء القناطر والمصانع ، بل فسر بعضهم السبيل هذا ، والذى أقول به : إن المراد أن يعطى منها الغازى نفقة وكسوة وحمولة وسلاحا ، ويبنى منها ما ذكر ، ويصرف منها على كل ما يعين على القتال ، كبناء الحصون للقتال ، ولا يعطى منها الحاج إلا إن كان فقيرا •

وزعموا عن ابن عباس ، وابن عمر : أنه يعطى منها ولو كان غنيا ، والحج سبيل الله ، ولا يعطى منها فى بناء مسجد ، أو شراء مصحف ، ونحو ذلك ، وقيل : إن اللفظ عام فيجوز صرفها فى وجوه الأجر كلها كشراء مصحف ، وكتاب ، وتكفين ميت ، وعمارة المسجد ، والجمهور على غير هذا •

(وابْنِ السَّبيلِ) المسافر فى مباح أو طاعة إذا انقطع به أعطى ، ولو كن غنيا فى بلده ، وقيل : هو من أراد سفرا مباحا ، أو فى طاعة ولم يجد ما يقطع به ، ولو كان له مال فى البلد الذى يقصده ، وقال قتادة : ابن السبيل الضعيف ، وقال أهل العراق : الحاج المنقطع ، وإضافة مذكور للسبيل لملابسته للسبيل ، ومن ادعى أنه غارم ، أو مكاتب ، أو ابن سبيل ، أو فى سبيل الله ، أو نحو ذلك لم يعط إلا ببينة ، وإن فضل عن هؤلاء ردوه فى مثلهم •

(فَرِيضَةً مِنَ اللهِ) مصدر مؤكد لمعنى الجملة ، لأن معنى « إنما الصدقات للفقراء » إلى آخره إيجابها لمن ذكر ، وقرىء بالرفع على أنه صفة خبر لمحذوف ، أى تلك فريضة ، ويجوز لى قراءة النصب كونه صفة حالا من ضمير الاستقرار فى قوله : « للفقراء » (واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) يضع الأشياء مواضعها •

(ومنهُم الَّذينَ يُؤذُونَ النَّبى) يضرونه ، هذا عام والعطف بعده عطف خاص على عام ، ويجوز أن يكون المراد بالإيذاء هو قولهم : إنه أذن ، فيكون العطف تفسيرا ، وهذا على مذهب مجيز عطف التفسير بالواو •

(ويقُولُون هُو أذنٌ) بضم الهمزة وإسكان الذال فى قراءة نافع ، سموه باسم آلة السمع مبالغة فى سماعه لكل ما يقال له ، كأنه بجملته أذن ، كما تقول : فلان أنف إذا كبرت أنفه ، وفلان عين إذا كبرت عينه ، أو اشتد نظرها أو كثر •

وقد سموا الجاسوس عينا ، وذلك مجاز مرسل من باب تسمية الكل باسم الجزء ، وهذا أولى من تقدير مضاف ، أى ذو أذن ، أى ذو أذن سامعة لما يقال له ، فيكون مجازا بالحذف ذا مرسلا ، ويجوز أن يكون اسما اشتقوه له من أذن يأذن أذناء بفتح الذال بمعنى استمع ، وقرأ الباقون بضم الهمزة والذال ، وكذا الثانى فيه القراءتان •

روى أن جماعة من المنافقين كانوا يؤذون النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال بعضهم : لا تفعلوا فإنا نخاف أن يبلغه ما تقولون ، فقال الجلاس ابن سعيد : نقول ما شئنا ثم نأتيه ونكرر فيصدقنا ، فإنما محمد أذن سامعة فنزلت الآية ، يريد أنه سريع الاغترار •

وقيل : اجتمع ناس من المنافقين : وقيل : بلغه ذمهم فضاقوا ، فقال بعضهم : هو أذن سامعة ، سمع المبلغ فإذا اعتذرنا سمع عذرنا ، منهم الجلاس بن سويد ذو الصامت ، ووديعة بن ثابت ، وأرادوا أن يقعوا

فى النبى صلى الله عليه وسلم وعندهم غلام من الأنصار يدعى عامر بن قيس ، فحقروه وتكلموا فقالوا : لئن كان ما يقول محمد حقا فنحن شر من الحمير ، فغضب الغلام وقال : والله إن ما يقول محمد حق ، وإنكم شر من الحمير ، ثم أتى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره فدعاهم ، فسألهم فحلفوا أن عامرا كاذب ، وحلف عامر أنهم كذبة ، وقال : اللهم لا تفرق بيننا حتى تبين صدق الصادق وكذب الكاذب ، فنزلت الآية وقوله : « يحلفون بالله لكم ليرضوكم » قال بعض : إن الجلاس تاب بعده .

وقيل : نزل ذلك فى نبتل بن الحارث ، وكان أحمر العينين ، منتف الشعر ، مشوه الخلقة ، وقال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أراد أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إليه » كان ينم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل له : لا تفعل ، فقال : إنما محمد أذن سامعة نائتة ، فنحلف له فيصدقنا ، فنزل ذلك ، وعن ابن عباس وجماعة : أن المعنى وصفهم إياه بالباطل ، لأنه يقبل فيهم ما سمع حاشاه عن الباطل .

(قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ) أى أنا أذن خير لكم ، ويجوز أن يقدر هو أذن خير لكم إخبارا عن نفسه بطريقة الغيبة تبعا لكلامهم ، فعلى الأول يكون ما بعد ذلك من كلام الله مستأنفا أو مفسرا ، وعن الثانى يكون كذلك ، أو من جملة كلام رسوله صلى الله عليه وسلم المأمون بأن يقوله ، وعلى كونه من جملة كلامه يكون خبرا آخر أو نعت أذن باعتبار أنه بمعنى سامع .

ويجوز النعت أيضا على الأول ، وذلك تصديق لهم فى قولهم : إنه أذن ، لكن على طريق القول بالموجب ، وهو تسليم كلام الخصم مع

استدراك عليه ، وقيل : تسليم الدليل مع بقاء النزاع ، فكأنه قيل : هو أذن كما تقولون ، لكن لا على الوجه الذى ذممتموه به إنه من حيث سامع خير ، وأضاف الأذن للخير لأنه يسمع الخير ، ولكم نعت لخير ، أو لأذن ، أو حال من أذن ، ووجه قوله : « لكم » أنه يسمع عذرهم فلا يعاقبهم ، أو يسمع ما يقولون عندهم فلا يراقبهم ، أو يسمع من الحق بألسنتهم ولا يفتش عما فى قلوبهم ، ويسمع الحق عن الله ، وهو منفعة لهم لو عملوا به ، وقرأ عاصم فى رواية عنه ، والحسن ، ومجاهد ، وعيسى بن عمرو ، بتنوين أذن ورفع خير على أنه نعت أذن أو خبر ثان .

(يُؤمنُ باللهِ) للدلائل (ويؤمنُ للمؤمِنينَ) يذعن لهم ويسلم لهم جزما فيما يقولون لما علموا من خلوصهم ، ولتضمينه معنى التسليم والإذعان عداه باللام ، بخلاف الأول ، فالمراد به التصديق فعداه بالباء ، ويجوز كون اللام بمعنى الباء ، وكونها صلة تأكيد فى المفعول ، أى ويؤمن المؤمنين أى يصدقهم ، والتصديق يتعدى بالباء وبنفسه ، ورحمة عطف على أذن ، أو خبر لمحذوف ، أى وهو رحمة ، وقرىء بالنصب على التعديل لمحذوف دل عليه أذن ، أى بأذن رحمة ، وقرأ حمزة ، وأبىّ بن كعب ، وابن مسعود ، والأعمش بالخفض عطفا على خبر على جر خير بالإضافة .

(ورحْمةٌ للذِينَ آمنُوا منْكُمْ) أى أظهروا الإيمان ، ووجه كونه رحمة لهم أنه يقبله عنهم تلطفا ورفقا لهم ، إن لم يأمره اللهُ بالتفتيش ، والخطاب للمنافقين ، ومن للبيان أو للمؤمنين ، ومن للتبعيض ، ووجهه أن المنافقين فى ظاهر أمرهم وفى زعمهم من المؤمنين أو للناس عموما ، فمن أيضا للتبعيض ، وعليه فالمراد الإيمان النافع ، ويهديهم الجنة أو مطلق إيمان .

(والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم) موجع لايذائه وهو عذاب الآخرة •

(يحلفون بالله لكم ليرضوكم) فى معاذيرهم ، والخطاب للمؤمنين إذا قالوا سواء ، أو تخلفوا عن الجهاد ، قالوا : والله ما قلنا ، والله ما تخلفنا إلا لعلة كما فعلوا فى شأن غزوة تبوك •

(والله ورسوله أحق أن يرضوه) الهاء عائدة إلى الله أو رسوله ، وإفراد الضمير لأن إرضاء أحدهما إرضاء للآخر أو لرسوله ، لأن الكلام فى إيذاء الرسول ، فليكن الكلام أيضا فى رضائه ، وقيل : عائدة إليهما معا وإفراد الضمير لتأويلهما بالمذكور ، أو أحق خبر لله ، ورسوله مبتدأ محذوف الخبر ، أى ورسوله كذلك ، أو ورسوله أحق أن يرضوه ، أو أحق خبر رسوله ، وخبر الله محذوف ، ونسب هذا لسيبويه ، ورجح بالقرب وعدم القصد بين المبتدأ والخبر ، وأخذ بعض من الآية أن يكرهوا جمع الرسول مع الله فى ضمير ، ويرده حديث : « من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى » وأن يرضوه على تقدير الباء ، أى بأن يرضوه لا فاعل لاسم التفضيل ، لأنه فى اللغة الفصحى لا يرفع ظاهرا أو ضميرا بارزا فى غير مسألة الكحل (إن كانوا مؤمنين) حقاً •

(ألم يعلموا) وقرأ الأعرج والحسن بالتاء خطابا للناس أو للمؤمنين ، متضمنا تهديد المنافقين ، كما قرأ أبى : ألم تعلم بالتاء والإفراد

خطابا له الله عليه وسلم وسلم على تمديديهم وإبعادهم ، أو قراءة الأعرج ، والحسن خطاب للمنافقين وهو أولى وأنسب بقراءة الجمهور •

(أَنَّه) أى الشأن (مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ ورسُولَه) يخالفهما ويجعل نفسه فى حد غير حدهما ، فذلك مفاعلة من الحد وهو الجانب (فإنَّ لهُ نَارَ جَهَنَّم) المصدر من خبر إن خبر لمحذوف ، أى فالواجب أو فجزاؤه ثبوت نار جهنم له ، أو مبتدأ محذوف الخبر مقدم عليه ، أى فواجب أو فحق ثبوتها أنه لا مؤخر كما قيل ، لأنه لا يخبر عن المصدر المسبوك من خبر إن بمؤخر ، والجملة جواب الشرط ، والمجموع خبر لأن الأولى ، وزعموا عن سيبويه أن الثانية بدل من الأولى بدل اشتمال ، ولم يصح لأنه لا يبدل من الشىء قبل استيفاء خبره ، ولأن الفاء تمنع البدل ، ولأنه لا معنى لهذا البدل ، وقيل : مؤكدة للأولى ، وجملة اسمها وخبرها جواب ، والمجموع خبر للأولى ، ويلزم عليه عدم التأويل بالمصدر مع وجود إذنه •

وزعم بعض أنه يجوز أن تكون الفاء عاطفة على أن الأولى وخبرها ، وأن الجواب محذوف ، أى يهلك ، والجواب والشرط هو خبر الأولى وقرأ ابن أبى عبلة بكسر إن الثانية ، ولا إشكال فيها ولا بحث •

(خالِداً) حال من ضمير الاستقرار فى خبر إن (فِيها) أى فى النار أو فى جهنم ، والأولى أولى ، لأن عود الضمير للمضاف أولى منه للمضاف إليه ، وإنما قال : لم يعلموا لتكرر ذلك عليهم ، حتى أنهم لا بد عالمون (ذَلكَ الخِزْىُ) مبتدأ أو خبر (العَظِيمُ) نعت للخزى ،

وهذا أولى من كون الخزى تابعا ، والعظيم خبر أو الإشارة للخلود فى فى النار .

(يَحْذَرُ المنافِقُون أنْ تُنزَّلَ عَلَيهم سُورةٌ تنبِّئُهم) فى حسد وعداوة للمؤمنين وباستهزائهم (بما فى قلُوبِهم) أى يخشى المنافقون أن ينزل على المؤمنين سورة تخبرهم بما فى قلوبهم من النفاق ، فيحذر بمعنى يخشى ، وأن تنزل مفعوله ، وقيل : التقدير من أن تنزل ، والهاء فى عليهم وتنبئهم عائدة إلى المؤمنين ، وفى قلوبهم عائدة إلى المنافقين ، ومعنى نزولها على المؤمنين نزولها على رسولهم ، فيقدر مضاف ، أو تعتبر أنها إذا نزلت قرءوها فكأنها نزلت عليهم ، وإسناد التنبئة إلى السورة مجاز ، ويجوز أن ترجع الهاء الثانية إلى المنافقين ، ويجوز رجوعهن كلهن إليهم .

ومعنى تنزيلها على المنافقين نزولها فى شأنهم ، والاحتجاج بها عليهم ، وكانوا يذكرون رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بسوء ، ويخافون أن يفضحهم نزول القرآن ، وكانوا يقولون : عسى الله أن لا يفشى سرنا فنزلت الآية ، وذلك منهم شرك عناد ، أو ترددوا فى الشرك ولم يحزموا بالإيمان .

قال بعض المنافقين : والله لوددت أنى قدمت فجلدت مائة جلدة ، ولا ينزل فيها شىء يفضحنا ، وقيل : ذلك إخبار فى معنى الأمر أى احذروا أيها المنافقون ، وعن أبى عمرو : أن تنزل بضم التاء وإسكان النون .

(قُلِ اسْتَهزِئوا) أمر تهديد (إنَّ اللهَ مخْرِجٌ مــــا كُنتم تَحْذرُون) أى مظهر ما تحذرون إظهاره من مساوئكم كاستهزائكم ، أو ما تحذرون من إنزال السورة •

(ولَئِنْ سَألتَهم ليَقُولُنَّ إنَّما كنَّا نخُوضُ) أصل الخوض الدخول فى المائع والطين ، وكثر استعماله حتى استعمل فى دخول كــل شىء ، وتلبس به وأكثروا استعماله فيما لا يعنى ، وفى ما هو ضار كما هنا (ونَلْعبُ) •

قال قتادة : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير فى غزوة تبوك ا وركب من المنافقين منهم وديعة بن ثابت يسيرون بين يديه ، فقالوا : انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتح قصور الشام وحصونه ، هيهات هيهات ، وقيل : مروا علىَّ فقال ذلك ، وعليه القاضى ، فأطلع الله نبيه على ذلك فقال : « احبسوا علىَّ الركب » فأتاهم فقال : « قلتم كذا وكذا » وقيل دعاهم فقال لهم ، وعليه القاضى ، فقالوا : يا نبى الله لا والله ما كنا فى شىء من أمرك ولا من أمر أصحابك ، ولكن كنا فى شىء مما يخوض فيه الركب ، ليقصر بعضنا على بعض السفر •

وعن الكلبى ومقاتل : أنهم ثلاثة اثنان يقولان : يزعم محمد أنه نزل فى أصحابه قرآن أيما هو كلامه ويستهزآن به وبالقرآن ، والثالث يضحك ، وعن الكلبى : أنهم أربعة يضحكون ، وذلك فى الذهاب إلى تبوك ، وقيل فى الرجوع •

روى أنه صلى الله عليه وسلم بعث عمار بن ياسر إليهم فقال :

« أدركهم قبل أن يحترقوا واسألهم مم يضحكون ويستهزئون فسيقولون مما يخوض فيه الركب ؟ » فسأل فقالوا ذلك ، فقال : صدق الله وجاء واحد منهم يحلف أنه ما قال ، وكان يضحك فقط ، وكان صادقا ولم يقبل اعتذار الآخرين وذلك الضاحك ، هو مخشن وكان مسلما زل بضحكه فقط ، وربما نهاهم عن بعض ما قالوا ، وقيل : لم ينههم ، وقيل : منافقا ثم أسلم ، وقيل : قالوا كأنكم غدا فى الحبال أسرى لبنى الأصفر ، فقال لعمار : « أدركهم قد احترقوا وأخبرهم بما قالوا » فنزلت .

وقيل : قال وديعة بن ثابت فى جماعة من المنافقين : ما رأيت كقرائنا هؤلاء أرغب بطونا وأكثر كذبا ، ولا أجبن عند اللقاء ، ونزلت فعنفهم فقالوا : كنا نخوض ونلعب ، وقيل : قال ذلك لعوف بن مالك ، فقال له : كذبت ولكنك منافق ، وأراد أن يخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فذهب فوجد القرآن قد سبقه ، قال ابن عمر : رأيت وديعة متعلقا بحقب ناقة رسول الله يماشيها ، والحجارة تنكبه يقول : إنما كنا نخوض ونلعب ، ويقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون » كما أمره الله أن يقول لهم إذ قال :

(قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ) وقول النقاش : إن المتعلق بحقيها عبد الله بن أبى سهوة ، لأنه لم يشهد تبوك ، وما خرج إليه ، وقيل : إن رهطا من المنافقين منهم وديعة ، ومخشن بن حمير بتشديد الياء ، وقيل : اسمه مخاشن ، وقيل : مخشى ، وقيل : مخشى بن حمير بتخفيف ياء حمير لتصغير الثلاثى ، قالوا مشيرين

إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه : أتحسبون جلاد بنى الأصفر كقتال العرب ، والله لكأنا بكم مقرنين فى الحبال إرجافا وترهيبا ، فقال مخشن : والله لوددت أنى أقاضى على أن يضرب كلا منا مائة جلدة ، ولا ينزل فيها قرآن ، فقال صلى الله عليه وسلم لعمار : « أدركهم فإنهم قد احترقوا فإن أنكروا فقل بل أنتم كذا وكذا » فجاءوا معتذرين ، وتعلق وديعة بحقبها ، ونزلت الآية .

وقال مخشن : يا رسول الله قعد بى اسمى واسم أبى ، فعوفى عنه فتسمى عبد الرحمن ، وسأل الله أن يقتل شهيدا لا يعلم بمكانه ، فقتل يوم اليمامة ، وهو الذى سار معهم يضحك ولا يقول معهم ، وينكر بعض ما يسمع ، وحلف على ذلك برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يوجد جسده .

وعن ابن كيسان : نزل : « قل استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون » فى اثنى عشر رجلا ، وقفوا متنكرين أعلى العقبة ، ليفتكوا برسول الله صلى الله عليه وسلم فى ليلة مظلمة حين رجع من تبوك ، وكان استهزاؤهم إهانتهم به صلى الله عليه وسلم ، حتى أرادوا قتله ، فاخبره جبريل عليه السلام ، وأمره أن يرسل من يضرب وجوه رواحلهم ، فأمر حذيفة ، وكان يسوق ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعمار يقودها ، فضربها حتى نحاها عن الطريق ، فقال : « هل عرفت منهم أحدا ؟ » فقال : لا يا رسول الله فقال : « هم فلان وفلان » حتى عدهم ، فقال : هلا بعثت من يقتلهم ؟ فقال : « أكره أن تقول العرب قتل أصحابه بل يقتلهم الله بالدبيلة من النار فى أكتافهم ، تخرج من صدورهم ، وهم منافقون لا يدخلون الجنة ولا يريحونها حتى يلج الجمل فى سم الخياط » وفى رواية ثمانية منهم

تكفيهم الدبيلة ، والاستفهام توبيخ على استهزائهم بمن لا يصح الاستهزاء به ، وإلزام الحجة عليهم أنه لا يعبأ باعتذارهم لأنه كذب .

(لا تعْتَذروا) أى لا تشتغلوا باعتذاركم ، فإنه لا ينفعكم لكذبه ، والاعتذار ذكر ما يزيل الغضب من قلب المعتذر إليه ، ويقطع اللوم (قَدْ كَفرْتُم) كفر شرك بما أظهرتم (بَعْد إيمانِكُم) الذى لم يخلص عن كبائر النفاق ، هذا على مشهور المذهب ، وقيل : إن المنافقين مشركون على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالمعنى قد أظهرتم الكفر ، أى الشرك الذى أضمرتموه بعد إيمانكم بألسنتكم .

(إنْ نعْفُ عَنْ طائفةٍ) قيل : المراد بها واحد لجواز إطلاقها على الواحد فى اللغة وهو مخشن ، لأنه تاب فعفا الله عنه دنيا وأخرى (منْكُم) خطاب لهؤلاء المستهزئين ، وقيل : الطائفة الجماعة ، والخطاب للمنافقين ، والمعنى إن يعف عن طائفة فى الدنيا والآخرة لتوبتهم وإخلاصهم ، أو فى الدنيا لتركهم الإيذاء ، والاستهزاء ، والنائب الجار والمجرور بواسطة الجار، ولذلك قيل : يعفو بالتحتية ، لأنه لايقال سيرت بالدابة ولا مرت بهند ، وقرأ مجاهد بالفوقية ، وهو غريب إذ ليس المعفو الطائفة ، وكأنه نظر إلى معنى أن ترحم طائفة ، أو فى تعف ضمير الذنوب ، كأنه قيل : إن تعف هذه الذنوب ، وقرأ الجحدرى بالتحتية والبناء للفاعل ، أى إن يعف الله ، وعاصم ، وزيد بن ثابت ، وأبو عبد الرحمن بالنون والبناء للفاعل .

(نُعَذّبْ طائفةً بأنَّهم) أى لأنهم (كانُوا مجْرمينَ) مصرين على النفاق فيعذبون فى الآخرة ، أو على الإيذاء والاستهزاء فيعذبون فى

الدنيا أيضا ، وقرأ الجحدرى : يعذب بالتحتية والبناء للفاعل ، أى الله ونصب طائفة ، وقرأ عاصم ، وزيد ، وأبو عبد الرحمن نعذب بالنون كذلك ونصب طائفة .

(المنافِقُون والمنَافِقات بعْضُهم مِنْ بعْضٍ) أى متآلفون مجتمعون على المعاصى ، متشابهون فيها كأبعاض الشىء الواحد ، كما يقول : أنا منك وأنت منى ، يريد أنكما متوافقان ، كما تقول : القفا من الرأس ، تريد أن حكمهما فى القصاص واحد ، والأذنان من الرأس ، تريد أن وضوءهما مع الرأس لا مع الوجه ، وقيل : ذلك تكذيب لحلفهم إنهم لمنكم ، وتقرير لقوله : « وما هم منكم » .

(يأمرُونَ بالمنْكَر) الكفر والمعاصى (وينْهَوْنَ عَنِ المعْروفِ) الإيمان والطاعة ، وذلك مضاد لأحوال المؤمنين ، فليسوا منهم . (ويقْبِضُون أيْديَهم) كناية عن تباعدهم عن أعمال الخير كالصدقة والإنفاق فى سبيل الله ، وما أتوه منها لم يكملوه .

(نَسُوا اللهَ فَنَسيهمْ) تركوا ذكر الله وطاعته ، فتركهم من فضله ورحمته وخذلهم ، والنسيان بمعنى الترك حقيقة ، ويجوز أن يكون المراد تركوا أمره حتى صاروا بمنزلة من ذهب شىء عن حافظته ، فجازاهم بأن صيرهم بمنزلة المنسى عن ثوابه وفضله ، فتكون فى ذلك مبالغة ، إذا بلغ وجوه الترك الوجه الذى يقترن به لنسيان مزاوجة فى قوله : « فنسيهم » مثل : « يخادعون الله وهو خادعهم » (إنَّ المنافِقينَ هُم الفَاسِقُونَ) الكاملون فى الخروج عن دائرة الخير والطاعة .

(وَعَدَ اللهُ المنافقينَ والمنافقاتِ والكفَّارَ) المشركين (نارَ جَهَنَّم) يجوز استعمال وعد فى الشر عند القرينة كما هنا ، ومن فسر النفاق بإسرار الشرك فسر الكفار بالمظهرين الشرك (خَالدِينَ) حال مقدرة (فِيها هِيَ حَسْبُهم) كافية عقابا وجزاء ، بحيث إنه لا شىء أبلغ منها •

(ولَعَنَهم) أهانهم وأبعدهم عن الخير ، والعطف على وعد الله (ولَهم عَذابٌ مُقيمٌ) دائم وهو عذابهم فى النار ، ولا تكرار فى ذلك ، لأن كونهم فى النار خالدين فيها غير تعذيبهم دائما ، ولو كانا متلازمين ، أو هو عذابهم بالزمهرير أو غيره مما هو غير النار ، نعوذ بالله من سخطه وعذابه ، أو هو عذابهم فى الدنيا لا ينفكون عنه ، وهو ما يقاسونه من تعب النفاق ، والظاهر المخالف للباطن خوفا من المسلمين ، وما يحذرون من نزول الفضيحة والعذاب •

(كالَّذينَ مِن قَبْلكُم) خبر لمحذوف أى أنتم مثل الذين ، أو ثابتون كالذين ، أو مفعول لمحذوف أى فعلهم مثل ما فعل الذين ، أو نعت لمفعول محذوف ، أى فعلا ثابتا كفعل الذين ، أو متعلق بوعد أو مفعول مطلق له ، أى وعدا ثابتا كوعد الذين ، أو وعدا مثل وعد الذين ، وفى الثلاثة ضعف والخطاب للمنافقين على طريق الالتفات ، أو على تقدير القول ، أى قل لهم : أنتم كالذين من قبلكم ، وقيل : الخطاب لهم وللمشركين •

(كانُوا أشدَّ منكُم قوةً وأكْثَرَ أموالاً وأولاداً) قيل : بيان للتشبيه ، والواضح أن التشبيه فى الأمر بالمنكر وما بعده ، وعلى الأول

فالمراد التشبيه فى جمع الدنيا ، والإعراض عن الآخرة ، فكان هذا بيانا له ، وعلى الثانى فالمراد بيان أن من قبلهم كانوا بهذه الصفة مدة ولم تدفع عنهم موتا ، بل ماتوا إلى عذاب مقيم فكذلك أنتم •

(فاسْتَمتَعُوا) انتفعوا (بخَلاقِهِم) نصيبهم من ملاذ الدنيا ، معرضين عن الآخرة ، وهو من الخلق بمعنى التقدير ، فهو ما قدر لصاحبه ، وقيل : أصله من قولك فلان خليق بكذا (فاستَمتعتم بخَلاقِكُم كما استَمتعَ الَّذينَ مِنَ قَبْلكُم بخَلاقِهِم) أى اتبعتم آثارهم فى الاستماع ، وقد علمتم ما صاروا إليه من العاقبة ، فستصيرون إلى مثل ما صاروا إليه ، وفائدة قوله : « كما استمع الذين من قبلكم » مع غنى قوله : « فاستمعوا بخلاقهم » عنه ربط فعلهم بفعل من مضى قبله بالتشبيه ، ليترتب عليه ما ترتب على فعل هؤلاء الماضين ، هذا ما ظهر لى بفضل الله ، وقيل : فائدة التمهيد لذنب المخاطبين بمشابهة هؤلاء كقولك : أنت مثل فرعون ، كان يقتل بغير حق ، ويعذب بغير جرم ، فأنت تفعل مثل ما فعل ، قيل : فالتكرير للتأكيد وتقبيح فعلهم وفعل من شابههم •

(وخُضْتم كالَّذى خاضُوا) الذى اسم موصول واقع على الخوض ، والرابط ضمير محذوف يعرب مفعولان مطلقا أى كالخوض الذى خاضوه ، أى خوضا ثابتا كالخوض الذى خاضوه ، أو خوضا مثل الخوض الذى خاضوه ، أو الذى واقع على الفريق ونحوه ، أى كالفريق الذى خاضوا ، روعى لفظ المنعوت فى الذى ، ومعناه فى الصلة ، أو المراد بالذى الجنس لا ما قيل : إن الأصل الذين فحذفت النون على لغة ، ولا كما قال

الأخفش : إن الذى موصول مشترك ، ولا كما قيل : إن الذى موصول حرفى هنا ، أى وخضتم كخوضهم •

(أولئكَ حَبِطَت أعمالُهم فى الدُّنيا والآخِرة) بطلت ولم يكن لها ثواب ، والإشارة إلى الماضين الموصوفين بالشدة ، فأنتم كذلك تحبط أعمالكم ، أو إليهم وإلى المنافقين والمشركين المعاصرين لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وقيل : الخطاب فى : استمتعتم وخضتم لمشركى قريش دون المنافقين ، والإشارة لكل مشرك ومنافق ، ومعنى حبطت أعمالهم أن أعمالهم باطلة ليست مما يعتد به ، ويثاب عليه ، لأنها معاص ، أو إنَّ ما عملوه من أعمال حسنة لا تنفعهم فى الدنيا بأن لا تقيهم من قتل وسبى ، ولا فى الآخر ، وهذا الوجه الثانى ، على أن الإشارة للمشركين انتهى •

إن المنافقين أيضا لا ينتفعون بأعمالهم فى الدنيا لما يصيبهم من المقت والغمص عليهم (وأولئكَ هُم الخاسِرُون) دنيا وأخرى •

(ألَمْ يأتِهِم نَبَأُ) خبر (الَّذينَ مِنْ قَبْلهم قَومِ) بيان بيان أو بدل (نُوحٍ) أهلكوا بالماء (وعادٍ) بالريح (وثمود) بالرجفة (وقَوْم إبْراهِيم) أهلك النمرود منهم بالبعوض ، وسلبت نعمهم (وأصْحابِ مَدْيَن) قوم شعيب بالنار يوم الظلة (و) القرى (المؤتَفِكاتِ) أى المنقلبات ، صار عاليها سافلها ، وأمطروا حجارة من سجيل ، وهى قرى قوم لوط ، وقيل : القرى المنقلب أحوالهن من خير إلى شر ، وهى قرى المكذبين مطلقا •

(أتتْهُم رسُلُهم بالبيّناتِ) الضميران لهؤلاء كلهم ، وقيل :

لأهل المؤتفكات ، ويرده أن لهم رسولا واحدا لا رسلا وهو لوط عليه السلام ، إلا أن يقال : المراد بالرسل لوط ورسله ، فإنه كان يرسل إلى أهل كل قرية رسولا ، أو المراد بالمؤتفكات قرى المكذبين كما مر ، كقرى قوم لوط وهود وصالح والأول أبين .

(فَما كانَ اللهُ ليظلمهم) بالعذاب والإهلاك بلا جرم (ولكِنْ كانُوا أنفُسَهم يَظْلمون) إذ عرضوها للعذاب والإهلاك بالكفر والمعاصى ، فاحذروا أن يصيبكم مثل ما أصابهم ، وخص ذكر هؤلاء لبقاء أثرهم بالشام والعراق واليمن ، والعرب تشاهده ، ثم ذكر الله سبحانه أمر المسلمين ترغيبا فيه ، وصرفا عن أمر غيرهم لقوله :

(والمؤمنُون والمؤمِنات بعضُهم) بدل اشتمال أو مبتدأ ثان (أولياءُ بعضٍ) بالنصر والمعونة والموافقة ، وهذا مع ما بعده مقابل لقوله : « المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض » الخ ، لكن قال فيهم : « بعضهم من بعض » لأن كفرهم حصل باتباع الأكابر ، ومقتضى الطبيعة ، بخلاف المؤمنين فإيمانهم بتوفيق الله ، لا بمقتضى الطبيعة .

(يأمُرونَ بالمعْروفِ) المستحبات والواجبات ، (وينْهوْنَ عنِ المنْكَر) المعاصى والكفر ، ذكر الطبرى عن أبى العالية أنه كلما ذكر الله فى القرآن من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فأمر بعبادة الله وتوحيده ، وكل ما اتبع ذلك ونهى عن عبادة الأصنام والشياطين .

(ويُقيمُون الصَّلاة) المفروضة وهى المناسبة لقوله : (ويؤتُون الزَّكاةَ) بطيب نفس ، ولو قيل : المراد النوافل لصح إذ المدح بالنوافل

أبلغ لأن مقيمها أحرى لإقامة الفرض (ويطيعون الله ورسوله) فى سائر الأمور •

(أولئك سيرحمهم الله) أى سيثيبهم فى الدنيا بالغلبة الكاملة والنصر ، وفى الآخرة بالجنة ، فالسين لمجرد الاستقبال كذا قيل ، وقال جار الله : السين مفيدة ، وجود الرحمة لا محالة ، فهى تؤكد الوعد كما تؤكد الوعد فى قوله : سأنتقم منك يوما ، أى لا تفوتنى وإن تباطأ عنك ذلك ، قال ابن هشام : زعم الزمخشرى أنها إذا دخلت على فعل محبوب أو مكروه أفادت أنه واقع لا محالة ، ولم آمر من فهم وجه ذلك ، ووجهه أنها تفيد الوعد بحصول الفعل بدخولها على ما يفيد الوعد أو الوعيد ، وتقتضى توكيده ، وتثبت معناه ، أومأ إلى ذلك فى البقرة وصرح به فى براءة •

(إن الله عزيز) غير مغلوب عما أراد من ثواب وعقاب وغيرهما (حكيم) واضعا كلا موضعه •

(وعد الله المؤمنين والمؤمنات) هذا ذكر لوعد المؤمنين ، كما ذكر وعيد غيرهم (جنات تجرى من تحتها) أى من أشجارها ، أو من تحت علياتها ، أو تحت مجالسها وفرشها (الأنهار) فإن ماء الجنة يطلع إلى فوق ولا يتفسح ، ويجرى تحت الفراش ، أعنى قربه ولا يبله ، وإذا أراده السعيد طلع إليه فى فراشه •

(خالدين فيها ومساكن طيبة) تستطيبها النفس ، أو يطيب فيها العيش ، قال الحسن : سألت عنها عمران بن الحصين وأبا هريرة

فقالا : على الخبير سقطت ، سألنا عنها رسول الله صـــلى الله عليه وسلم فقال : « لكل مؤمن قصر من لؤلؤ فيه سبعون دارا من ياقوتة حمراء ، فى كل دار سبعون بيتا من زمردة خضراء ، فى كل بيت سبعون سريرا ، على كل سرير سبعون فراشا من كل لون ، على كل فراش زوجة مـــن الحور العين ، وفى كل بيت سبعون مائدة ، على كل مائدة سبعون لونا من طعام ، وفى كل بيت سبعون وصيفة ، ويعطى المؤمن من القوة ما يأتى على ذلك كله أجمع » .

وعن ابن عباس : الخيمة درة مجوفة فرسخ فى فرسخ ، لها أربعة آلاف مصراع من ذهب ، وعن أبى موسى الأشعرى : أن الرجل من أهل الجنة تكون له الخيمة طولها فى السماء سبعون ميلا ، وأن له فيها الأهل يطوف عليهم لا يشعر بهم الآخرون ، وعن الحسن : أدنى أهل الجنة آخرهم دخولا ، فينظر مسيرة مائة ألف سنة كلها له معمورة ، قصور ذهب وفضة ، وخيام لؤلؤ وياقوت ، فيها أزواجه وخدمه ، يُغْدَى عليه كل صباح ورواح بسبعين ألف صحيفة ذهب ، فى كل منها لون ليس فى الأخرى ، يأكل من آخرها كما يأكل من أولها ، لو نزل عليه الجن والإنس فى غداء واحـــد لوسعهم ، ولم ينقص شيئا .

والآية تحتمل أن لكل مؤمن أو مؤمنة جنات ومساكن ، وتحتمل أن لهم ذلك موزعا ، بينهم لكل منهم نصيبه ، ويكون أيضـــا لكل واحد جنـــات ومساكن ، بدليل الأحاديث ، فالماصدق واحد ، ولو اختلف المقصدان ، وأجاز بضهم أن يكون المراد بالجنات ما يشبه المساكن ، أو بالمساكن مـــا يشمل الجنات ، فيكون العطف لتغاير وصف الجنان ، ووصف المساكن ، وأولى خلافه ، والتغاير موجود وجودا بينا على خلاف ذلك .

وعلى كل فوصف الموعود به أولا لما يميل إليه الطبع أول السماع وهو الجنان ، ثم ذكر أنه فى أماكن طيبة العيش ، عارية عما يكون فى الدنيا ، ويجوز أن يكون طيبة نعمتان لجنات ومساكين جميعا ، ثم ذكر أن ذلك فى دار إقامة وثبات لا رحيل فيها ولا زوال ، إذ قال :

(فى جَنَّاتِ عَدْنٍ) أى إقامة وخلود ، ثم ذكر ما هو أكبر من ذلك كله وهو الرضوان ، قال أبو الدرداء ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عدن دار الله التى لم ترها عين ، ولم تخطر على قلب بشر ، لا يسكنها غير ثلاثة : النبيون والصديقون والشهداء ، يقول الله سبحانه وتعالى : طوبى لمن دخلك » قال عبد الله بن عمرو بن العاص : هو قصر حوله بروج ومروج ، له خمسة آلاف باب ، وعن الضحاك : جنات عدن هى مدينة الجنة ، فيها الأنبناء ، والعلماء ، والشهداء ، وأئمة العدل ، والناس حولهم بعد ، والجنات حولها .

وعن الحسن : عدن قصر فى الجنة لا يدخله إلا نبى ، أو صديق ، أو شهيد ، أو حاكم عدل ، ومد بها صوته ، قال ابن مسعود : بطنان الجنة أى وسطها ، وقال عطاء : نهر فى الجنة جنانه على حافتيه ، وقال الكلبى : أعلى درجة فى الجنة فيها عين التسنيم والجنان حولها ، وهى مغطاة من حين خلقت حتى ينزلها أهلها ، وهم الأنبياء ، والصديقون ، والشهداء ، والصالحون ، ومن شاء الله ، فيها قصور الدرر ، والياقوت ، والذهب ، تهب ريح طيبة فتدخل كثبان المسك الأبيض وتأتيهم .

وقيل : الآية تأبى التخصيص ، إذ وعد الله بها جميع المؤمنين ، والجنان كلها جنات عدن ، أى إقامة ، إذ الإفناء لواحدة ، ولا رحيل

فيها وهو الواضح ، ولو اشتهر الأول ، بل قيل : جنات عدن علم بدليل الوصف بالمعرفة فى قوله تعالى : « جنات عدن التى وعد الرحمن عباده » ولا دليل فيه لجواز البدلية .

(ورِضْوانٌ مِنَ الله أكْبرُ) من ذلك كله ، لأنه مبتدأ كل سعادة وكرامة وقول ، ولأن النعم تتم به ، إذ لا لذة لعبد فى نعمة تتنغص عنه بغضب مولاه ، فهو فى نفسه أكبر ، ولأنه تعالى يوصل إلى قلوبهم بواسطة علمهم برضاه ما هو الذى عندهم من جميع النعم ، وأقر لأعينهم من كل شىء كما روى عن الحسن .

وفى الحديث ، عن جابر بن عبد الله ، وأبى سعيد الخدرى ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله جل جلاله : يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك ربنا وسعديك ، والخير فى يديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : يا ربنا ما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا ، فيقول : ألا أعطيكم أفضل من هذا ؟ : وفى رواية سأعطيكم ، فيقولون : أى شىء أفضل من هذا ؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم أبدا » وتنكير الرضوان للتعظيم أو الواحدة ، أى رضوة واحدة من جنس رضاه أكبر من ذلك كله .

(ذلك) الرضوان أو المذكور كله (الفَوْزُ) الخلاص من كل مكروه ، والاتصال بكل محبوب (العَظيمُ) الذى تستحقر دونه الدنيا وما فيها .

(يا أيُّها النَّبى جاهِدِ الكُفَّارَ) بالسيف والسلاح (والمنافِقِينَ) بإقامة الحدود ، قال الحسن ، وقتادة : كان أكثر من يصيب الحدود يومئذ

المنافقين ، ولذلك خصوا بالذكر بإقامة الحد وإلزام الحجة ، وقال ابن عباس ، والضحاك : باللسان ، وإذهاب الرفق عنهم ، وقال ابن مسعود : بالسيف إن قدرت ، وإلا فباللسان ، وإلا فبالقلب ، وإظهار الغضب فى الوجه عليهم ، واختاره الطبرى ، لأن الجهاد عبارة عن بلوغ الجهد ، وبذله ما أمكن ولو بالانتهار ، ولكن القتل لا يكون إلا مع إظهار ما يخالف الإيمان ، مع إصرار وإقرار ، ولذلك تركهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة ، لأنهم يدعون الإيمان ، وإذا ظهر من واحد خلافه أنكر واعتذر ، وكان فى تركهم حياطة للإسلام ، وأن لا تنفر العرب بقتل من يظهر الإسلام .

(واغْلُظْ عَلَيهِم) على كلا الفريقين فى جهاده ، وعن الكلبى : اغلظ على المنافقين بالقول (ومأْوَاهُم) مرجعهم (جَهَنَّم وبئسَ المصيرُ) مصيرهم ، أو مأواهم ، أو جهنم ، والماصدق واحد ، وقد مر أن الجلاس ابن سويد وغيره قالوا بحضرة عامر بن قيس ، مستحقرين له لصغره : لئن كان ما يقول محمد حقا لنحن شر من الحمير ، فأخبره عامر ، وانكروا وحلفوا فنزل :

(يحْلِفُونَ باللهِ ما قالُوا) ما ذكر عنهم (ولَقَد قالُوا كَلمَةَ الكُفْر) هى قولهم : لئن كان ما يقول محمد حقا لأنه كناية عن كونه غير حق ، أو شك فى كونه حقا وقيل : قالوا ذلك لأنهم لم يفطنوا بمكان عامر ، وذلك أنه قام بغزوة تبوك شهرين ، ينزل عليه القرآن ، ويعيب المنافقين المتخلفين ، وخطب يوما بأنهم رجس ، وقال الجلاس ذلك ، وحلف بأمر رسول الله عند المنبر بعد العصر بالله الذى لا إله إلا

هو ما قال ، وإن عامرا كاذب علىّ ، وحلف عامر كذلك أنه قال وما كذبت ، فنزلت الآية إلى : « وإن يتوبوا يكُ خيراً لهم » فقام الجلاس وقال : أسمع الله قد عرض علىّ التوبة ، صدق عامر ، لقد قلت ، وأنا أستغفر الله وأتوب إليه ، وقبل ذلك منه وحسنت توبته .

وقيل : أقبل الجلاس من قبائل معه ربيبه واسمه عمير بن سعد عند ابن إسحاق ، وقال عروة : اسمه مصعب ، وقيل : معه غيره وهما على حمارين ، فقال : لئن كان ما يقول محمد فى إخواننا حقا لنحن شر من الحمر ، وقيل : من حمرنا هذه إن هم إلا كبراؤنا وسادتنا ، فأخبر الذى معه رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال ، وخاف أن يخلط فى خطبته معه ، فحلف فكذبته الآية .

وعن ابن عباس : جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ظل حجرة فقال : « إنه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعينى شيطان ، فإذا جاء فلا تكلموه » فطلع رجل أزرق فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « علام تشتمنى أنت وأصحابك ؟ » فانطلق فجاء أصحابه فحلفوا بالله ما قالوا وفعلوا ، حتى تجاوز عنهم ، فنزلت .

وقال قتادة : نزلت فى عبد الله بن أبى بن سلول ، وذلك أن سنان ابن وبرة حليف الأنصار ، وكان من جهينة والجهجاه الغفارى ، كسع أحدهما رجل الآخر فى غزوة المريسع فصاح الجهجاه : يا للأنصار ! وصاح سنان : يا للمهاجرين ! وقد ظهر الغفارى على الجهنى ، فثار الناس ، وقال عبد الله : انصروا أخاكم ، فوالله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل : سمن كلبك يأكلك ، ولئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ،

وأسكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بينهم ، وبلغتهم مقالة عبد الله ، فدعاه فأنكر وحلف .

وقيل خلوا في غزوة تبوك فسبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وطعنوا فى الدين فنقل ذلك حذيفة رضى الله عنه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أهل النفاق ما بلغنى عنكم ؟ » فحلفوا ما قالوا فنزلت ، وكلمة الكفر على كل قول هو ما قال المنافقون .

(وكَفَرُوا بَعْدَ إسْلامهم) أى أظهروا الكفر بعد الإسلام الذى فى ألسنتهم (وهمّوا بما لَمْ ينَالُوا) هو ما مر أن اثنى عشر هموا بقتله ليلة العقبة فى مرجعه من تبوك ، وقيل خمسة عشر توافقوا أن يدفعوه عن راحلته إلى الوادى من العقبة ، فقاد عمار راحلته وساقها حذيفة ، وسمع حذيفة بأخفاف الإبل وقعقعة السلاح ، فقال : إليكم إليكم إليكم يا أعداء الله فهربوا .

وقيل : همّ الجلاس بقتل من سمع مقالته لئلا يفشيها ، وسند هذا القول ضعيف ، وقيل : هو هم عبد الله بإخراج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من المدينة إذا رجعوا إليها ، وقال السدى : هو همّ المنافقين أن يعقدوا على رأس عبد الله تاجا إذا رجعوا إليها ، وإن لم يرض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال الحسن : همهم بإظهار الشرك ، وقال مجاهد : همّ قوم من قريش بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونقول : هذا لا يناسب الآية .

(وما نَقَمُوا) وقرأ ابن أبى عبلة بكسر القاف وهو لغة ، وقد مر

فى الأعراف والمعنى ما أنكروا وما عابوا (إِلا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ ورسُولُهُ مِنْ فَضْلِه) هذا الاستثناء من تأكيد المدح بما يشبه الذم كقوله :

ولا عيب فيهم غـير أن سـيوفهم
بهن فلول مـن قـراع الكتـائب

وهو مفرغ ، والتفريغ من محذوف عام إلى مفعول ، أى ما نقموا شيئا إلا غناء الله ورسوله إياهم ، أو إلى تعليل أى ما نقموا لشىء إلا لئن أغناهم ، وكان عليهم أن يتذكروا ذلك الإغناء ونشكروه ،وقابلوه بالكفران ، المعنى أو ما وجدوا ما يورث نقمتهم إلا أن أغناهم الله ورسوله ، كان أكثر أهل المدينة محاويج لا يركبون الخيل ، ولا يحوزون الغنيمة ، ولما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم تمولوا بالغنائم ، وكانت للجلاس دية معطلة من مولى له قتله مولى من بنى عدى ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد قدومه بديته اثنى عشر ألف درهم فاستقضاها ، وقيل : كانت لعبد الله بن أبى ، فأخرجها له .

(فإِنْ يتُوبُوا) من كفرهم ونفاقهم (يكُ) التوب (خيراً لَهم) نفعا فى العاجل والآجل (وإِنْ يتَوَلَّوا) يعرضوا عن التوبة (يُعذِّبهم اللهُ عذاباً أليماً فى الدُّنيا) بالخزى والإذلال والقتل (والآخِرةِ) بالنار (ومَا لَهم) فى الأرض على الإطلاق ، أى فى أرض المدينة حيث كانوا ، فإذا لم يكن لهم فى ذلك لم يكن لهم فى سـائر الأرض بالأولى (مِنْ ولىٍّ) يمنعهم من وقوع العذاب (ولا نَصيرٍ) يدفعه عنهم بعد نزوله .

(ومنهم من عاهد الله) أعطى له عهدا وهو بمنزلة حلف لله فقوله : « لنصدقن » جوابه وجواب إن محذوف ، وهذه اللام للتأكيد والأولى تمهيد للجواب ، أو يقدر قسم مفسرا لهذا العهد واللام الأولى مؤذنـــة .

(لئن آتانا من فضله لنصدقن) نخـــرج الصدقة الواجبـــة والنافلة ، ونصل الرحم ، ونعمل فيه بالبر ، وقيل : أراد الصدقة الواجبة فقط (ولنكونن) وقرئ بإسكان النونين فى الموضعين ، وقرأ الأعمش بإسكانها فى الثانى فقط (من الصالحين) فى سائر الأعمال ، وقيل : فى حق المال فرضا ونفلا ، وعن ابن عباس أراد بالصلاح الحج ، ولعله أراد التمثيل لسائر أعمال الطاعة ، قالت فرقة : كان ذلك العهد شيئا نووه فى قلوبهم ، لم يتكلموا به أو المشهور خلافه .

عن ابن عباس : نزلت فى ثعلبة بن حاطب الأنصارى ، أتى مجلسا للأنصار فقال : لئن أتانا من فضله أخرجت الحقوق ، وتصدقت ، ووصلت ، فورث ابن عمه ولم يف بما وعد ، وقال الحسن ، ومجاهد : فيه وفى معتب بن قشير ، وهما من بنى عمرو بن عوف ، نذرا لئن رزقنا لنصدق فرزقها وبخلا ، وقيل : فى حاطب بن أبى بلتعة أبطأ ماله بالشام ، فحلف لئن تفضل الله به إليه ليصدقن ، ، ولما آتاه بخل .

والمشهور أنها فى ثعلبة ، وأنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له ادع الله أن يوتينى مالا ، فقال صلى الله عليه وسلم : « يا ثعلبة قليلا تؤدى شكره خيره من كثير لا تطيقه » ثم أتاه بعد ذلك فعاوده ذلك فقال صلى الله عليه وسلم : « ويحك أما لك فى رسول الله أسوة حسنة ،

والذى نفسى بيده لو أردت أن تسير معى الجبال ذهبا وفضة لسارت » ثم أتاه فعاوده وحلف بالذى بعثه بالحق : لئن رزقنى لأعطين كل ذى حق حقه ، فقال : « اللهم ارزق ثعلبة مالا » فنمت كما ينمى الدود ، فضاقت المدينة بها ، فنزل واديا من أوديتها ، وكان ما يصلى مع رسول الله إلا الظهر والعصر ، ثم ضاق الوادى فتباعد حتى لا يشهد إلا الجمعة ، ثم تباعد لفرط نموّها حتى لا يشهدها ، وكان يخرج يوم الجمعة يتلقى الأخبـــار .

وذكره يوما صلى الله عليه وسلم قال : « ما فعل ثعلبة ؟ » فقيل له : إن له غنما لا يسعها واد ، فقال صلى الله عليه وسلم : « يا ويح ثعلبة ، يا ويح ثعلبة ، يا ويح ثعلبة » فنزلت آية الصدقة ، فبعث رجلا مـــن سليم ورجلان من جهينة ، وكتب لهما أسنان الصدقة ، وكيف يأخذان ، وأمرهما أن يمرا على ثعلبة ورجل من بنى سليم ، فيأخذا صدقاتهما ، فسألا ثعلبة الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : انطلقا حتى تفرغا ، ثم عودا إلىّ وسمع بهم السليمى فاستقبلهما بخيار إبله ، فقالا : أما هذا عليك فقال : طابت بذلك نفسى ، ولما فرغا عادا إلى ثعلبة فقال : أرونى كتابكما فقرأه فقال : ما هذه إلا جزية ، ما هذه إلا أخت الجزية ، ارجعا حتى أرى رأيى ، ولما رآهما صلى الله عليه وسلم قال قبل أن يتكلما : « يا ويح ثعلبة ، يا ويح ثعلبة ، يا ويح ثعلبة » ثم دعا للسليمى بخير ، فأخبراه بما قال ثعلبة فنزلت الآية فيه ، وعنـــد رسول الله صلى الله عله وسلم قريب له ، فخرج إليه وقال له : لقد أنزل

الله فيك كذا وكذا ، فخرج ثعلبة بصدقته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : « منعنى الله أن أقبلها منك » فجعل يحثو التراب على رأسه ، فقال له : « هذا عملك قد أمرتك فلم تطعنى » فرجع فجاء فى خلافة أبى بكر فلم يقبلها ، ثم فى خلافة عمر فلم يقبلها ، ثم فى خلافة عثمان فلم يقبلها ، وفيها مات لم يقبلها الله مجازة على خلف الوعد ، وإهانة على قوله : ما هذه إلا جزية ، ما هذه إلا أخت الجزية .

وليعتبر غيره فيعطيها بطيب نفس احتسابا للثواب وخوفا من العقاب .

(فَلَمَّا آتاهُم) مالا (مِنْ فَضْله بَخلُوا بِهِ) أى بفضله الذى تفضل به عليه ، أو بالمال الذى آتاهم والماصدق واحد ، والبخل منع الواجب فى المال (وَتَوَلَّوا) عن طاعة الله سبحانه وتعالى والوفاء بالعهد (وهُم مُعْرِضون) عن ذلك .

(فأعْقَبَهُم) أى الله أو البخل كما قال الحسن وقتادة ، والأول أولى لذكر لفظ الجلالة بالتصريح ، ولمناسبة الهاء فى يلقونه ، ولأن الإسناد إلى الله فى ذلك حقيقة (نِفاقاً) متمكنا (فى قلُوبهم) أى جعل الله عاقبة فعلهم ذلك نفاقا وسوء اعتقاد ، أو أورثهم البخل نفاقا ، وفى قلوبهم نعت لنفاقا كما رأيت ، أو متعلق بأعقب ، ثم ظهر لى وجه آخر فى معنى أعقبهم نفاقا وهو أن أعقب بمعنى جازى ، أى جزاهم نفاقا قال فى القاموس : أعقبه جازاه .

(إلَى يَوْم) متعلق بأعقب لتضمنه معنى أثبت ، أو بمحذوف نعت لنفاقا (يَلْقونَهُ) أى الله صفة يوم ، والراجع محذوف ، أى فيه

وهو يوم موتهم فيلقونه منافقين ، وقيل : يوم القيامة ، ومعنى لقاءهم الله فى يوم القيامة بالنفاق ، أنهم يلقونه غير تائبين ، لأنهم ماتوا عليه فلا توبة ، ويجوز عود هاء يلقونه إلى اليوم ، فتكون هى الراجع ، فالمعنى لقاء العمل ليوم أى جزاء العمل فى اليوم وهو يوم القيامة .

(بما اخْـلفُوا) أى بسبب إخلافهم (الله مَا وَعدُوه) ومن التصدق والكون من الصالحين (وبمَا كانُوا) أى وبسبب كونهم (يكْذِبُون) فى القول الذى قالوه ، وهو ما ذكر من الوعد ، أو فى القول مطلقا ، وخلف الوعد مستقبح من حيث هو خروج عما التزم ، ومن حيث تضمنه الكذب ، وقرأ أبو رجاء يكذبون بالتشديد ، أى يكذبون أمر الآخرة والشريعة ، وهم مشركون فى الباطن على ما قالوا ، أو نزل مخالفة أفعالهم لأقوالهم تكذيبا ، وقراءة التخفيف وفتح الياء أولى لكثرة وصف المنافق بالكذب ، ولأنه أنسب بكونه منافقا ، وقد ورد فى أحاديث أن للمنافق علامات : الكذب إذا تحدث ، والخلف إذا وعد ، والخيانة إذا ائتمن ، والفجور إذا خاصم ، وكل من فعل مثل ذلك من الموحدين فهو منافق أى مخالف لما يقول .

ويعتقد من الجمل الثلاث ونحوهن ، وكافر النعم ، وشبيه للمنافق الذين أثبتهم المخالفون ، وبعضنا وهم من أسروا الشرك ، وزعم بعض أنهم المراد فى تلك الأحاديث ، وأنهم فى عصره صلى الله عليه وسلم لا غير ، وزعم بعض أن المراد فيهن منافق واحد معين فى عصره ، وبعض : أن المراد التحذير عن هذه الخصال وان تأملهن من الموحدين ليس منافقا ، وهذا كله خروج عن الظاهر ، وأجاز بعضهم أن يكون المراد أن ترك قبول الزكاة هو العقاب .

كتب عامل إلى عمر بن عبد العزيز ، إن فلانا يمنع الزكاة ، فكتب إليه أن دعه ، واجعل عقابه أن لا يؤدى الزكاة مع المسلمين ، أى لما يلحقه من المقت فى ذلك وما يفوته من الخير .

(أَلَمْ يَعْلَمُوا) أى المخالفون أو المنافقون مطلقا ، وقرأ أبو عبد الرحمن ، والحسن بالمثناة الفوقية على الالتفات (إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُم) قال علىّ : ما أسروه فى أنفسهم من النفاق والعزم على إخلاف ما وعدوه (وَنَجْوَاهُمْ) ما يتناجون به فيما بينهم من المطاعن فى الدين ، وتسمية الزكاة جزية ، وتدبير منعها ، وهذا منه تفسير بالمنافقين مطلقا ، ويحتمل أن يكون تفسيرا للمخالفين للعهد ، فإنهم لا يخلون أيضا عن طعن ، وفى ذلك رجوع للغيبة بعد الانصراف عنها على قراءة من قرأ تعلموا بالفوقية خطابا لهم ، إلا أن يقال خطاب للمؤمنين ، كأنهم تعجبوا من أمر هؤلاء ، أو استعظموه ، أو ضجروا منهم فخوطبوا بذلك ، وعلى هذا فلا التفات ، وقد ذكر السر ما هو أنسب بكون العهد بالنية .

(وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ) فلا يخفى عليه ذلك .

(الَّذِينَ) خبر لمحذوف ، أى هم الذين ، أو المذمومون الذين ، أو مفعول لمحذوف ، أى أعنى الذين أذم ، أو الذين أو بدل من الهاء فى سرهم ، أو مبتدأ خبره سخر الله منهم (يَلْمِزُونَ) ينالون بألسنتهم ، وقرأ الحسن ، وأبو رجاء ، ويعقوب : بضم الميم وهو رواية عن ابن كثير (الْمُطَّوِّعِينَ) المتصدقين صدقة النفل ، وأصله المتطوعين أبدلت التاء طاء وأدغمت فى الطاء .

(مِنَ المؤمِنينَ فى الصَّدقَاتِ) كعبد الرحمن بن عوف ، وعاصم ابن عدى ، وعمر بن الخطاب ، حث رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصدقة ، فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعمائة أوقية ، وقيل : بأربعين أوقية ، وقيل : بأربعة آلاف درهم ، وقال : كان لى ثمانية آلاف فأقرضت ربى أربعة ، وأمسكت لعيالى أربعة ، فقال صلى الله عليه وسلم بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت ، فبارك الله له حتى صولحت إحدى امرأتيه عن نصف الثمن على ثمانين ألف درهم ، وقيل : بلغ ثُمُن ماله مائة وسبعين ألف درهم ، وقيل : ترك أربع نسوة صولحت تماضر منهن عن ربع الثمن على ثمانين ألفا ، وتصدق عاصم بمائة وسق تمراً ، وتصدق عمر بنصف ماله ، فقال المنافقون : ما تصدق هؤلاء إلا رياء وسمعة •

(والَّذينَ) عطف خاص على عام فإن المتصدق بقليل داخل فى جملة المتطوعين ، وذكر بعض أن المرد فى قوله : « المطوِّعين » خصوص المتصدقين بكثير ، فالعطف عطف تغاير (لا يجِدُون إلاَّ جُهْدهُم) طاقتهم مصدر جهد فى الأمر إذا بالغ فيه ، وذلك لغة الحجاز ، وقرأ الأعرج وجماعة بفتح الجيم والمعنى واحد •

وقيل : الضم فى المال ، والفتح فى تعب الجسم ، وذلك كأبى عقيل الأنصارى ، وعن بعضهم : اسمه حجاب الأرشى ، جاء بضاع تمر قال : بت ليلى أجر بالجرير على صاعين ، فتركت صاعا لعيالى وجئت بصاع ، فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينثره فى الصدقات ، وكأبى خيثمة ، وقال المنافقون إن الله لغنى عما تصدقا به ، وهما محتاجان فكيف يتصدقان ، ولكن أحبا أن يذكر بأنفسهما ليعطيا من الصدقات فنزلت الآية فى ذلك •

وفى حديث : « من قال لمؤمن يامرائى أحبط عنه عمل أربعين يوما وإن لم يكن له عمل فعليه وزر أربعين يوما » وقد يكون القليل أعظم ثوابا مثل أن يكون من مقل اشتدت حاجته إليه .

(فيسخرون) يستهزئون (منهم) عطف على يلمزون (سخر الله منهم) جازاهم على سخريتهم إخبار ، وأجاز بعضهم كونه على طريق الدعاء (ولهم عذاب أليم) على ذلك ، وروى ابن عمران عبد الله بن عبد الله بن أبى وكان مؤمنا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرض أبيه أن يستغفر لأبيه ، فاستغفر فنزل :

(استغفر لهم أو لا تستغفر) أى استوى الأمران ، فإن الاستغفار لهم لا ينفعهم كما قال : (إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) وليس السبعون حدا إن جاوزه فى الاستغفار رجئت المغفرة ، بل تمثيل للكثرة ، فإن المراد أنه لا يغفر لهم ولو استغفر لهم عدد التراب ، بدليل وصفهم بالكفر بعد هذا ، وهو مانع من الغفران ، وبدليل : « استغفر لهم أو لا تستغفر لهم » وخص السبعين لأن العرب تستكثرها ، وقد كبر رسول الله صلى الله عليه وسلم على عمه حمزة رضى الله عنه سبعين تكبيرة ، وشاع استعمال السبعة والسبعين ، والسبعمائة ونحوها فى التكثير ، لأن السبعة تشتمل على جملة أقسام العدد ، وهى آحاد وعشرات ومئون وآحاد ألف وعشرات ألوف ومئات ألوف وآحاد ألوف ألوف ، فكأنها العدد .

وقد كثرت السباعيات : كالسموات ، والأرضين ، والأيام ، والأقاليم ، والبحار ، والنجوم السيارة ، وأبواب النار ، والأعضاء ، وأصحاب العقبة

فى منى ، ومختارى موسى ، أو خلق الإنسان ورزقه ، فإن صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه استغفر لهم بعد نزول هذه الآية ، وقال له عمر : أتستغفر يا رسول الله للمنافقين وقد أعلمك الله أنه لا يغفر لهم ؟ فقال له : « يا عمر إن الله خيرنى فاخترت ولأستغفرن لهم ما لم أنه » وأنه قال : « لأزيدن على السبعين » وقد رخص لى ربى مع تلك الدلائل على المنع وعدم الغفران » فوجهه أنه حمل السبعين على العدد المخصوص ، لأنه الأصل ، فجوز أن يكون حدا ، وإنما فوقه نافع فمال إلى هذا الاحتمال لما فيه من الرحمة ، وأيضا قوله : « لأزيدن على السبعين » يحتمل فيما قيل أن يكون إظهارا لغاية رحمته ، كقول إبراهيم : « ومن عصانى فإنك غفور رحيم » تعليما لنا أن نتراحم .

وذكر بعض أنه قال : « لو علمت أنى إذا زدت على السبعين يغفر لهم لزدت » وقد يستدل بذلك على أن هؤلاء المنافقين ونحوهم فى عصره صلى الله عليه وسلم غير مشركين ، وإلا لم يستغفر لهم كذا قيل ، وقد يبحث فيه على طريق مذهب القائل وهو منا بأنه أيضا لا يستغفر لهم إذا كانوا منافقين بمعنى ذوى كبائر غير شرك ، والظاهر أنه أسروا ما هو شرك ، وربما نطقوا به كقولهم : إنما القرآن كلامه لا كلام الله ، وليس النفاق مختصا فى عصره بمن يفعل كبائر غير شرك كما قال جمهور أصحابنا وشددوا على من قال بخلافه ، ولا بمن أسر شركا كما زعم المخالفون ، بل يوجد الفريقان ، وأولى ما يتخرج عليه فى استغفاره أنه يأخذ بظاهر قولهم : إنا لم نفعل ، وإنا تبنا مالم ينزل النص على النهى ، أو على تعيين شقاوة أحد ، ثم إنه لا مانع من أن يقال : إن استغفاره لأهل

الكبائر غير الشرك من خصوصياته صلى الله عليه وسلم ، وقد نهاه عن الاستغفار للمشركين ، إذ قال : « ما كان للنبى والذين آمنوا » الآية .

(ذَلِكَ) المذكور من انتفاء المغفرة (بِأَنَّهُم كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ) أى بسبب كفرهم الصارف عنها ، لا لبخل منا ، ولا لقصور فى استغفارك ، ووصفهم بأنهم كفروا بالله ورسوله ظاهر فى أنهم أسروا الشرك ، إذ لا يقال لذى الكبيرة : كفر بالله ورسوله ، وإذا قلنا : إنهم مشركون ففى الوعيد على اللمز والسخرية الواقعين منهم دلالة على أن المشركين مخاطبون بفروع الشريعة .

(وَاللهُ لا يَهْدِى القَوْمَ الفَاسِقِينَ) المصرّين على الفسق ولا مغفرة للمصر .

(فَرِحَ المُخَلَّفُونَ) أى المتروكون خلف ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم تركهم خلفه ومضى لتبوك ، فكأنه قيل : فرح الذين خلفهم رسول الله ، أو خلفهم الله ، أى تركهم خلف رسوله ، وأبعدهم من مقام الخير ، فالمخلف أذمّ من المتخلف ، أو خلفهم كسلهم ونفاقهم والشيطان .

(بِمَقْعَدِهِم) مصدر ميمى ، أى لقعودهم عن الغزو فى المدينة خلاف رسول الله بمعنى بعد متعلق بمقعد ، فهو كخلف ، ويدل له قراءة ابن عباس ، وأبى حيوة : خلف رسول الله ، أو مصدر خالف فيكون حالا مبالغة ، أو بتقدير ذوى خلاف ، أو بتأويله بمخالفين كذا قيل ، وهو إنما يتم على جواز تعريف الحال ، فإن إضافة خلاف محضة ، ولو فى حال وتأويله بالوصف لأن ذلك الوصف ماض بالنسبة إلى زمان التكلم ، أو مفعول لأجله ، أى

لمخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويناسب المصدرية قراءة بعضهم خلف بضم الخاء وإسكان اللام •

(وكَرِهُوا أنْ يُجاهِدُوا بأمْوالهم وأنفسِهم فى سَبيلِ الله) ذم لهم بإيثارهم الراحة ونعمة الدنيا على طاعة الله ، يتضمن مدحا للمؤمنين بإيثارهم رضا الله سبحانه وتعالى ببذل أموالهم وأنفسهم (وقالُوا) للمؤمنين تثبيط أو إغراء بالتأخير إلى زوال الحر ، أو قال بعضهم لبعض ، وقال محمد بن كعب ، القائل رجل من بنى غلمة ، وأؤيد أنهم قالوا للمؤمنين ما روى عن ابن عباس : أن رجلا قال : يا رسول الله الحر شديد فلا تنفر فى الحر •

(لا تَنْفِرُوا فى الحرِّ) وكانت غزوة تبوك فى شدة الحر (قُلْ) يا محمد لمن قال ذلك (نارُ جَهَنَّم أشدُّ حرًّا) من الشمس وهى جزاؤكم غدا آثرتموها بهذه المخالفة وقوله : (لَوْ كانُوا يفقهون)مستأنف ليس من جملة المأمور بقوله ، وجواب لو محذوف ، والتقدير لو كانوا يفقهون أنها مرجعهم إن تخلفوا ، وكيف هى ما فعلوا ما يوجبها ، أو لو كانوا يفقهون لعلموا أنها أشد حرا ، ويجوز أن يكون غير مستأنف عن القول بأن يقدر قل فى شأنهم نار جهنم أشد حرا لو كانوا من الفقه •

بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسير له يوم شديد [الحر] إذ نزل وجعل أحدهم يتقى الأرض بثوبه من شدة الحر فقال : « أراكم تجزعون من حر الشمس وبينكم وبينها مسيرة خمسمائة عام والذى نفسى بيده لو أن بابا من أبواب جهنم فتح بالمشرق ورجل بالمغرب لغلى دماغه حتى يسيل من منخريه » وفى حديث : « إن ناركم هذه جزءا

من سبعين جزءا من نار جهنم » قيل : يا رسول الله إن كانت لكافية ، قال : « فإنها فضلتها بتسعة وستين جزءا وكلها مثل جزئها ، ولقد ضربت بالماء مرتين لتنتفعوا بها وتدنوا منها » قال النقاش : وقرأ عبد الله : « لو كانوا يعلمون » .

(فليضحكوا قليلاً) ضحكا قليلا أو زمانا قليلا وهو أعمارهم ، فإنها ولو طالت قليلا بالنسبة إلى الدوام فى الآخرة (وليبكوا كثيراً) بكاء كثيراً أو زمانا كثيرا لا يتناهى ، وهو زمان خلودهم فى النار ، قاله ابن عباس ، والربيع بن خيثم ، وابن زيد ، وقتادة واللفظ أمر ، والمعنى إخبار أى يضحكون قليلا ويبكون كثيرا ، وجاء بلفظ الأمر ، لأن الأمر للوجوب ، فأشار به إلى تحتم ذلك عليهم ، وأنه لا بد واقع ، ويجوز أن يكون ذلك فى الدنيا إليهم لما هم عليه من الخطر مع الله ، وسوء الحال ، بحيث ينبغى أن يقل ضحكهم ويكثر بكاؤهم على حد قوله صلى الله عليه وسلم لأمته : « لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرا وضحكتم قليلا » .

وروى أنه قال الله سبحانه له حين قال ذلك : يا محمد لا تقنط عبادى ، ويجوز أن يكون ذلك كناية عن السرور والغم ، ويجوز أن يكون ذلك كله فى الآخرة ، على أن القلة نفى والواضح الأول المذكور عن ابن عباس ، ففى الحديث ، عن أنس : « يا أيها الناس ابكوا فإن لم تستطيعوا ان تبكوا فتباكوا ، فإن أهل النار يبكون فى النار حتى تسيل دموعهم فى خدودهم كأنها جداول ، حتى تنقطع فتسيل الدماء فتقرح العيون ، فلو أن سفنا أجريت فيها لجرت » وعن أبى موسى : « لو أن السفن أرسلت فى دموعهم لجرت ثم يكون بعد ذلك الدم » .

(جزاءً بما كانُوا يكْسِبُون) من ضحكهم وأفعالهم الخبيثة ، وهو تعليل ليبكوا إن لم يشترطوا اتحاد فاعلى المعلل والمعلل ، أو لتضمنه معنى نفعل بهم ما يبكيهم ، فهو تعليل لمعنى نفعل ، أو يقدر نعذبهم جزاء .

(فإنْ رَجَعَكَ اللهُ) ردك من هذه الغزوة غزوة تبوك (إلى طائِفةٍ منْهُم) من للبيان لا للتبعيض ، وتنكير الطائفة للتحقير ، إنما وقعت العبارة بالاسم الظاهر ليفيد التحقير بتنكيره ، وإلا فالموضع موضع إظهار ، وكأنه قال : فإن رجعك الله إلى ناس خبثاء السريرة ، وهم هؤلاء المتخلفون الفرحون بالقعود ، ولا يفرح به إلا المنافق ، فالهاء لهؤلاء المتخلفين المنافقين الفرحين ، والأصل فإن رجعك الله إليهم هذا تحقيق المقام عندى ، ولم أر من أفصح به أشار إليه .

وزعم القاضى مع علو درجته فى العلم أن من للتبعيض ، وأن الهاء للمتخلفين مطلقا والمنافقين وغيرهم ، وأن الطائفة المتخلفون المنافقون ، ويرده أن المتخلفين المذكورين فى الآية كلهم منافقون ، ولعله إنما رد الهاء إلى المتخلفين مطلقا بطريق الاستخدام ، وذكر جار الله وهو على درجة : أن من للتبعيض ، والهاء للمتخلفين المنافقين ، والطائفة هى الباقون على النفاق وغيرها هو من تاب منهم عن التخلف ، وكأنه يرى أن هذا الكلام استثناء لغير الطائفة من العموم السابق فى ذمهم ، قال : أو اعتذار بعذر صحيح ، قلت : ما كان ليخفى عن الله والغدر حتى يعمه بالذم ، إلا إن كان يرى أن هذا استثناء أيضا ، وذكر بعضهم أن المراد بالطائفة رؤساؤهم المتبوعون وعليهم وقع التشديد بأن لا يخرجوا ، ولا يقاتلوا ، ولا يصلى عليهم ، وقد عينهم الله له ، وذكروا أن المتخلفين اثنا عشر رجلا .

(فاسْتَأْذَنُوكَ للخُرُوجِ) إلى غزوة أخرى (فقُلْ لَن تخرُجُوا مَعِىَ) وأسكن الياء أبو بكر وحمزة والكسائى (أبداً ولن تُقاتِلوا مَعِىَ) وفتح الياء حفص (عَدُوًّا) وذلك إخبار فى معنى النهى للمبالغة ، كأنهم نهوا فانتهوا ، فهو يخبر عن انتهائهم عن الخروج والقتال بعد كذا ظهر لى فى توجيه المبالغة ، وأجرى الله ذلك الكلام على ما يليق بمخلوقاته من الشك وعدم علم الغيب ، ولذلك أتى بأن ولفظة مع المضافة إلى ضمير النبى ، مع أن الله سبحانه وتعالى قد علم أنه يرجع ، وأن رسوله صلى الله عليه وسلم لا يخرج ولا يقاتل بنفسه بعد هذه الغزوة ، وإنما يأمر الجنود فتخرج وتقاتل مع ما فى ذلك من المناسبة لتهديد هؤلاء ، ويجوز أن يكون معنى معية أنه إذا أمر بالخروج والقتال ، فكأنه خرج بنفسه وقـــاتل .

(إنكُم) تعليل (رَضِيتُم بالقُعودِ أوَّلَ مَرَّةٍ) كــان عقابهم الإسقاط عن ديوان الغزاة ، وإنما لم يقل أولى مرة بالتأنيث ، لأن اسم التفضيل يلزم التذكير والإفراد إذا أضيف لنكرة ، أو جرد من الإضافة (فاقْعدُوا مَعَ الخَـالِفِينَ) القاعدين خلف القراء فى المدينة من المرضى والشيوخ ، الذين لا يستطيعون والصبيان والنساء وذوى العذر ، وغلب الذكور فجمع جمع المذكر السالم ، وهذا أولى من قول ابن عباس : إن المراد الرجال ، وزعم قتادة أن المراد النساء ، ويرده أن المؤنث لا يجمع جمع المذكر السالم .

ويجوز على الصحيح أن يكون جمع خالف بمعنى فاسد من قولك خلف الشىء بمعنى فسد ذكره الطبرى ، ومثله للكلبى وهو ضعيف غير فصيح ، وقرأ عكرمة ومالك بن دينار رحمه الله مـــع الخلفين بإســـقاط الألف .

كـان عبد الله بن أبى بن سلول سـيد الخزرج فى آخر جاهليتهم ، ولما ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانصرف إليه الخزرج وغيرهم ، حسده وناصبه العداوة ، غير أن الإسلام تغلب ، وكان رأس المنافقين ، وكانوا ثلاثمائة رجل ، ومائة وسبعين امرأة ، وكان ولده عبد الله من أفاضل الصحابة إسلاما وعبادة ، وانشراح صدر ، وكان أبر الناس بأبيه ، ومع هذا قال : يا رسول الله إنك لتعلم أنى من أبر الناس بأبى ، وإن أمرتنى أن آتيك برأسه فعلت ، فقال صلى الله عليه وسلم : « بل نعفوا عنه » وكان شديد الحرص أن يسلم أبوه وينتفع ببركة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولما مرض بعث إليه ابنه عبد الله ليأتيه ، فطلب منه عمر أن لا يتأيه ، فأتاه فدخل عليه فقال : « أهلكك حب اليهود » فقال : يا رسول الله لم أبعث إليك لتوبيخى ، بل لتستغفر لى ، وسأله أن يكفنه فى قميصه الذى يلى جسده ، وأن يستغفر له ففعل ذلك ، ولما مات دعاه وأنعم [عليه] بقميصه ، وقيل : ناوله إياها حينئذ ابنه عبد الله إلى جنازته ، وكان اسمه حباب ، فسأله عن اسمه فأخبره فقال له : « أنت عبد الله بن عبد الله ، الحباب اسم شـيطان » فأتاه ووجده مكفنا فى القميص ، مدخلا حفرته ، فأمر بإخراجه فأخرج ، فحل كفنه ووضعه على ركبتيه ، ونفث عليه من ريقه ، وألبسه كفنه وهو القميص المذكور بيديه .

وكان إعطاء القميص وتلك الفعلات تطييباً لنفس أبيه ، إذ كان مخلصا ، وقد روى أنه هو الذى سأله لما مـات أن يكفنه فى قميصه الـذى يلى جسده ، وأن يقوم على قبره ، ولا يشـمت به الأعداء فى أبيـه ولكن

العباس لما أسر ببدر لم يجدوا له قميصا ، وكان رجلا طويلا لا يليق به إلا قميص ابن أبيّ فكساه ابن أبيّ قميصه ، ولكن المشركين قالوا يوم الحديبية : لا نأذن لمحمد ونأذن لك ، فقال : لا إن لى فى رسول الله أسوة حسنة ، فشكر له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان صلى الله عليه وسلم لا يرد سائلا ، ويتوفر من المروءة ، ويعمل بعادة الكرام ، ولما كفنه وأراد الصلاة عليه ، وثب عمر رضى الله عنه ، وجبذه بثوبه وقال : أتصلى على عدو الله ، وقد قال يوم كذا كذا وكذا يعدد عليه قوله ، وقد نهاك الله أن تصلى على المنافقين ، يعنى أن تستغفر لهم كما صرح به فى رواية ، أو يعنى صلاة الميت إلهاما من الله ، فإنه مروع ومحدَّث أو فهما من النهى عن الاستغفار ، وأراد بالنهى آية هذه السورة ، وتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولما أكثر عليه قال : « أما أنى خيرت فاخترت ، لو أنى أعلم أنى لو زدت على السبعين يغفر له لزدت » فصلى عليه وأدلاه فى حفرته ، فلم يلبث إلا يسيرا بعد الانصراف حتى نزل :

(وَلا تُصَلِّ عَلَى أحدٍ مِنْهُم ماتَ أبداً) إلى : « فاسقون » وفى رواية إلى : « كافرون » قال عمر : فعجبت بعد من جرأتى على رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ من الله ورسوله أعلم ، فما صلى على منافق بعده ، ولا قام على قبره ، وكان قبل ذلك يقوم على قبور المنافقين ، ويدعو لهم فيما روى .

وقال أنس : لما تقدم ليصلى عليه ، جاءه جبريل فجبذه بثوبه ، وتلى عليه الآية ، فانصرف ولم يصل ، والمشهور الأول ، وأنها نزلت بعد الصلاة ، ولم ينه عن القميص لأنه مكافأة والضنة به بخل ، بخلاف

الصلاة فإنها استغفار ، ولا حظ فيه لكافر ، كما يدل عليه ترتيب النهى على قوله : « مات » أى مات على الكفر ، كما نص عليه بقوله : « أبدا » على أنه متعلق بمات ، أى مات موتا أبديا ، فان إحياء الكافر بعد موته للتعذيب دون التمتع ، فلا حياة له نافعة ، فكأنه لا حياة له ، والمشهور تعليقه بتصل ، أو بلا ، وأيضا تكفنه فى قميصه مع كفره لا ينفعه ، فهو كغيره من الأكفان .

كما روى عنه أنه قيل له فى ذلك فقال : « إن قميصى لا يغنى عنه شيئا ولن أؤمل من الله أن يدخل بفعلى هذا فى الإسلام كثيرا » فيروى أنه أسلم ألف من الخزرج لما رأوه طلب التبرك بثوبه ، والنجاة بـه ، وطلبوا ترحمه واستغفاره ، فكان ذلك لطفا وجلبا لغيره ، ولكن الرواية الصحيحة أنه قال : « آمل أن يدخل رجال من قومه فى الإسلام » فإنه قد ضعف النفاق ، ولا يبلغ أهله حينئذ ألفا ، وإنما صلى عليه جريا على ظاهر أمره لما فى ذلك من المصلحة ، ولو علم أنه مشرك مـا صلى عليه ، أو كان عالما بإشراكه ، ولكنه قبل عنه إنكار الشرك حين اعتذر وأنكر مـا يقال عنه ، كيف وقد نزل عليه : « ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين » على ما يأتى فيهم إن شاء الله ، وجملة مات نعت ثان ، والأول منهم أو حال من أحد أو من ضمير المستتر فى النعت .

(ولا تَقُمْ عَلَى قَبْرِه) للدفن أو الزيارة (إِنَّهُم كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ) تعليل جملى النهى عن الصلاة ، والوقوف عـلى القبر ، أو تعليل لتأبيد الموت على تعليق أبدا بمـات ، وإنما قال : مات وماتوا بلفظ الماضى ، مع أنهم حينئذ لما يموتوا لأنهم

لا بد يموتون ، فكأنهم ماتوا ، أو لأن ذلك على تقدير حصول الموت ، ويدل على سوغ أن النفاق فى القرآن قد يقع على من أسر الشرك قوله : « إنهم كفروا بالله ورسوله » فإن من فعل كبائر غير الشرك ، لا يقال فيه إنه كفر بالله ورسوله ، ولعل أصحابنا يقولون : المراد كفروا بنعم الله ورسوله ، ونعم الرسول ما جرى على يده من الخير وأمر الإسلام ، أو يقولون : نزل أفعالهم وأقوالهم الخبيثة منزلة الكفر بالله ورسوله ، ويقصرون منع الصلاة على هؤلاء الذين خصهم الله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، ويأخذون الصلاة على سائر المنافقين الذين لم يسروا الشرك من قوله صلى الله عليه وسلم : « ظلوا على كل بار وفاجر من أهل القبلة » هذا ما ظهر لى فى تطبيق كلام الأصحاب على الآية ، ولم أر من تكلم بذلك ، ولى فى ذلك كلام فى جامع الوضع والحاشية .

(ولاَ تـُعجِبْكَ أمْوالهم وأولادُهم) كرره مع ما بعده للتأكيد ، فإن النفوس شديدة الحب للمال والولد ، فأعيد ذلك زجرا لهم ، وأيضا مضى لذلك زمان ، فربما غفلوا فأعيد النهى ليتنبهوا أيضا للجديد من الطراوة ، ما ليس القديم أو نزل ذلك فى شأن فرقة غير الفرقة التى نزل فيها ذلك ، أولا ، وكان ذلك بإلغاء التقدم قوله : « ولا ينفقون إلا وهم كارهون » وقد مر كلام فيه ، وهذا بالواو ، ولعدم التقدم ما يترتب هو عليه .

(إنّما يُرِيدُ اللهُ) تعليل جملى (أنْ يُعذِّبهُم بِهَا) وأسقط فى هذا التكرير لفظة لا قبل الأولاد ، ولفظة الحياة قبل الدنيا اختصار من حيث إنه تكرير ، وقيل : أسقط هنا لا تنبيها على أنه سواء الإعجاب بكثرة

المال ، والإعجاب بكثرة الولد ، وأكثرية حبهم للولد الدال عليها زيــادة لا هنالك وما دونها ، وأسقط اللام تنبيها على أنها هناك بمعنى أن الذكران هنا قبل ، وعلى أنه لا تعليل فى حكم الله ، وأسقط الحياة تنبيها على أنها كل حياة ، حتى إن الأولى الاقتصار على لفظ الدنيا .

(وتَزْهقَ أنفسُهم وهُم كافِرُون ﴿﴾ وإذا أنْزلتْ سُورةٌ) من سور القرآن فيها الأمر بالإيمان والجهاد ، ويجوز أن يراد بعض بعض السورة إطلاقا للكل ، وإرادة البعض ، أى حذفا للمضاف ، أى بعض سورة ، وقيل المراد سورة براءة على إرادة البعض ، أو تقدير مضاف وهو ضعيف ، لأن إذا للاستقبال ، وبعض براءة المأمور فيه بالإيمان والجهاد نزل قبل هذا ، إلا إن كان صاحب هذا القول ممن أجاز خروجها عن الاستقبال ، كما قال بعض : إنها فى قوله تعالى : « ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم » « وإذا رأوا تجارة » للماضى وفى « والليل إذا يغشى » للحال أو اعتبر الحال الماضية السابقة على زمان نزول ذلك البعض ، حتى كأن وقت نزول هذه الآية متقدم على نزول ذلك البعض ، وهكذا فى « إذا ما أتوك » « وإذا رأوا » .

(أنْ آمنُوا بالله وجاهِدُوا مَعَ رسُوله) أن مصدرة تقدر قبلها باء ، أو فى بناء على جواز دخول الجار على الطلب ، ولا يجوز ذلك عندى ، بل هى مفسرة ، لأن إنزال السورة إيحاءها ، والإيحاء فيه معنى القول دون حروفه .

(استأذنَكَ) القعود عن الغزو (أولُو الطَّوْل) السعة فى المال والرياسة ، كالجد بن قيس ، وعبد الله بن أيوب ، ، ومعتب بن قريش

(منْهُمْ) أى من المنافقين والخطاب فى آمنوا وجاهدوا للمنافقين ، أى أخلص الإيمان ، وقيل للمؤمنين ، وعليــه فالمراد دوموا على الإيمــان والجهاد ، ويدخل المنافقون بالتبع .

والذى عندى أن الخطاب للناس ، والمراد الدوام ، فالمؤمنون مأمورون بالدوام ، والمنافقون مأمورون بالدوام على ما لم يكونوا عليه ، كما تقول لمن يقرأ سورة الكوثر مثلا : دم على قراءتها ، وقدم الإيمان لأنه الباعث على الجهاد ، ولأنه إنما ينفع للجهاد معه ، وخص أولى الطول بالذكر لأنهم يحتاجون إلى الاستئذان دون الفقراء الذين لا يقدرون على الجهاد ، ولأن الذم ألزم لهم لكونهم قادرين على الجهاد والسفر .

(وقالُوا ذَرْنا) اتركنا (نَكُن مَعَ القَاعِدينَ) أى مع الذين قعدوا عن الخروج لعذر ، كمرض وأنوثة ، وضبط المدينة ، واستأنف الله سبحانه وتعالى الذم لهم بقوله :

(رَضُوا بأنْ يَكُونوا مَعَ الخوَالفِ) أى مــع النساء جمع خالفة ، ولذلك كان الجمع على فواعل ، مع أن الصفة لمن يعقل كضاربة وضوارب ، وقال أبو جعفر النحاس : يقال للرجل الذى لا خير فيه : خالفة ، وكذا قال النظر بن شميل ، فعلى هذا فإنما جمع على فواعل مع أنه صفة للمذكر ، نظر إلى تأنيث لفظــه ، وقيل جمع خالف شــاذ كفارس وفوارس وما ماثله إن لم تقدر الطائفة ، قيل : مثل ذلك ، أن يسمع هؤلاء فوارس ، فإنه إن قدر هؤلاء طائفة فوارس فلا شذوذ فيه ، وإن سمع رجال فوارس فشاذ قطعا على ما قال الإمام المرادى .

(وطُبعَ عَلَى قلُوبِهِم) شبه الكفر الذى اختاروه بما يختم

به الكتاب ويمنع من نشره ، لأنه مانعهم الهدى (فَهُمْ لا يفْقَهُونَ) لا يعلمون ما فى الجهاد ، وموافقة رسول الله صلى الله وسلم من السعادة والفوز ، وما فى التخلف من الشقاوة والهلاك •

(لكِنِ الرَّسُولُ والَّذينَ آمنُوا مَعَه جَاهَدُوا بأمْوالهِم وأنفُسِهِم) الذى ظهر لى إبقاء لكن على الاستدراك ، فإن النظر إلى مجرد تخلف هؤلاء يوهم فى الجملة أن تخلفهم قد أوهن المؤمنين ، وأوقع فيهم ضعفا فيفترون هم أو بعضهم عن الجهاد ، أو يخرجون متهاونين ، فأزال الله ذلك الإبهام ، بأن المؤمنين مازالوا فى قوة بصيرة ، وبلوغ جهد فى بذل أنفسهم وأموالهم فى الجهاد ، وقول جار الله والقاضى : إن تخلف هؤلاء فقد جاهد من هو خير منهم ، يحتمل ذلك بأن يريد أنهم إن تخلفوا فما أوقع تخلفهم ، وهنا فيمن هو خير ، وقد جاهد بالنفس والمال ، ويحتمل إخراجها عن الاستدراك بناء على أنها قد تخرج عنه •

(وأولئِكَ لَهم الخَيْراتُ) النصر والغنيمة فى الدنيا ، والجنة والكرامة فى الآخرة ، وقال الحسن : الحور العين ، كقوله سبحانه وتعالى : « فيهن خيرات حسان » جمع خيرة وهو المستحسن من كل شىء ، وكثر استعماله فى النساء ، وقيل الخيرة بإسكان الياء مخفف من خيرة بكسرها مشددة (وأولئِكَ هُم المفْلحُونَ) الفائزون بالمطلب ، فإن الفلاح يستعمل بمعنى إدراك البغية وبمعنى البقاء •

(أعَدَّ) أى هيأ (اللهُ لَهم جنَّاتٍ تَجرْى مِنْ تَحتِها الأنْهارُ خالِدينَ فيها ذَلكَ الفَوزُ العَظيمُ) بيان لبعض خيراتهم الأخروية المعدة لهم على الجهاد ونحوه من الطاعات •

﴿ وجَاءَ المعَذرونَ ﴾ هو اسم فاعل عذّر بتشديد الذال ، يقال : عذر بالتشديد فى الأمر إذا قصر فيه ، موهما أن له عذرا ولا عذر له ، وهم منافقون لم يسروا الشرك ، بدليل أنه قابلهم بقوله : « وقَعد الذين كذبوا الله ورسوله » وهم المنافقون الذين أسروا الشرك ، فنفاق المعذرين بالكسل والكذب فى ادعاء العذر ، مع أنه لا لهم عذر ، أو اسم فاعل اعتذر ، فأصله المتعذرون أبدلت التاء ذالا وسكنت بنقل فتحتها للعين وأدغمت •

ويجوز فى سائر الكلام فى مثل هذا كسر الفاء ، بأن يقال : وقع التسكين بلا نقل ، فالتقى ساكنان وكسر الأول وهو الفاء وضمهما تبعا للميم ، كما فى اسم فاعل يهدى ويخصم بفتح الياء وتشديد ما قبل الآخر ، والمعنى جاء الذين اعتذروا ، وكونهم غير صادقين فى العذر مستفاد من خارج لا من الصيغة ، كما زعم بعض ، وقيل هم منافقون أسروا الشرك ، وإنما قابلهم بقوله : « وقعد الذين كذبوا الله ورسوله » لأن هؤلاء القاعدين أظهروا شركهم بقعودهم بدون اعتذار ، بخلاف المعذرين ، أو كل منافقون ، وخصهم لأنهم لم يعتذروا ، وقيل : المعذرون مؤمنون عذرهم صحيح ، فاعتذارهم الحق •

ويجوز على هذا وجه آخر ، وهو أن يكون من اعتذر بمعنى بالغ فى طلب اجتهاده ، فهم بالغوا فى طلب الغزو معك ولم يقدروا ، وبكونهم مؤمنين ، قال ابن عباس ، ومجاهد ، وغيرهم ، وعليه قراءة الضحاك ، والأعرج ، وأبى صالح بإسكان العين ، ونسبت ليعقوا من قولك : أعذر

إذا جاء بعذر مقبول واجتهد فيه ، كقوله صلى الله عليه وسلم : « لقد أعذر من أنذر » أى لا لوم على من أعـذر ، أى جاء بعذر بين وهـو الإنذار ، وقرأ مسلمة بتشديد العين والذال ، على أن الأصل المتعذرون ، أبدلت التاء عينا ، وأدغمت فى العين ، وهو لحن مردود عليه لبعد مخرج التاء من العين ، فلا تبدل وتدغم ، وقرأ سعيد بن جبير : المتعذرون بتاء قبل العين وهو صحيح .

(مِنَ الأعْرَابِ) عرب البادية (ليؤذَنَ لَهم) فى القعود فأذن لهم ، وهم اثنان وثمانون رجلا من أسد وغطفان ، يعتلون بقلة المال ، وكثرة العيال ، وقال مجاهد ، وابن إسحاق : من غفار منهم خفاف بن إيماء بن رحضة ، وهذا يقتضى أنهم مؤمنون ، ونص مجاهد أن الله لم يعذرهم ، وقال الضحاك : من رهط عامر بن الطفيل ، قالوا : إن غزونا معك أغارت أعراب طيىء على أهلينا أو مواشينا ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سيغنينى الله عنكم » .

(وقَعَد الَّذين كذَبُوا اللهَ ورسُولَه) أى لم يأتوها بصدق ما فى ألسنتهم من أنهم غير مشركين ، أو من أنهم آمنوا أو أخلصوا ، وليسوا بمخلصين إذ قعدوا بلا عذر ولا استئذان ، جرأة على الله ورسوله ، وعن أبى عمرو بن العلاء : أنهم هم المعذرون ، وعليه فقعدوهم بعد اعتذار ، ويكون الذين حينئذ موضوعا موضع الضمير يشفع عليهم بمـا تضمنته الصلة من الكذب فى الاعتذار ، كذا ظهر لى فى توجيه قوله ، وقرأ أبىّ والحسن فى الرواية المشهورة عنه بتشديد الذال ، وهو أنسب بالإشراك .

(سيُصيبُ الَّذينَ كَفرُوا منْهُم) من للبيان ، ويجوز أن تكون

للتبعيض ، فيعتبر فى الكفر الإصرار عليه ، فيخرج البعض الذى لم يصر بأن تاب ، والكفر يعم النفاق والشرك ، ومن النفاق القعود عن الخروج لمجرد الكسل لا شكا ، والهاء للمعذرين ، أو للأعراب ، أو للقاعدين (عَذابٌ أَليمٌ) فى الآخرة بالنار ، وبالقتل فى الدنيا أيضا لمن أشرك أو فعل موجب القتل ، وبالأسر لمن أشرك •

(لَيسَ عَلَى الضُّعفاءِ) كالشيوخ والصبيان والنساء ، ومن هو فى أصل خليفته ضعيف أو نحيف لا يستطيع الغزو (ولا عَلَى المرْضَى) شامل للزمنى ، والعرج ، والعمى ، وكل ذى علة حدثت فى بدنه تمنعه كمرض •

(ولا عَلَى الَّذينَ لا يجدُونَ ما ينْفِقُونَ) فى مؤنة السفر والغزو ، كزاد وراحلة ، وسلاح وطعام ، كجهينة ومزينة وعذرة قبائل فقراء ، وقيل : نزلت فى بنى مقرن ، وهم ستة إخوة صحبوا النبى صلى الله عليه وسلم وهم من مزينة ، وليس فى الصحابة ستة إخوة غيرهم ، وقيل فى عبد الله بن معقل المزنى ، وقيل فى رجل من مزينة ، سواء ثم أطلقت على اسمه وهو عائذ بن عمرو ، واللفظ يشمل أيضا من ليس سببا فى النزول •

(حَرَجٌ) إثم فى التخلف ، وإن خرج من كان كذلك منفعة كحفظ المتاع ، وتكثير السواد لكان له أجر عظيم إن كان لا يلقى نفسه فى التهلكة ، ولا يكون كَلاًّ (إذا نَصَحُوا للهِ ورَسُولِه) بالإيمان والطاعة ، سرا وعلانية ، والحب والبغض فى الله ورسوله ، أو يحفظ البلد ، والتحرز عن إنشاء الأراجيف ، وإثارة الفتنة ، وإيصال الخير إلى أهل المجاهدين ،

والقيام بمصالح بيوتهم ، وقرأ أبو حيوة بالنصب وإسقاط اللام ، وعن قتادة : نزلت الآية فى ابن أم مكتوم وكان أعمى .

(مَا عَلَى المحْسِنِينَ) الناصحين المعذورين ، وأقام الظاهر مقام المضمر ليصفهم بالإحسان فلا يبقى العتاب لهم وجه (مِنْ سَبِيلٍ) طريق إلى عتابهم ، أو تأثيمهم ، فإنهم سدوا بإحسانهم تلك الطريق (واللهُ غَفُورٌ رحيمٌ) للمسيئين إذا تابوا ، فكيف بالمحسنين ، أشار إليه ابن عباس رضى الله عنهما وقيل لهم :

(ولا عَلَى الَّذينَ) عطف على قوله : « على الضعفاء » أو قوله : « ولا على الذين لا يجدون » أو قوله : « على المحسنين » (إذا ما) صلة مؤكدة لإثباتهم أنه حقيق صادقون فيه ، والله أعلم (أتوْكَ لتحْمِلَهم) على الدواب لغزو ، وعن بعضهم على الخفاف المرقعة ، والنعال المخصوفة ، وعن الحسن بن صالح : على النعال ، قال بعض : إطلاق الحمل على التنعيل شاذ ، وبالجملة أنهم لو وجدوا أدنى ما يركب ويحمل عليه ما يحتاجون إليه لخرجوا ، وقرأ لتحملهم بالنون .

(قلْتَ لا أجِدُ ما أحْمِلكُم عليْهِ) الذى عندى أن جملة قلت بدل اشتمال من أتوك ، فإن قوله قوله : « لا أجد ما أحملكم عليه » من سببيات إتيانهم للحمل ، أو حال مقارنة ، لأن المقارنة إما متعقبة لمعنى عاملها بلا فضل زمان كما هنا ، وإما واقعة معه فى وقت واحد ، وتقدر قد على هذا ، ويجوز أن تقدروا أو معترضة على طريق الاستئناف البيانى ، وأصلها بعد الجواب وهو قوله :

(تَوَلَّوْا) كأنه لما قيل تولوا (وأعْيُنُهم تَفيضُ مِنَ الدَّمْعِ

حَزَنا) قيل ما لهم : تولوا باكين حزنا ، فأجيب بأنه قال لهم : لا أجد ما أحملكم عليه ، ثم قدم على الجواب ، وقال الجرجانى : معطوف بعاطف محذوف ، أى وقلت ، وقدر بعضهم الفاء وهو حمل على القليل إذ حذف العاطف وحده فى السعة قليل ، ولا سيما على تقدير غير الواو ، وأجاز بعضهم كون الجواب هو قلت ، وتولوا مستأنف ، ومن الدمع قال جار الله والقاضى : فى محل نصب على التمييز ، ومن للبيان وهو باطل من حيث الصناعة ، ولو صح من حيث المعنى ، وقيل : من صلة ، والدمع تمييز بناء على جواز زيادة من مع المعرفة ، وتعريف التمييز ، وقيل : من صلة ، والدمع بدل اشتمال من الضمير فى تفيض ، وذلك أبلغ من قولك : يفيض دمعها ، لأن العين جعلت كأنها دمع ، أى فائض ، وحزنا مفعول لأجله ناصبة تفيض ، أو حال من الهاء مبالغة ، أو بتقدير ذوى حزن أو بتأويله بحزنين أو مفعول مطلقا بمحذوف دل عليه تفيض (ألاَّ يَجِدُوا) أى لئلا يجدوا متعلق بحزنا أو بتفيض ، أى لأنهم لا يجدون إذا لم تحملهم وتنفق عليهم (ما يَنفِقُونَ) على تملك الحمولة وعليها وعلى أنفسهم ، فيتعذر غزوهم وهم سبعة من الأنصار ، سموا البكائين لبكائهم فى ذلك ، معقل بن يسار ، وعبد الله بن كعب ، وعلبة بن يزيد ، وصخر بن خنساء ، وسالم بن عمير ، وثعلبة بن غنمة ، وعبد الله بن معقل .

وقيل سبعة من بطون شتى : سالم بن عمير من بنى عمر ، وابن عوف ، وحضرمى بن عمرو من بنى واقف ، وأبو ليلى عبد الرحمن من بنى مازن بن النجار ، وسلمان بن صخر من بنى المعلا ، وأبو رعيلة عبد الرحمن بن زيد من بنى حارثة ، وعمرو بن غنمة من بنى سلمة ، وعائذ بن عمرو المزنى ، وقيل : عبد الله بن عمرو المزنى ، وعبارة بعض عتبة بن زيد .

وقال مجاهد : هم بنو مقرن الإخوة الستة ، وقد مروا فى غير هذه الآية ، وعزاه بعض للجمهور ، وقيل : إنهم بنو مقرن ، وإنهم ثلاثة : معقل ، وسويد ، والنعمان ، والصحيح أنهم ستة ، واسم الثلاثة الآخرين : عقيل ، وسنان ، وهند ، وقيل : أحدهم عبد الرحمن ، وقيل : نزلت فى عبد الله بن معقل ، وقيل : عائذ بن عمرو ، وقيل : فى العرباض بن سارية ، وقيل : فى هؤلاء مع عمرو بن الحمام ، وقيل : فى أبى موسى الأشعرى ورهطه ، قال : أرسلنى أصحابى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسأله الحملان ، فقال : « والله لا أحملكم على شىء » فرجعت حزينا بمعنه ، وللخوف وجد على فى نفسه ، فأخبرتهم ولبثت سويعة ، وسمعت بلالا ينادى : أين عبد الله بن قيس ؟ فأجبته ، فقال : أجب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتيته فقال : « خذ هاتين القرنيتين » وهاتين القرينتين لستة أبعرة ابتاعهن حينئذ من سعد « فانطلق بهن إلى أصحابك فقل إن الله أو إن رسول الله يحملكم على هؤلاء فاركبوهن » .

وروى أن علبة بن زيد ، صلى من الليل ويبكى وقال : اللهم إنك قد أمرت بالجهاد ورغبت فيه ، ثم لم تجعل عندى ما أتقوى به مع رسولك ، ولم تجعل فى يد رسولك ما يحملنى عليه ، وإنى أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة فى مالى أو جسدى أو عرضى ، ثم أصبح مع الناس ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « أين المتصدق بهذه الليلة ؟ » فلم يقم أحد ، ثم قال : « أين المتصدق ؟ » فليقم فقام إليه فأخبره فقال صلى الله عليه وسلم : « أبشر فوالذى نفس محمد بيده لقد كتبت فى الزكاة متقبلة » .

(إِنَّمَا السَّبِيلُ) بالمعاتبة والعاقبة (عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ) فى التخلف (وَهُمْ أَغْنِيَاءُ) قادرون على الخروج معك ، زعم بعض أن

إنما هنا للمبالغة والتأكيد دون الحصر ، قلت : بل هى للحصر الإضافى ، كأنه قيل : على الأغنياء القادرين ، لا على المعذورين ، فليس عدم وجود السبيل إلى غير هذه الفرقة مانعا للحصر فافهم ، بل يجوز أن يراد بالسبيل الكامل فى المعاملة ، وهو يتوجه إلى من اتصف بالغناء ، ولنا سبيل أخرى غير كاملة تتوجه إلى من له قدرة ما ، ولكنه لا يتصف بالغناء ، فالمراد على هذا حصر السبيل الكامل فى العتاب على الأغنياء فافهم ، هذا ما ظهر لى فى ثبات الحصر ، ثم استأنف ذمهم مبينا للسبب استئذانهم فى التخلف بلا عذر ، وهو رضاهم بالدناءة إيثارا للراحة إذا قال :

(رَضُوا بأَنْ يكُونُوا مَعَ الخوَالفِ وطَبَعَ اللهُ على قلُوبهم) فغفلوا عن سوء العاقبة وما طبعه إلا خذلانه ، وليس بخير (فَهُمْ لا يعْلمُونَ) ما فى الجهاد من الخير ، وما التخلف من الضير ، نزل ذلك فى الجد بن قيس ، ومعتب وعبد الله ابنى أبى ونحوهم وقد مر .

(يعْتَذرونَ إليكُم) عن تخلفهم (إذا رجَعْتُم) الخطابان للنبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، لأنهم يعتذرون أيضا للمؤمنين ، وقيل : الخطابان للنبى صلى الله عليه وسلم والجمع تعظيم (إليْهم) من هذه الغزوة .

(قلْ) لهم (لا تعْتذرُوا) وعلل هذا بقوله : (لنْ نؤْمنَ لكُم) أى لن نصغى ولن ننقاد إلى اعتذاركم لأنه كذب ، وعلل هذا بقوله : (قدْ نبَّأنا اللهُ) أى عرفنا بتشديد الراء فهو محتاج إلى مفعولين : الأول نا ، والثانى محذوف منعوت بقوله : (منْ أخْباركُم) أى شيئا من أخباركم ، أو هو إخبار ومن للتأكيد على قول أبى الحسن الأخفش ،

يجوز بزيادة من فى الإيجاب ، ومع المعرفة أى قد نبأنا الله أخباركم ، أو نبأ بمعنى أعلم ، فالمفعولان الأولان هما ما ذكر ، والثالث تقديره كذبا أو كاذبة ، وأخبارهم على الوجه الأول هى ما فى قلوبهم من النفاق والفساد ، والخيال والإيضاع ، خلاف المؤمنين ، وبغى الفتنة ونحو ذلك ، وعلى الثانى هى كلامهم فى الاعتذار .

(وسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُم ورسُولُه) بعد ذلك أتتوبون عن النفاق أم لا ؟ وهذا إمهال واستتابة ، أو تفون بالوعد أم لا ؟ وذلك أنه قيل : وعدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنصر ، روى أن ابن أبىّ حلف بالله الذى لا إله إلا هو لا يتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أبدا ، وطلبه أن يرضى عنه ، فنزل ذلك إلى قوله : « الفاسقين » وإن قلت : لم قال : « وسيرى الله » وهو قد علم بما يعملون فى الأزل ؟

قلت : لأن مراده بالرؤية الجزاء ، وذلك أنها بمعنى العلم ، والعلم بشىء يقتضى الجزاء عليه خيرا أو شرا ، والجزاء إنما هو بعد العمل ، أو لأن كما علمه فى الأزل ، وبعد الأزل يعلمه إذا وقع أو لأن المراد سيراه الرسول ، وذكر الله تعظيما وتأكيدا .

(ثُمَّ تُرَدُّونَ) بالبعث (إلى عَالمِ الغَيْبِ) كلما غاب عن الخلق (والشَّهادةِ) كلما شاهده الخلق ، والأصل ثم تردون إليه فوضع الظاهر موضع الضمير ليدل على علمه بما أخفوا وما ظهروا (فَيُنبِّئُكُم بما كُنتم تعْملونَ) بالتوبيخ والعقاب ، وذلك أن المشركين يسألون فى بعض مواطن القيامة توبيخا ، ولا يسألون فى بعض ، ولا يسألون عتابا يعقبه رضا ، أو أراد بالتنبيه الجزاء ، فإن جزاءهم على أعمالهم كالإخبار بها ، وإن لم يكونوا مشركين فلا إشكال ، فإنهم يحاسبون حسابا يسيرا .

(سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ إِذا انقَلَبْتُم) رجعتم (إِلَيهم لِتُعرضُوا عَنْهم) أى لتتركوا عتابهم وتوبيخهم (فأعْرضُوا عَنْهم) كما يحبون ، فإن العتاب لا يؤثر فيهم ، وعلل ذلك بقوله : (إِنَّهم رِجْسٌ) أى لأنهم نفس الخبث والنجس ، فلا يطهره شيء ، بخلاف من أصله طاهر ، فإنه اذا فرطت منه زلة أمكن تطهيرها وبقوله :

(ومَأواهُم جَهنَّم) أى مصيرهم هى ، والتعليلان مغيبان وكأنه قيل : لأنهم نفس الخبث والنجس ، ولأن الله سبحانه قد أوعدهم النار فهى تكفيهم عتابا وتوبيخا فلا تتكلفوهما ، أو هذا من تمام التعليل الأول ، وقيل : معنى :« فأعرضوا عنهم » فلا تجالسوهم ولا تكلموهم (جزاء) مفعول مطلق أو مفعول لأجله معلل لقوله اعرضــوا أو للمحذوف أى اوعدتهم بجهنم جزاء (بمَا كانُوا يكْسبُونَ) .

وعن بعضهم : إن هذه الآية « سيحلفون بالله » الخ أول ما نزل فى المنافقين فى غزوة تبوك ، وذلك أن بعض المنافقين استأذنوه فى التحلف فأذن لهم ، فخرجوا من عنده ، وقال أحدهم : والله ما هو إلا شحمة لأول آكل ، فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل فيهم القرآن ، فانصرف رجل من القوم فقال للمنافقين فى مجلس منهم : والله لقد نزل على محمد فيكم قرآن ، فقالوا له : وما ذلك ؟ قال : لا أحفظ إلا أنى سمعت وصفكم بالرجس ، فقال لهم مخشى : والله لوددت أن أجلد مائة جلدة ولا أكون معكم ، فلحق برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : «ما جاء بك » فقال : وجه رسول الله تسفه الريح ، وأنا فى الكن ، فروى أنه ممن تاب ، وقيل : لما قدم من تبوك جلس للناس ، فجاء المتخلفون يعتذرون ويحلفون ، فقبل عنهم ، وبايعهم واستغفر لهم ، ورضى عنهم فنزل قوله تعالى :

(يحلفون لكم لترضوا عنهم) فينفعهم ذلك فى دنياهم (فإن ترضوا عنهم) جوابه محذوف ، أى فلن ينفعهم رضاكم دون رضا الله ، أو لم يجز لكم بعد الأمر بالإعراض ، ونابت عنه علته وهى قوله : (فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين) لأنه يعلم سرهم ، لا يغره ظاهرهم كما يغركم ، وليس رضاكم يستلزم رضاه •

(الأعراب) عرب البادية ، والعرب يطلق أيضا على من سكن القرى والمدن ، ممن نسبته عربية ، وكلامه عربى ، فهو أعم من الأعراب بالعموم المطلق ، وقيل : العرب من سكن الحاضرة فقط ، فبينهما مباينة ، وكلاهما اسم جمع ، والمفرد عربى وأعرابى ، وليس الأعراب جمع للعرب كما قيل ، وذكر بعض شيوخ ابن قاسم : أن العرب خلاف العجم ، سكنوا البادية أو القرى ، والأعراب سكان البادية ، تكلموا بالعربية أولا فيهما عموم وخصوص من وجه ، قال ابن قاسم : إن أريد بالعجم عجم النسب توقف العموم من وجه ، على أن يراد بسكان البوادى من يشمل عجم النسب ، وإن أريد عجم اللسان أو أعم من عجم النسب واللسان لم يتوقف على ذلك ، وقال الغزى فى حاشية مطول السعد : الأعجمى منسوب إلى الأعجم ، وهو الذى لا يفصح وإن كان من العرب ، والعربى خلافه ، وعليه فليس بين الأعراب والعرب عموم وخصوص من وجه ، ويجمع الأعراب على أعاريب •

(أشد كفرا) شركا (ونفاقا) من أهل الحضر لبعدهم عن مجالسة العلماء ، وسماع القرآن والسنة والوعظ ، ولذلك قست قلوبهم ، ونجم نفاقهم ، وأطلقوا ألسنتهم ، كان زيد بن صوحان يحدث أصحابه بالعلم ، وعنده أعرابى ، وقد أصيبت يده اليسرى يوم نهاوند ، فقال الأعرابى : والله إن حديثك ليعجبنى ، وإن يدك لتريبنى ، فقال : وما

يرينك من يدى وهى اليسرى ؟ فقال الأعرابى : والله ما أدرى اليمين تقطعون أم الشمال ؟ فقال زيد : قال الله : « الأعراب أشد كفرا ونفاقا » .

(وأجدرُ) أى أحق (أن لا يعلموا) يعرفوا (حدودَ ما أنزلَ اللهُ على رسولِه) الفرائض والسنن والأحكام ومعالم الشريعة ، وفى الحديث : « الجفا والقسوة فى الفدادين » وهم الحمالون والرعيان والبقارون والحمارون والفلاحون وأصحاب الوبر والذين تعلوا أصواتهم فى حروثهم ومواشيهم (واللهُ عليمٌ) بحال أهل الوبر والمدر (حكيمٌ) فيما يصيب به المسىء والمحسن عقابا وثوابا ، وفى ما حد من الحدود .

(ومِنَ الأعرابِ مَنْ يتخذُ) يجعل أو يعد (ما ينفقُ) فى سبيل الله جهادا وزكاة (مَغرماً) أى غرامة ، فهو مصدر ميمى ، ومعناه ومعناه الخسران ، لأنه إنما ينفق خوفا من المؤمنين ، أو رياء لا رجاء ثواب ، أو خوف عقاب ، ومن الغرامة ما ينفقه الإنسان ، وليس يلزمه ، قيل : وأصله الدين ثم كثر استعماله فى ذلك .

(ويتربصُ) ينتظر (بكم الدوائرَ) نوائب الدهر وتقلباته ، بأن يموت الرسول ويظهر المشركون أو يغلبوم والمؤمنين ، فيستريحوا من الإنفاق والأحكام (عليهم دائرةُ السوءِ) هذا على طريق الدعاء ، وكل ما كان بطريق الدعاء من الله فهو إيجاب ، لأنه إنما يدعو من كان فوقه أحد يملك مالا يقدر هو عليه ، ويجوز أن يكون ذلك إخبارا من الله سبحانه وتعالى .

وعلى كل ، فذلك مقابلة لهم بمثل ما تربصوه بالمؤمنين ، بأن تكون

الغلبة للنبى والمؤمنين والفوز ، ومثله : « وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم » والدائرة مفرد الدوائر ، وهى اسم فاعل للخصلة تغلبت عليها الاسمية ، أو مصدر بمعنى الدور ، تغلبت عليه أيضا ، سميت به عاقبة الزمان ، فإنه تارة يأتى بالشر ، وتارة بالخير ، فهى من دور الزمان بمعنى تصرفه وتقلبه ، أو من الدور بالشىء بمعنى الإحاطة به ، فهى ما يصيب الإنسان ويحيط به ، بحيث لا يتخلص منه ، فعلى أنها تطلق عامة إضافتها للسوء لتبين المراد بها ، وعلى أنها تطلق فى الشر ، فإضافتها إليه مبالغة .

والسوء بفتح السين وإسكان الواو إسكانا حيا مصدر ، وفى الإضافة إليه من حيث إنه مصدر مبالغة على حد قولك : رجل كذب ، ورجل زنى ، ورجل صدق بالإضافة مبالغة فى الذم والمدح ، وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو هنا وفى سورة الفتح ، بضم السين وإسكان الواو ميتا ، وكذا ابن محيصن ، وعاصم ، والأعمش فى رواية عنهم هنا ، وهو أيضا رواية عن ابن كثير ، ولم يختلف القراء فى الفتح فى « وما كان أبوك امرأ سَوْءٍ » والمعنى واحد عند بعض .

وقال بعض : المفتوح مصدر ، والمضموم اسم ، وهو الذى يظهر لى ، وقيل : المضموم اسم مصدر ، وقيل : هو فى الأصل مصدر ، ولا يقال : رجل سَوء إلا بفتح السين فيما قال الأكثرون ، وحكى قوله :

وكنت كذئب السوء لما رأى دما
بصاحبه يوما أحال على الدم

بضم السين .

(والله سميع) لما يقولون عند توجه الإنفاق والصدقات إليهم بإلزامها إياهم ، وعند الإنفاق والتصديق (عليم) بإظهارهم الكفر والنفاق ، والغش والسوء للمؤمنين ، قيل : أعراب أسد وغطفان وتميم ، واستثنى الله منهم بقوله :

(ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر) قال مجاهد : هم بنو مقرن من مزينة ، وهم ستة على المشهور ، وقيل : ثلاثة ، وقيل : سبعة ، وقيل : عشرة ، روى عن عبد الرحمن بن معقل ابن مقرن : إنا كنا عشرة ولد مقرن ، فنزلت فينا : « ومن الأعراب من يؤمن بالله » الآية ، قال بعضهم : أراد بالعشرة أولاد مقرن الستة أو السبعة ، وأولادهم ، وقيل : عبد الله ذو البجادين ورهطه ، وسمى بذلك لأنه حين أراد المسير إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم شقت له أمه بجادا ، وهو كساء باثنين ، فاتزر بواحد وارتدى بالآخر ، وقيل : منعه بعض قومه ، فبقى فى واحد فشقه كذلك حين قرب المدينة وهو المشهور ، وقد ذكرته فى غير هذا الموضع ، ومات فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم .

وقال الكلبى : أسلم وغفار وجهينة ، وعن أبى هريرة : هؤلاء ومزينة ، وفى الحديث عنه : أن تلك الفرق الأربع خير بنى تميم ، وبنى أسد ، وغطفان ، وبنى عامر بن صعصعة ، وأنه صلى الله عليه وسلم قال : « أسلم سلمها الله ، وغفار غفر الله لها ، أما أنا لم أقبلها لكن الله قالها » وقال : « قريش ، والأنصار ، وجهينة ، ومزينة ، وأسلم وأشجع ، وغفار موال ليس لهم مولى دون الله ورسوله » .

(ويتخذ ما ينفق) فى الجهاد ومن الزكاة (قربات) سبب

قربات جمع قربة بضم الراء كالقاف ، أو قربة بإسكانها ، وعليه فضمة الراء فى جمعه تبعا للقاف لجواز اتباع العين للفاء فى الجمع بألف ، وتاء الاسم غير الصفة الثلاثى السالم العين من تضعيف ، وجر اعتلال الساكن العين المؤنث مختوما بتاء التأنيث ، أو مجرد ، ولغة هذيل الاتباع أيضا فيما إذا كان قبل حرف العلة فتحة وهو مفعول ثان .

(عِنْدَ اللهِ) نعت للقربات ، أو متعلق بيتخذ ، ومعنى الضدية أنك إذا تقربت إلى شىء فقد حصلت لك قربة بحضرته ، (وصَلَوَاتِ الرَّسُولِ) أى أدعيته بخير الدنيا والآخرة ، وكان صلى الله عليه وسلم يدعو للمتصدقين حين أخذ صدقاتهم ويستغفر لهم كقوله : « اللهم صلى على آل أبى أوفى » أى ارحمهم ، وذلك سنة ، ولكن لا يدعو غيره بلفظ الصلاة ، ويأتى فيه كلام إن شاء الله ، ولا يدعو بالجنة لمن لا يتولاه ، والعطف على قربات ، أى وسبب صلوات الرسول ، أو على ما ، والأول أرجح وحقق الله رجاءهم بقوله :

(ألاَ إنَّهَا) أى نفقتهم المدلول عليها بذكر الإنفاق ، وأن عطف الصلوات على ما فالأنسب عود الضمير للصلوات ، وأزال الغفلة بألا وأكد بها ، وبأن (قُرْبَةٌ لَهُم) وقرأ ورش بضم الراء وهو الأشهر عن نافع ، وسكنها الباقون ، واختلف عن عاصم والأعمش وهما لغتان (سَيُدْخِلُهم اللهُ فى رحْمَتِهِ) وعد بإحاطة الرحمة بهم ، والسين لتأكيده على ما مر من جار الله ، وقرره بقوله : (إنَّ اللهَ غَفُورٌ) للمؤمنين المنفقين (رَحِيمٌ) بهم إذ وفقهم للطاعة .

(والسَّابِقُونَ الأوَّلُونَ) مبتدأ وخبر ، أى السابقون بالخير هم الأولون ، أو مبتدأ أو نعت ، والخبر رضى الله عنهم (مِنَ المهاجرينَ

والأنصار) أما السابقون من المهاجرين فالذين صلوا إلى القبلتين ، وأما من الأنصار فأهل بيعة العقبة الأولى ، وهم سبعة ، وأهـل العقبة الثانية وكانوا سبعين ، والذين آمنوا حين قـدم عليهم فى المدينـة : أبو زرارة مصعب بن عمير ، علمهم القرآن .

وقيل : أهل العقبة الأولى وهم ستة ، والثانية وهم اثنا عشر ، وقيل : أحد عشر ، والثالثة وهم سبعون منهم البراء بن معرور ، وعبد الله ابن عمرو ، وابن حزام ، وسعد بن عبادة، وسعد بن الربيع ، وعبد الله ابن رواحة ، أما الستة : فأبوا أمامة سعد بن زرارة ، وعوف بن الحارث ابن رفاعة ، وهو ابن عفراء ، ورافع بن مالك بن عجلان ، وقطبة بـن عامر بن حديدة ، وعقبة بن عامر بن نابى ، وجابر بن عبد الله بن رباب ، وليس بجابر بن عبد الله بن عمرو بن حزام ، ومنهم من يجعل فيهم عبادة بن الصامت ، وبعضهم يجعله بدل جابر ، واعدوه أن يرجعوا إلى عشائرهم ويدعوهم إلى الإسـلام بعد أن يصـلحوا ذات بينهم ليجتمعوا عليه ، وقد كانت قبل عامهم ذلك حرب ، وأن يرجعوا العام القابل فلم تبق دار إلا وفيها ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولقيه فى القابل اثنا عشر ، وهم أصحاب العقبة الثانية ، وهـم الستة إلا جـابر ومعاذ بن الحـارث بـن رفاعة ، أخـو عـوف ، وذكـر أن ابن عبـد قيس الزرقى ، وعبـادة بـن الصـامت ، وأبو عبد الرحمن يزيد بن ثعلبة ، والعباس بن عبادة ، وهم من الخزرج ، وأبو الهيثم بن التيهان بإسكان التحتية ، وقيل : بتشديدها مـن بنى عبد الأشهل ، وعويم بن ساعدة ، وهما من الأوس ، وكان أسعد يجتمع بمن أسلم فى المدينة ، وكتب إليه الأوس والخزرج أن ابعثوا إلينا من يعلمنا القرآن ، فبعث إليهم مصعبا ، وقيل : كتب إلى مصعب بهم أن

يجتمع بهم ، وبايعه الاثنا عشر كبيعة النساء بعد ، وعلى السمع والطاعة ، فى انعسر واليسر ، والمنشط والمكره ، وقبول تفضيله غيرهم عليهم ، وعدم منازعة الأمر أهله ، والقول بالحق بلا خوف لوم لائم وأظهر الله الإسلام بهم فى المدينة •

وكانت الجمع فى الصلاة بأربعين رجلا ، أسلم بيد مصعب كثير منهم : سعد بن معاذ ، وأسيد بن حضير ، وأسلم بهم جميع بنى عبد الأشهل فى يوم واحد إلا عمرو بن ثابت ، فأسلم يوم أحد واستشهد ولم يسجد سجدة ، وأخبر صلى الله عليه وسلم أنه من أهل الجنة ، ولم يكن فى بنى عبد الأشهل ، ففى العام الثالث ، وأهلها سبعون رجلا ، وقيل : وامرأتان ، وقيل : يريدون رجلا أو رجلين • وقال ابن إسحاق : ثلاثة وسبعون وامرأتان ، وقال الحاكم : خمسة وسبعون منهم ثلاث نسوة ، وأول من بايع البراء بن معرور ، وقيل : أبو الهيثم ، وقيل : أسعد بايعوه يومئذ على منعه مما يمنعون أهلهم ، وعلى حرب العرب والعجم ، وحضر هذه العقبة العباس يتوثق له صلى الله عليه وسلم ، وكان على دين قومه ، وذلك ليلا •

وأول من هاجر أبو سلمة بن عبد الأسد ، ثم عامر بن ربيعة ، وامرأته ليلى ، ثم عبد الله بن جحش ، ثم المسلمون أرسالا ، ثم عمر ابن الخطاب وأخوه زيد ، وعياش بن ربيعة فى عشرين راكبا ، ثم عثمان ، قيل : حتى لم يبق معه إلا أبو بكر وعلى ، وذكر بعض : أن ذكوان رجل من المدينة إلى مكة ، وسكنها معه صلى الله عليه وسلم ، ثم هاجر وهو مهاجرى أنصارى ، قتل يوم أحد •

وقيل : « السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار » هم أهل

بـدر ، وحولت القبلة قبل بدر بشـهرين ، وقيل : الذين أسلموا قبل الهجرة ، وقيل : أهل بيعة الرضوان ، وقال محمد بن كعب القرظى جميع الصحابة لحصول السبق لهم بصحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو ضعيف ، لأن من أسلم يوم الفتح ليس مهاجريا ولا أنصاريا ، ولا يشمل اللفظ ، وكذا سائر من أسلم ، وليس بواحد .

وقيل : كل من هاجر قبل نسخ الهجرة ، وكل من أسلم من الأوس والخزرج على عهده صلى الله عليه وسلم ، وقد قسم الصحابة ثلاثة : مهاجرى ، وأنصارى ، وسائر من أسلم من الصحابة ، إلا إن قيل : المراد بالأنصار كل ناصر لرسول الله لو لم يكن من الأوس والخزرج ، وهم طبقات : من أسلم أول البعث كخديجة ، وأبى بكر ، وعلى ، ومن أسلم بحمل عمر بعد إسلامه النبى صلى الله عليه وسلم ومن معه إلى دار الندوة ، ومن هاجر إلى الحبشة كجعفر بن أبى طالب ، وكانوا أحد عشر ، وقيل : اثنـا عشر معهم أربع نسـوة ، وقيل : خمس ، وقيل : اثنتان وأميرهم عثمان بن مظعون ، وقال الزهرى : لم يكن فيهم أمير .

وأول من خرج عثمان بن عفان مع رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خبرهما عنه فأخبرته امرأته بأنه قد حمل امرأته على حمار ، فقال إن عثمان أول من هاجر بأهله بعد لوط ، وفيهم من هاجر بأهله سواء ، وذلك سنة خمس من النبوة ، وأصحاب العقبة الأولى ، وأصحاب الثانية ، وأصحاب الثالثة ، ومن هاجر بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولحقه بقباء قبل بناء المسجد ، والانتقال إلى المدينة ، وأهل بدر الكبرى ، ومن هاجر بين بدر والحديبية ، ومن بايع بيعة الرضوان ، ومن هـاجر

بعد الحديبية وقبل الفتح : كخالد وعمرو بن انعاص ، وأبو هريرة ، ورجح أنه هاجر قبل الحديبية عقب خيبر فى أواخر خيبر ، ومن أسلم يوم الفتح وهم خلق كثير ما بين بائع وكار ، ثم حسن إسلامه ، ومن هو صبى أدرك النبى صلى الله عليه وسلم وأراه يوم الفتح أو بعده فى حجة الوداع وغيرها ، كالسائب بن زيد •

وأول الناس إسلاماً خديجة ، هى من أول مَنْ صلى معه صلى الله عليه وسلم ، ثم أبو بكر ، وقيل : أسلم قبله على ، وعليه الأكثر ، بل قال ابن عبد البر باتفاق : وهو صبى ذو عشر سنين ، بمعنى أنه صدق به ، وكره أمر قومه ، وقيل : أقل من عشر ، وقيل أكثر ، وقيل بالغ ، والصحيح خلافه ، وقيل : تلاها فى الإسلام ورقة بن نوفل ، وقيل زيد بن حارثة •

ويجمع ذلك بأن أول من أسلم على الإطلاق خديجة ، وأول من أسلم من الرجال الأحرار ، وأظهر إسلامه ودعى إليه أبو بكر ، وأول من أسلم منهم بدون إفشاء ودعاء إليه ورقة ، وأول من صدق به وأذعن له من الصبيان على ، ومن الموالى زيد بن حارثة ، ومن العبيد بلال ، وأول امرأة أسلمت بعد خديجة أم الفضل زوج العباس ، وأسماء بنت أبى بكر ، قيل : وعائشة ، ويرده أنها حينئذ لم تولد ، وإنما ولدت سنة أربع من البعثة •

وأسلم بعد زيد عثمان ، والزبير ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد ابن أبى وقاص ، وطلحة بن عبيد الله ، دعاهم أبو بكر فاستجابوا له ، ثم أبو عبيدة عامر بن الجراح ، وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد ،

والأرقم بن أبى الأرقم المخزومى ، وعثمان بن مظعون ، وأخوه أدامة ، وعبد الله وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف ، وسعيد بن زيد بن عمر بن نفيل ، وامرأته فاطمة بنت الخطاب •

ولم يسلم بسبب أحد أكثر مما أسلم بأبى بكر ، والأمثل ما أسلم به ، وذلك أنه محبب فى قومه ، وكان سهلا لينا أنسب قريش لقريش ، وأعلمها بما فيها ، وسخيا وذا خلق حسن ، وكان يدعو من يثق به من قومه ، وقرأ عمر والحسن وقتادة ويعقوب برفع الأنصار عطفا على السابقون ، وعلى القراءتين يكون عطف ما بعد •

(والَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ) إلى يوم القيامة وقيل : بقية المهاجرين والأنصار ، سوى السابقين ، وقال عطاء : هم الذين يذكرون فيترحمون عليهم ، ويدعون لهم ، وفى حديث : « من أقام الصلاة ، وآتى الزكاة ، ومات ولا يشرك بالله شيئا غفر الله له حقا هاجر أو قعد فى مولده إنما يتقبل الله من المتقين » وذلك بعد نسـخ الهجرة ، وكون الجهـاد تطوعا •

قال : « وإنما فى الجنة لمائة درجة بين كل درجتين كما بين السماء والأرض للمجاهدين ، ولولا أن أشق عـلى أمتى ، ولا أجد ما أحملهم عليه ، ولا تطيب أنفسهم بالتخلف ، ما قعدت خلف سرية ، ولوددت أن أقاتل فى سبيل الله سبحانه وتعالى فأقتل ، ثم أحيا ، ثم أقتل ، ثم أحيا ، ثم أقتل » قال جمهور العلماء السلف والخلف : إن الصحابة أفضل الخلق بعد النبى صلى الله عليه وسلم ، وفى الحديث : « خير الناس قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » أو قاله ثلاثا ، واختلفوا فى القرن من عشرة إلى مائة وعشرين ، وقـال فى فتح البارى : لـم أر مـن صرح بالتسعين ، ولا بمائة وعشرة •

قلت : قال العلامة الشيخ إبراهيم اللقانى : قد رأينا الإمام الفارقانى صرح بقول من قال : إنه تسعون ، وقول من قال : إنه مائة وعشرة ، وقال صاحب المحكم : هو القدر المتوسط من أعمار أهل كل زمان ، وهذا أعدل الأقوال والترتيب فى قوله : « ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » بالنسبة إلى المجموع عند ابن عبد البر ، قال : قد يكون فيمن يأتى بعد الصحابة أفضل ممن كان فى جملة الصحابة •

وفى حديث أبى أمامة : « طوبى لمن رآنى وآمن بى ، وطوبى سبع مرات لمن لم يرنى وآمن بى » وفى حديث عمر : « أفضل الخلق إيمانا قوم فى أصلاب الرجال يؤمنون بى ولم يرونى ، فهم أفضل الخلق إيمانا » لكن سنده ضعيف ، وفى حديث أبى عبيدة بن الجراح : يا رسول الله هل أحد خير منا ؟ أسلمنا معك ، وجاهدنا معك ؟ قال : « قوم يكونون بعدكم يؤمنون بى ولم يرونى » •

وكتب عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة إلى كل من فقهاء زمانه : أن أكتب إلىّ بسيرة عمر ، منهم سالم بن عبد الله ، فكلهم كتب إليه أن عملت بسيرة عمر ، فأنت أفضل من عمر ، لأن زمانك ليس كزمان عمر ، ولا رجالك كرجال عمر • وفى حديث : « مثل أمتى مثل المطر ، لا يدرى آخره خير أم أوله » وفى حديث : « ليدركن المسيح أقواما إنهم لمثلكم أو خير ثلاثا ، وأن يخزى الله أمة أنا أولها والمسيح آخرها » وفى حديث : « تأتى أيام للعامل فيهن أجر خمسين منكم » وقال الجمهور : إنه لا يكون غير الصحابى كالصحابى ، ولا أفضل منه ولو صحبة ، ورآه مرة من عمره •

واشتهر فى كتبنا الفقهية : أن واحدا ممن يأتى خير من سبعين من أبى بكر وعمر ، وهذا مما يناسب مذهب ابن عبد البر ، وهذا ما مر الاستدلال به يقتضى التسوية بين أول الأمة وآخرها فى فضل العمل ، قال ابن عبد البر : إلا أهل بدر والحديبية ، وأجيب من جانب الجمهور : بأن مجرد زيادة الأجر لا يستلزم ثبوت الأفضلية المطلقة ، وبأن الأجر إنما يقع تفاضله بالنسبة إلى ما يماثله فى ذلك العمل .

وأما ما فاز به من شاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من المشاهدة له ، والقتال معه ، أو بأمره ، والإنفاق بسببه فلا يعدله أحد فى الفضل ، قال الله تعالى : « لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح » الآية وبأنه يحتمل أن يقول ذلك قبل علمه بأفضلية الصحابة ، ولما علمها صرح بقوله : « لو أنفق أحدكم ملء الأرض ذهبا لم يبلغ مُدّ أحدهم ولا نصيفه » وبقوله : « خير القرون قرنى » وأيضا هم ضبطوا الشرع لمن يأتى .

وذكر بعض : أن الخلاف فى صحابى لم يحصل له إلا مجرد الرؤية ، وأن قد زاد بنحو رواية أو غزو فلا نزاع فيه أنه أفضل ، وكان عمر يرى الذين اتبعوه بغير واو ، وقيل : الذين فيكون نعتا للأنصار ، قال له زيد ابن ثابت : إنه بالواو ، فقال : إيتونى بأبىّ بن كعب ، فقال بالواو ، فقال عمر : ما كنا نرى إلا أنا قد رفعنا رفعة لا ينالها معنا أحد ، فقال أبى : إن مصداق هذا فى سورة الجمعة : « وآخرين منهم لما يلحقوا بهم » وفى سورة الحشر : « والذين جاءوا من بعدهم يقولون » الآية ، وفى سورة الأنفال : « والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم » ورجع عمر إلى قول زيد .

وروى أنه سمع قارئا بالواو وقال : من أقرأك ؟ فقال : أبي ، فدعاه فقال : أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنك لتبيع القرظ بالبقيع ، قال : صدقت ، وإن شئت قلت : شهدنا وغبتم ، ونصرنا وخذلتم ، وآوينا وطردتم ، يشير رضى الله عنه إلى قريش .

(رَضِيَ اللهُ عنْهُم) بالتوفيق وقبول الأعمال (ورَضُوا عَنْه) بما أفاض عليهم من نعم الدنيا والآخرة (وأعدَّ لَهم جَنَّاتٍ تَجْرى تَحْتَها الأنهارُ) وقرأ ابن كثير وحده : من تحتها كذا فى مصاحف أهل مكة وحدها (خَالدِينَ فيها أبداً ذَلكَ الفوْزُ العَظيمُ) جعلنا الله من التابعين بإحسان .

(وممَّنْ) متعلق بمحذوف خبر المبتدأ بعد ، ومن للتبعيض (حَوْلكُم) أى حول بلدتكم ، وهى المدينة ، ظرف متعلق بمحذوف صلة من (مِنَ الأعْراب) متعلق بمحذوف حال من ضمير الاستقرار فى ممن ، أو فى حول ومن للبيان (مُنافِقُون) مبتدأ ، وهؤلاء الأعراب هم : جهينة ، ومزينة ، وأسلم ، وغفار ، وأشجع نزلوا حول المدينة ، وكان بعضهم منافقين ، ودعاؤه صلى الله عليه وسلم لهؤلاء القبائل جار على غالبهم ، قيل : ومن هؤلاء الأعراب : عصية ولحيان نزلوا حولها .

(ومِنْ أهْل المدِينَةِ) عطف على ممن ، فكأنه قيل : وممن حولكم من الأعراب ، ومن أهل المدينة منافقون (مَرَدُوا عَلى النِّفاقِ) عتوا فيه ، وأصروا عليه ، وبلغوا منه الغاية ، أو تدربوا فيه ، وتمهروا فى إخفائه ، والجملة نعت لمنافقون ، فصل بينهما بالمعطوف على الخبر ، أو مستأنفة ، ويجوز أن تكون نعتا لمبتدأ محذوف ، أى قوم مردوا على النفاق ، وخبره من أهل المدينة .

قال ابن هشام : يجوز بكثرة حذف المنعوت إن علم ، وكان النعت إما صالحا لمباشرة أو بعض اسم مقدم محفوظ بمن أو فى كقولهم : منا ظعن ، ومنا أقام ، أى منا فريق ظعن ، ومنا فريق أقام ، وهذا أولى من قول الكوفيين : ومن أهل المدينة من مردوا على النفاق ، ومنا الذى ظعن ، ومنا الذى أقام ، لأن اتصال الموصول بصلته أشد من اتصال المنعوت بنعته .

(لا تَعْلَمُهم) منافقين ، أو لا تعرفهم بأعيانهم مع كمال فطنتك لإفراطهم فى إخفاء النفاق ، وكونهم بصورة المخلصين (نَحْنُ نَعْلَمُهم) إذ لا يخفى علينا شىء (سنُعذّبهُم مرَّتيْن) مرة بالفضيحة ، قال الكلبى ، والسدى : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيبا يوم الجمعة فقال : « اخرج يا فلان إنك منافق ، اخرج يا فلان ، اخرج يا فلان »فيكون قد أعلمه الله بهم بعد ، وأسر حذيفة بهم ، فكان إذا مات أحد منهم لا يصلى عليه ، فلامه عمر لم لا تصلى على مسلم مات ؟ فقال : لو كنت مثله ما صليت عليك ، فقال : أمنافق هو ؟ قال : ما كنت لأخبرك بسر رسول الله ، فقال : أناشدك الله أنا منهم ؟ قال : لا ، ولا أؤمن بها غيرك ، وقيل : قال يا أمير المؤمنين إنه من القوم .

وفى ذلك دليل لأصحابنا على أن النفاق فى القرآن فعل كبيرة غير شرك ، إذ لا يشك عمر فى شرك نفسه ، وأجيب بأنه خاف أن يكون فيه كبيرة شرك لم يطلع عليها ، أو خاف أن يختم له بالشرك ، ومرة بالقتل بأن أظهر الله منهم ما يوجب القتل ، أو ما يلحقهم بالمشركين ، وقال مجاهد : مرة بالقتل والأسر ، بأن أظهر الله منهم ما يوجب الحكم عليهم بحكم المشركين ، وفيه ضعف ، ومرة بالجوع ، وعنه : المرتان بالجوع .

وقال قتادة : مرة بخراج فى ظهورهم تنفذ فى صدورهم ، ومرة فى

القبر ، وقال ابن زيد : مرة بالمصائب فى الأموال والأولاد ، ومرة فى القبر ، وعن ابن عباس : مرة بالفضيحة ، ومرة فى القبر ، وعنه : مرة بإقامة الحدود ، ومرة فى القبر •

وقال الحسن : مرة بأخذ الزكاة ، ومرة بنهك أبدانهم ، وقال ابن إسحاق : مرة بغيض الإسلام وجريان حكمه عليهم كارهين ، ومرة فى القبر ، وقيل : مرة بضرب وجههم وأدبارهم عند الموت ، ومرة فى القبر ، وعن بعضهم : مرة بإحراق مسجد الضرار ، ومرة بالإحراق بالنار فى القبر ، ويجوز أن يكون مرة بالقتل ، ومرة فى القبر ، ويجوز أن يكون مرة فى الدنيا بكل ما يصابون بـه ، ومرة فى القبر ، والصحيح عنـدى ثبوت عذاب القبر •

(ثُمَّ يُرَدُّونَ) بالبعث (إلى عَذَابٍ عَظِيمٍ) هو عذاب جهنم ، وهو عذاب ثالث •

(وآخَرُونَ) معطوف علـى « منافقون » (اعْتَرَفُوا) أقـروا بذنوبهم ولم يعتذروا بباطل ، صفة لآخرون ، أو آخرون مبتدأ والجملة خبره أو نعته ، والخبر (خَلَطُوا عملاً صَالحاً وآخر سيئاً) أو هذه نعت ثان ، وحال من واو اعترفوا والخبر (عَسَى اللهُ أن يَتُوبَ عَلَيْهِم) لأنه ولو كان إنشاء لكنه فى الحقيقة وعد وإخبار جيء بصورة الترجى ليكونوا فى خـوف وطمع ولا يأمن ، أو رجح الطمع بقوله : (إنَّ اللهَ غَفُورٌ) للذنب (رَحيمٌ) بالإعطاء ، وأشار به إلى أن ذلك وعد منجز ، أو يقدر القول ، أى مقول فيهم : عسى الله أن يتوب عليهم •

وهؤلاء المعترفون ثلاثة : أبو لبابة مروان بن عبد المنذر ، وأوس

ابن ثعلبة ، ووديعة بن حزام ، وقال قتادة ، والحسن : هم الثلاثة الذين خلّفوا : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع ، وعنهم أنهم نفر هموا بشيء ولم يعزموا عليه وتابوا منه ، وقال ابن عباس : عشرة ، وعنه : خمسة ، وقال ابن جبير : ثمانية أحدهم على كل قول أبى لبابة ، ندموا على تخلفهم بعد نزول القرآن فى المتخلفين وبلوغه لهم ، وقالوا : كيف : تكون فى الظل مع النساء ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون فى الجهاد ، وأيقنوا بالهلاك ، فأوثقوا أنفسهم على سوارى المسجد حين قرب من المدينة فى رجوعه .

وقيل : هم عشرة ، أوثق أنفسهم سبعة ، وقيل : هم سبعة فقط ، زعم بعض أن منهم الجد بن قيس ، ولما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، دخل المسجد وصلى ركعتين على عادته إذ قدم من سفره ، فرآهم موثقين ، فسأل عنهم فقيل : تخلّفوا عنك ، فعاهدوا الله أن لا يطلقوا أنفسهم حتى تطلقهم وترضى عنهم ، فقال صلى الله عليه وسلم ، « وأنا أقسم أن لا أحلهم حتى أومر فيهم ، رغبوا عنى وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين » ونزلت هذه الآية فرضى عنهم ، وأطلقهم ، فذنوبهم هو تخلفهم ، وهو أيضا العمل السيىء ، والعمل الصالح توبتهم ، وقيل ذلك على عموم الذنب ، والعمل الصالح ، ولو كان سبب النزول خاصا .

قيل : ما فى القرآن أعدل من هذه الآية ، وقيل : الآية فى أبى لبابة وذنبه ، هو قوله لبنى قريظة : إن نزلتم على حكم سعد فحكمه الذبح ، ندم وربط نفسه بسارية ، وحلف أن لا يحل نفسه ، ولا يذوق طعاما أو شرابا حتى يموت أو يتوب الله سبحانه عليه ، فمكث كذلك سبعة أيام ، وخر مغشيا عليه ، فنزلت ، فقال : والله لا أحل نفسى حتى يحلنى رسول

الله صلى الله عليه وسلم فحله ، وعمله الصالح هو جهاده قبل ذلك ، وتوبته هذه ، وقيل : توبته •

وقيل : هؤلاء المعترفون قوم من الأعراب منافقون تابوا ، وإن قلت : توبة الله على عبده قبوله التوبة منه ، ولم يذكر الله سبحانه عنهم توبة ؟ قلت : إنهم تابوا ، وأخبرنا الله عنها بقبولها لاستلزامه إياها ، وبذكر الغفران والرحمة ، لأن الرحمة لمن تاب ، وبقوله : « اعترفوا » فإن الاعتراف ولو كان مجرده غير توبة لكنه يشير إليها ، وإذا قارنه الندم والإصلاح حصلت التوبة •

ومعنى الخلط هنا مجرد الجمع بين العملين ، ولذلك لم يعبر بالباء ، وفى ذلك إفادة أن كلا منها مخلوط بالآخر ، ومخلوط به الآخر ، كأنه قيل : أجمعوا بين العمل الصالح والعمل السيىء ومعنى الجمع بينهما فعل كل منهما ، ولو كان فعل الكبيرة يحبط الحسنات حتى أنهما لا يجتمعان كما تقول : جمع زيد بين قراءة القرآن والعلم ، ولو فى حال تلفظه بواحد غير متلفظ بآخر •

هذا إجراء الآية على مذهبنا معشر الأباضية ، ولكن الحسنات هنا نرجع بالتوبة ، ولك أن تقول : الواو فى معنى الباء كقولك خلطت الماء باللبن أى مزجتهما ، فالقوى يفسد الآخر ، فالسيىء هنا يفسد الصالح لقوته ، وقد ورد على الصالح ، وإنما ساغ تأخيره مع أنه المخلوط بالآخر ، لأن العطف بالواو ، ولا تفيد الترتيب ، ولو كان اللفظ بالباء لقيل خلطت عملا سيئا بآخر صالحا ، أو نظر إلى أن المختلطين كل منهما

مخلوط بآخر ، وساغ جعل الواو بدل الباء لأنها للجمع ، والباء للإلصاق والجمع والإلصاق من واد واحد .

وقال الشافعية وغيرهم : إن العمل الصالح والطالح إذا حصلا بقيا معا ، فلذلك كانت الآية بالواو ، وهى الجمع بالباء ، لأن خلط الشىء بالشىء مزجه به كاللبن مع الماء ، والله أعلم .

ولما أطلقهم قالوا : يا رسول الله ، هذه أموالنا التى خلفتنا فتصدق بها عنا ، واستغفرنا ، وطهرنا ، وفى رواية قال أبو لبابة : من تمام توبتى أن أهجر دار قومى التى أصبت فيها الخطيئة ، وأن أتصدق بمالى كله ، وذلك فى مقالته لقريظة ، أو فى تخلفه ، وكذا قيل عن أصحابه فى تخلفهم ، وقال صلى الله عليه وسلم : « ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئا » فنزل :

(خُذْ مِن أمْوالهم صَدقةً تُطهرهُم وتزكّيهم بها) أى خذ شيئا منها ، فمن للتبعيض لا كلها ، وقد روى أنه قال لأبى لبابة وأصحابه : « يجزيكم أن تتصدقوا بالثلث » فخذ من أموالهم الثلث ، ويروى أنه لما حلهم انطلقوا فجاءوا بأموالهم فردها ، فنزل هذا ، فأخذ ثلثها وذلك تكفير لذنبهم ، فإنهم طلبوا منه أن يأخذها ليطهرهم من الذنوب ، ويرفعهم عن الخبث ، ويدعو لهم ، فأمر الله بذلك ، فالمراد تطهرهم عن الذنوب ، أو عن حب المال المؤدى إلى مثل ذلك ، وتزكى بها حسناتهم ، وترفعهم إلى منازل المخلصين قيل : تنمى بها أموالهم .

وزعم قوم أن المراد الصدقة الواجبة لما تابوا وأحسنوا الإسلام أدوها ، وزعم قوم أن هذا كلام منقطع عما قبله ، وأنه فى جميع من

تلزمه الزكاة ، وعليهما فليست الزكاة واجبة فى كل مال على الإطلاق كما بينته السنة ، واستدل أبو حنيفة بالآية على أنه لا زكاة فى مال الصبى والمجنون ، إذ لا ذنب لهما يطهر بها ، ويرده أنه لا يلزم من انتفاء سبب المعنى انتفــاء الحكم مطلقا ، وجملة تطهرهم نعت لصدقة ، والضــمير المستتر للصدقة وهو الرابط ، أو للنبى صلى الله عليه وسلم ، فالرابط محذوف ، أى بها دل عليه ما أبعد على التنازع أو هو المذكور فى قوله : « بها » ويقدر مثله لتزكى ، ولكن تعلق المذكور بتطهر ، وتقدر ضمير تزكى الصدقة .

وقرىء تطهرهم بالإسكان من أطهره ، وقرىء تطهرهم بالتشديد والجزم فى جواب الأمر ، وليست الجملة حينئذ نعتا ولم يقرأ أحد بمحذوف ياء تزكى ، فهو قراءة جــزم تطهر مستأنف أو معطوف على المجــزوم بإسقاط تقدير الضمة ، أو حال بتقدير المبتدأ على أن يتعلق به قوله : « بها » ويجعل ضمير تطهر للزكاة .

(وصــلِّ) أى وادع (عَلَيْهم) بخــير بحيث يغطيهم دعاؤك ، ويكون كستر مسدود عليهم ، قال الشافعى : السـنة للإمام إذا أخــذ الصدقة ولو غير واجبة أن يقول للمتصدق : آجرك الله فيما أعطيت ، وبارك لك فيما أبقيت ، وقيل : يجب عليه الدعاء فى الواجبة ، ويستحب فى غيرها ، وقيل يستحب مطلقاً ، وكان صلى الله عليه وسلم إذا أتاه قوم بصدقة قال: « اللهم صلِّ عليهم » فأتاه أبو أوفى فقال : « اللهم صل على آل أبى أوفى » أو يستحب للفقير الدعاء على معطيها له ، وقيل : يقول : اللهم صل على محمد .

(إنَّ صَلاتَكَ) الجمع باعتبار المدعو عليهم ، وإلا فالمصدر واسمه

يصلحان لواحد ومتعدد بلفظ واحد ، وقرأ حمزة ، والكسائى ، وحفص ، إن صلاتك بالإفراد وفتح التاء .

(سَكَنٌ لَهم) طمأنينة يسكنون إليها ، ويطمئنون بأن الله سبحانه تاب عليهم ، وكل ما سكن إليه من أهل وجيب ومال وغير ذلك فهو سكن ، والجملة تعليل (واللهُ سَميعٌ) باعترافهم ، قيل : أو لدعائك (عليمٌ) بتربتهم ونيتهم .

(ألَم يعْلَموا) وقرىء تعلموا بالفوقية ، وعلى كل حال فالمراد هؤلاء المعترفون ، والتاء على طريق الالتفات ، والمعنى ألم يعلموا قبل نزول توبتهم ، وقبول صدقهم ، وفى ذلك تمكين قبول التوبة والصدقة فى قلوبهم ، وقيل : المراد الذين لم يتوبوا قالوا : هؤلاء كانوا بالأمس معنا ، لا يكلَّمون ولا يُجالسون فما لهم ، فنزلت ترغيبا لهم فى التوبة ، وقبول الصدقة ، وعلى هذا فليس فى التاء التفات .

(أنَّ اللهَ هُوَ) هذا الضمير إنما يفيد التأكيد من حيث المعنى ، سواء جعل مبتدأ أو تأكيداً لاسم إن مستعارا النصب ، ولا مانع من تأكيد الظاهر بالضمير ، بأن الظاهر إذا كان كافيا فى تأدية المراد ، فالضمير المزيد عليه مؤكد قطعا ، لأنه زيادة فى ذلك المراد ، وليس كما زعم بعض أن الظاهر أقوى فلا يؤكده الضمير ، وأجاز بعض أن يكون هو بدلا ، ولا يفيد الحصر ، لأن الخبر بعده ليس اسما معرفا كما فى قولك : إن الله هو القابل ، بل تعريف المسند والمسند إليه مفيد للحصر ، ولو لم يكن لفظ هو أو هى أو نحوه فى الكلام ، والمسند إليه هنا معرف دون المسند ، ومعنى قول جار الله : إن هو للتخصيص ، أنه تخصيص لله فى الذكر بعد ذكره أيضا كما قالوا فى الحمد لله : إن اللام

للتخصيص ، فمن ادعى ثبوت الحمد لغير الله فليأت ببيان ، ولا بيان له ، ولو مفيدا للحصر من هذه الجهة ، وليس مفيدا له بطريق الصناعة فافهم ، هذا ما ظهر لى فى تحقيق المقام •

(يَقْبَلُ التَّوبَةَ) إذا صحت (عَنْ عِبادِهِ) مثل قولك : يقبلها من عباده ، أو عدى القبول بعن لتضمنها معنى التجاوز والمسامحة (ويأخُذُ الصَّدَقاتِ) أى يقبلها لكن قبول من يضاعف الجزاء عليها ، وفى ذلك ترغيب فى الصدقات ، إذ كان الذى يأخذها فى الحقيقة هو الله ، ولو كان أخذها فى الظاهر هو الفقير مثلا ، عن ابن مسعود رضى الله عنه : « أن الصدقة تقع فى يد الله قبل أن تقع فى يد السائل » وعن أبى هريرة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما تصدق أحدكم بصدقة من كسب حلال طيب ، ولا يقبل الله إلا الطيب ، إلا أخذها الرحمن بيمينه ، وإن كانت تمرة ، أو لقمة ويربيها لصاحبها كما يربى أحدكم فلوه ، بضم الفاء وفتحها ، وهو المهر أول ما يولد ، أو فصيله حتى تصير كأحد » وهو أعظم جبل لكن غاص فى الأرض •

(وأن اللهَ هُوَ التَّوابُ الرَّحيمُ) القابل للتوبة بالتفضل •

(وقُلْ) يا محمد لهؤلاء المعترفين ، أو لهؤلاء الذين لم يتوبوا أو للناس مطلقا (اعْمَلُوا) بالطاعة (فَسَيَرى اللهُ عَمَلَكم ورسُولُه والمؤمنُونَ) وعليه الجزاء إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، ومن تفسير مثل ذلك ، وفيه ترغيب فى الطاعة وبعد عن المعصية ، وقيل : رؤية المؤمنين كالنبى صلى الله عليه وسلم بالاطلاع على أعمالكم ، وقيل : رؤية

المؤمنين هى ما يقذف الله فى قلوبهم من محبة الصالحين ، وبغض الكافرين .

وفى الحديث : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه بنور الله يبصر » وعن أبى الدرداء : « إياكم وفراسة العلماء ، فوالله إنها للحق يقذفه الله فى قلوبهم ، وعلى أبصارهم » وعن عثمان : « لو أن رجلا عمل فى داخل سبعين بيتا لكساه الله رداء عمله خيرا أو شرا » ومرت جنازة فأثنوا خيرا ، وتتابعت الألسن ، فقال صلى الله عليه وسلم ، « وجبت » ومرت أخرى فأثنوا شرا وتتابعت الألسن فقال : « وجبت فأنتم شهداء الله فى الأرض » .

(وَسَتُرَدُّونَ إلى عَالِمِ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ) بالبعث بعد الموت ، لا بالموت كما قيل لقوله تعالى : (فَيُنَبِّئُكُم بما كُنتُم تَعمَلُون) أى يجازيكم ، فإن الجزاء يوم القيامة ، وأيضا إن كان المراد بالتنبيه الإخبار ، ويترتب عله الجزاء ، فإنه لا سؤال فى القبر إلا عن كلمة الإخلاص ، إلا إن أريد بالتنبيه بما كانوا يعملون السؤال عما يقولون فيها والعذاب فى القبر .

(وآخَرُونَ مُرْجَوْنَ) مبتدأ وخبر ، أو معطوف ونعت ، أو مبتدأ ونعت ، والخبر يعذب كقولك : زيدا ما قائم أو قاعد (لأمْرِ اللهِ) أى مؤخرون وموقوف أمرهم لأمر الله فى شأنهم ، أى حكمه ، والإرجاء التأخير من أرجاه يرجيه بلا همز بعد الجيم ، فالأصل مرجاون حذفت الألف الساكن الجائى بعدها ، وقرأ ابن كثير ، وأبو بكر ، وأبو عمرو ، وابن عامر مرجئون بهمزة مضمومة بعدها واو ساكنة سكرنا ميتا من أرجأه يرجئه بالهمز ، واختلف عن عاصم .

(إمَّا يُعذّبُهم) هذا إن أصرّوا (وإما يتُوبُ عَليْهم) هذا إن تابوا ، والله سبحانه وتعالى عالم بما يقع من حالهم جزما ، ولكن ردد للعباد ودلهم بأن كلا الأمرين لله ، يفعل ما يريد منهما على ما اقتضت الحكمة .

(واللهُ عَليمٌ) بما فى قلوبهم وبحالهم (حَكيمٌ) فيما يفعل بهم ، قال ابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، وابن إسحاق : هم الثلاثة الذين خُلّفوا : هلال بن أمية الواقفى ، ومرارة بن الربيع العامرى ، وقيل من بنى عمير بن عوف ، وكعب بن مالك من بنى عمير بن عوف بانى مسجد قباء ، أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم وأصحابه أن لا يسلموا عليهم ، ولا يكلموهم ، وكانوا لم يربطوا أنفسهم كإخوانهم ، ولما رأوا ذلك أخلصوا نياتهم ، وفوضوا أمرهم إلى الله سبحانه وتعالى ، ورحمهم الله عز وجل كما روى ، وكما تدل عليه قراءة ابن مسعود : والله غفور رحيم ، وكما تنص عليهم الآية الآتية فيهم ، وبين ذلك ونزول توبتهم خمسون ليلة ، وقيل : هم منافقون ردد فيهم ترغيبا وإبقاء عليهم ، وقيل : هم الذين أى أهل مسجد الضرار استدعاهم إلى الإيمان .

(والّذينَ) بدل من آخرون ، أو خبر لمحذوف ، أو مفعول لمحذوف ، أى هم أو أعنى ، وهذا على أن أهل مسجد الضرار هم المرجون ، وإما على أنهم غيرهم فالذين مبتدأ خبره لا تقم فيه ، أو منصوب على الاشتغال ، ويقدر محذوف ، أى لا تقم فى مسجدهم ، فلما أعيد الضمير إلى المسجد المضاف إليهم سقط ضميرهم ، لأن الضمير لا يضاف ، أو مسجد الذين ، فالحذف من الأول أو الآخر ، وذلك قول

الكسائى ، وقال النحاس : الخبر لا يزال بنيانهم ، وفيه بعد ، وذكر بعض أنه أفصح ، وقال المهدوى : الخبر محذوف أى معذبون أو مهلكون ، أو من المنافقين ، وذلك قراءة نافع ، وابن عامر ، وأبى جعفر ، وشيبة وغيرهم ، وقرأ غيرهم بالواو عطفا على آخرون ، أو على الابتداء والخبر ما ذكرنا وجهه ، أو يقدر لمن وصفنا الذين ، أو منصوب على الاشتغال على ما مر ، أو مفعول لازم محذوفا •

(اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِراراً) مفعول لأجله مصدر ضار بالتشديد أو بنوه مضارة المؤمنين ، والنبى صلى الله عليه وسلم ، وليست المفاعلة على بالها (وكُفْراً) منهم ، أو تقوية للنفاق والشرك ، (وتَفْرِيقا بَيْنَ المؤمِنِينَ) الذين يجتمعون فى مسجد قباء ، أرادوا تفريقهم باختلاف الكلمة ، وبالصرف إلى مسجدهم (وإرْصاداً) ترقبا ، وأجيز تلك المصادر أحوالا مبالغة ، أو بتقدير مضاف ، أو بالتأويل بالوصف •

(لِمَنْ حَارَبَ) وقرأ الأعمش للذين حاربوا (اللهَ ورسُولَه) وهو أبو عامر الراهب لعنه الله ، وهو والد حنظلة غسيل الملائكة ، ولقب عبد عمر ، وكانت أمه من الروم ، وكان يتعبد فى الجاهلية ، ولبس المسوح وترهب وتنصر ، فسمى راهبا ، وكان سيدا فى قومه ، وقريبا من عبد الله بن أبى بن سلول ، ترقبوه أن يأتى من الشام فيصلى فيه ، وترقبوه أن يتقوى بالاجتماع فيه (مِنْ قَبْلُ) متعلق بحارب ، أى من قبل اتخاذ المسجد •

قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد : لا أجد قوما يقاتلونك إلا قاتلتك معهم ، ولم يزل يقاتل إلى يوم حنين فانهزم مع هوازن ، وهرب

إلى الشام ليأتى من قيصر بجنود يحارب بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يجمع الجيوش يوم الأحزاب ، وانهزم وخرج إلى الشام لذلك ، ولما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة قال له : ما هذا الدين الذى جئت به ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « جئت بالحنيفية دين إبراهيم » قال : فأنا عليها ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنك لست عليها » فقال : بلا ولكنك أدخلت فى الحنيفية ما ليس فيها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما فعلت ، ولكن جئت بها بيضاء نقية » فقال : أمات الله الكاذب منا طريدا وحيدا غريبا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « آمين » وسماه الناس أبا عامر الكذاب ، وسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا عامر الفاسق .

ولما ذهب إلى الشام ليأتى بالروم ، وقد أرسل إلى المنافقين أن استعدوا ما استطعتم من قوة وسلاح ، وابنوا مسجدا ، فإنى ذاهب إلى قيصر لآتى بجند من الروم ، فأخرج محمدا وأصحابه ، فبنوه . مـات بقنسرين بكسر القاف وفتح النون وكسرها مشددة بلدة بالشام طريدا وحيدا غريبا .

أو من قبل متعلق باتخذوا لما روى أنهم بنوه من قبل أن ينافق هؤلاء بالتخلف عن غزوة تبوك ، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصلى فيه ليتخذوه مسجدا ، ويدعو لهم بالبركة ، وهم بنو غنم بن عوف ، وبنو سالم بن عوف ، أقـارب لبنى عمرو بن عوف ، فقـال : « أنا على جناح سفر » وإذا قدمنا صلينا فيه إن شاء الله .

روى أنهم اثنا عشر : وديعة بن ثابت ، وحزام بن خالد ، ومن داره أخرج هذا المسجد وثعلبة بن حاطب ، وحارثة بن عمرو ، وأبناؤهم مجمع ، وزيد ، ومعتب بن قشير ، وعبادة بن حنيف ، وأبو حبيبة بن الأزعر ، ونبتل بن الحارث ، ويخرج بن ضبية ، وبجاد بن عثمان ، وزعموا أنه بنوه لذى الحاجة ، والعلة ، والليلة المطيرة ، والشاتية ، فصدقهم وهم إنما بنوه لأبى عامر اللعين إذا قدم من الشام ، وتوهينا للإسلام ، ولئلا يصلوا خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحسد النبى عمرو بن عوف لما بنو مسجد قباء ، فسألوا رضى الله عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن يصلى فيه فصلى ، وكان لهم شرف بذلك .

وروى قعيصة : فلما رجع من تبوك أعاد له أصحاب مسجد الضرار أن يصلى فيه ، فنزلت الآيـة ، وقيل : سألوه قبل ذهـابه إلى تبوك ، فأخذ ثوبه ليصلى فيه فنزلت ، وعلى الروايتين دعا بمالك بن الدخشم ، ومعن بن عدى ، وأخاه عاصم العجلانيين ، وعامر بن السكين ، ووحشى قاتل حمزة فقال : « انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه واحرقوه » فأخذ ثوبه ليصلى فيه فنزلت ، وعلى الروايتين دعا بمالك بن الدخشم ، فقال مالك : أنظرونى حتى أخرج إليكم بنار ، فدخل أهله فأخذ من سعف النخل فأشعله ، ثم خرجوا يشدون حتى دخلوا المسجد وفيه أهله ، فحرقوه وهدموه ، وتفرق أهله عنه ، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتخذ كناسة تلقى فيه الجيف والنتن .

وروى أنه لما قفل راجعا من تبوك ، وكان بذى أوان ، بينه وبين المدينة ساعة ، نزل عليه خبر مسجد الضرار ، وذكر النقاش أنه بعث

لهدمه عمار بن ياسر ، ووحشيا مولى المطعم بن عدى ، وكان يؤمهم فيه مجمع بن حارثة المذكور ، وكان شابا يقرأ القرآن ولا يدرى ما أرادوا ببنائه ، ولما كانت خلافة عمر رضى الله عنه سأله بنو عامر بن عوف أن يأذن لجمع بن حارثة أن يؤمهم فى مسجد قباء ، فقال : لا ، أليس هو إمام مسجد الضرار ؟ فقال : يا أمير المؤمنين لا تعجل علىّ فوالله لقد صليت فيه وأنا لا أعلم ما أضمروا ، ولو علمت ما فعلت وكنت غلاما أقرأ وهم شيوخ لا يقرءون ، فصدقه عمر فأذن له .

وروى أن أبا عامر الكذاب الفاسق ، لما رد الله الأحزاب بغيظهم ، أقام بمكة مظهر العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولما فتحت مكة هرب إلى الطائف ، ولما أسلم أهل الطائف هرب إلى الشام ، وكتب إلى المنافقين أن ابنوا لى مسجدا ، وإنى ذاهب أستنصر بالروم ، فإذا جئت صليت فيه .

(وليحلفنّ إنْ أردْنا) ببنائه (إلا) الخصلة (الحسْنى) وهى الصلاة والذكر ، والتوسعة على المصلين الذين لا يستطيعون ، أو الإرادة الحسنى ، وهى إرادة الصلاة وما ذكر ، وروى أن الحالف يخرج المذكور ، وقرأ ابن أبى عبلة : ما أردنا إلا الحسنى .

(والله يشهد إنهم لكاذبون) فى حلفهم ، وروى أنهم بنوه وقالوا : إما أن يأتينا محمد ، وإما أن نأتيه ، وروى أنهم بنوه بلا أمر أبى عامر وقالوا نستأثره .

(لا تقم فيه أبداً) أى لا تصلّ فيه ، وكان صلى الله عليه وسلم

لا يمر به فى الطريق بعد نزول هذا ، وكان النهى عن القيام فيه مبالغة مراد بها النهى عن الصلاة فيه ، كما قال : « لا تقربوا الزنى » على ما قيل ، والمعنى عند النهى عن مقدمات الزنى ودواعيه ، وكذا هذه الآية تحتمل النهى عن دخوله مطلقا ، إذ كان تعظيما له ، فيكون ذكر القيام فيه ، وأراد مطلق الكون فيه ، وكل مسجد بنى ضرارا أو رياء وسمعة ، أو لغير الله مطلقا فحكمه حكم مسجد الضرار •

ولما فتح الله الأمصار على عمر رضى الله عنه ، أمر المسلمين أن يبنوا المساجد ، وأن لا يتخذوا فى مدينة مسجدين يضار أحدهما صاحبه ، قال النقاش : لا يصلى فى كنيسة لأنها بنيت على شر •

(لمسْجِدٌ) اللام للابتداء ، وقيل : هى اللام الواقعة فى جواب القسم ، والقسم محذوف أى والله ، ومعنى اللامين تأكيد ، وهذا القول عندى ضعيف لا الأصل عدم الحذف ولا دليل عليه •

(أسِّسَ) أى وضع أساسه ، أى أصله (عَلَى التَّقوَى) الطاعة وترك المعاصى ، هو مسجد قباء بضم القاف والمد والصرف ، لأنه موضع ، والمنع لأنه بلدة وبقعة وقرية ، وضع أساسه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين هاجر وبلغ قباء ، وقد كان موضع صلاة قبل ذلك ، وصلى فيه أيام قيامه فى قباء ، وهى أربعة عشر كما فى صحيح مسلم ، وقيل : اثنان وعشرون ، وقيل : الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس ، وخرج حين ارتفع النهار من يوم الجمعة ، وكان بعد ذلك يزوره فى كل سبت راكبا أو ماشيا ويصلى فيه ركعتين ، وقال : « إن ركعتين فيه كعمرة »

ويدل على أنه مسجد قباء قوله : « فيه رجال يحبون أن يتطهروا » فانه كما قال أبو هريرة : نزلت فى أهــل قباء ، وكذلك قال ابن عباس ، والحسن ، وفرقة من الصحابة والتابعين وهو المشهور الصحيح فيما قيل وأوثق القصة ، فإن الموازنة بينه وبين مسجد الضرار أولى ، لأنهما جميعا بقاء من الموازنة بين مسجد الضرار ومسجد المدينة ، وقيل : إن الذى أسسه غير رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكن أسس على الإسلام لوقوع الإسلام فى الأنصار قبل الهجرة ، ووجده مبنيا ، وكان مربطــا لحمار امرأة من الأنصار تسمى لبة ، فكان المنافقون يقولون : والله لا نصبر على الصلاة فى مربط حمار لبة ونحو ذلك .

وقال علىّ ، وعثمان ، وابن عمر ، وزيد بن ثابت ، وأبو سعيد : المراد مسجد المدينة ، قال أبو سعيد : اختلف رجل من بنى خدرة ، ورجل من بنى عمرو بن عوف ، فقال الخدرى : هو مسجد الرسول ، وقال الآخر : هو مسجد قباء ، فأتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألاه فقال : « هو مسجدى هذا وفى الآخر خير كثير » .

ودخل أبو سعيد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيت بعض نسائه فسأله ، فأخذ كفا من حصباء فضرب به الأرض وقال : « هذا مسجدكم » فإن صح ذلك فلا نظر مع الحديث : وعليه فالرجال بعد ذلك رجال الأنصار لا خصوص رجال قباء ، والطهارة مطلق الطهارة الشاملة للطهارة من الذنوب ، وورد فى فضله : « ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة » و « ودان قوائم منبرى هذا رواتب فى الجنة » أى ثوابت ، وبناه صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات :

الأولى : بالسميط ، وهى لبنة أمام لبنة .

والثانية : بالصعيدة ، وهى لبنة ونصف فى عرض الحائط .

والثالثة : بالأنثى والذكر ، وهى لبنتان تعرض عليهما لبنتان .

وطوله سبعون ذراعا ، وعمده النخل ، وكان عريشا ؛ وعرض عليه رفعه فقال : « لا بل يكون عريشا كعريش أخى موسى » كان إذا قام ضرب رأسه فى سقفه ، ووضع أول حجر ، ثم أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم وضع الناس فتفاءل بعض الصحابة بترتيب الخلافة ، فصدق فأله .

(مِنْ أوَّل يَوم ٍ) من أيام وجوده ، أو وضع أساسه ، وفيه دليل على أن من تجىء للابتداء فى الزمان كالمكان وهو الصحيح عندى ، وزعم أكثر البصريين أنها لا تجىء لابتداء الزمان ، وقدروا هنا من تأسس أول يوم ، والأصل عدم الحذف ، وقيل : أول بمعنى البداءة ، والبداءة ليست زمانا ، ومن الابتداء فى الزمان حديث : « مطرنا من الجمعة إلى الجمعة » .

* تخيرين من الزمان يوم حليمة *

وقوله :

* قوين من حجج ومن دهر *

وأجيب بأن الأصل من صلاة الجمعة ، ومن استمرار الزمان ، ومن مر حجج ومن مر دهر ، والأصل عدم الحذف ، ولا دليل على ذلك الحذف ، والذى رويت عن الأستاذ : مذ حجج ومذ دهر .

(أحقُّ أنْ تَقُومَ فيهِ) بالصلاة والعبادة (فِيهِ) فى ذلك المسجد الذى هو مسجد قباء ، أو مسجد المدينة على ما مر ، وقرأ عبد الله بن يزيد بضم هذه الهاء على الأصل وكسر الأولى ، ويحسنه تجنب تكرار اللفظ الواحد (رِجالٌ) جماعة الأنصار أو رجال قباء ، وهو المشهور (يحبُّونَ أنْ يتَطهَّروا) وقرأ طلحة بن مصرف ، والأعمش ليطهر بإبدال طاء وإدغامها .

(واللهُ يحبُّ المطَّهِّرينَ) وقرأ على : المتطهرين ، بإظهار التاء ، لما نزلت مشى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه المهاجرون ، حتى وقف على باب مسجد قباء ، فإذا الأنصار جلوس ، منهم عويم بن ساعدة ، فقال : « أمؤمنون أنتم ؟ » فسكتوا ، ثم أعادها فقال عمر : يا رسول الله إنهم لمؤمنون وأنا معهم ، فقال صلى الله عليه وسلم : « أترضون بالقضاء ؟ » قالوا : نعم ، فقال : « أتصبرون على البلاء ؟ » قالوا : نعم ، قال : « أتشكرون فى الرخاء ؟ » قالوا : نعم ، قال صلى الله عليه وسلم : « مؤمنون ورب الكعبة » فجلس ثم قال : « يا معشر الأنصار إن الله عز وجل قد أثنى عليكم فى الطهور فما الذى تصنعون عند الوضوء وعند الغائط ؟ » فقالوا : يا رسول الله نتبع الغائط الأحجار الثلاثة ، ثم نتبع الأحجار الماء ، فتلى عليهم الآية .

فمن ذلك وغيره أخذنا معشر المغاربة الأباضية الاستنجاء بالحجارة ، ثم الماء ، وعليه فرقة من قومنا ، وبعض علماء القيروان ، وعن بعض : أن الثناء على مخلوق نصفه إيجاب لتلك الصفة ، ولا يجزى الاستنجاء بالماء وحده للزوجة الغائط ، ولا بالحجارة وحدها ، فإن ذلك المحل لا يطهر بالمسح فبله نجس قبل الاستنجاء بالماء .

وأجاز مشارقتنا وجمهور المخالفين الماء بلا حجارة ، فقال بعض المخالفين : إن الحجارة تكفى ، وإنها أفضل من الماء ، وبعضهم أنه أفضل منها ، وذكر ابن حبيب المالكى : أنه لا تكفى الحجارة إلا إن لم يوجد الماء ، ومن قال الحجارة تكفى فبلل المحل بعدها عنده طاهر ، والمحل عنده يطهر بالمسح ، وقيل : إن الحجارة تطهر لكن لا بد أيضا من الماء ، وهذا على أن الاستنجاء تعبدى ، فالبلل أيضا طاهر •

وقيل فى تطهرهم : إنهم يستنجون بالماء أخذا من اليهود ، أقروا بذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن سألهم عن تطهرهم إذ أثنى عليهم الله به ، رواه أبو هريرة ، قيل : هذا كان بلا حجارة ثم وجبت ، وقيل : تطهرهم من الأحداث والجنابات وسائر النجاسات ، وقيل : الاستنجاء وعدم نومهم على جنابة بالليل •

وقال الحسن : يحبون التطهر من الذنوب بالتوبة ، وبه قال الفخر ، لأن التطهر منها هو المؤثر فى التقرب إلى الله ، واستحقاق الثواب ، ولأن الكلام مقابل لكلام على أهل مسجد الضرار وهم غير متطهرين منها ، فهؤلاء بالضد ، ولأن طهارة الظاهر تؤثر لطهارة الباطن ، وليس بشىء ، لأن من جملة طهارة الباطن ، والطهارة من الذنوب ، قصد غسل النجاسة للصلاة والتقرب ، اللهم إلا أن يقول مع هذا أيضا : إن القصد إلى ذكر طهارتهم الباطن أولى ، ولا مانع من أن يقال : المراد التطهر عن النجس والذنوب ، وقيل : التطهر من الذنوب بالحمى ، أرادوها لتكفر بها ذنوبهم فحموا عن آخرهم •

(أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ) وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم ،

وحمزة ، والكسائى وجماعة ببناء أسس للفاعل ، ونصب بنيان فى الموضعين ، وعن عمارة بن ضياء : أنه قرأ الأول على بناء المفعول ، والثانى على بناء الفاعل ، وقرأ نصر بن على : أفمن أسس بنيانه بضم الهمزة والسين ، والاضافة إلى البنيان ، ورويت عن نصر بن عاصم ، وعنه أسس بنيانه بضم الهمزة والسين جمع أساس كقذال وقذل ، وعنه أسس بفتح الهمزة والسين الأولى ، وضم الثانية مخفف من أساس بالألف ، كما روى عنه ، وعن أبى حيوة أساس بألف قيل : إنه جمع ، وعن نصر بن على آساس بمد الهمزة جمع آس ، وقرئ إساس بكسر الهمزة ، قيل : إنه جمع وذلك كله فى الموضعين مع جر البنيان بالإضافة .

(عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ) وقرأ عيسى بن عمرو بتنوين تقوى ، على أن ألفه للإلحاق بجعفر ، ومن منع تنوينه فعلى أن ألفه للتأديب ، قال ابن هشام : قال أبو البقاء : على تقوى حال ، أى على قصد التقوى ، أو متعلق بأسس ، وهذا الوجه الذى أخره هو المعتمد عندى لتعينه فى « لمسجد أسس على التقوى » (وَرِضْوَانٍ) منه .

(خَيْرٌ) اسم تفضيل ، ووجهه أن من أسس بنيانه على شفا جرف كان يعتقد فيه منفعة ، بل يدعى أنه أفضل (أمْ مَنْ أسَّسَ بُنْيَانَهُ) البنيان فى الأصل مصدر كالطغيان والغفران ، ثم جعل اسما المبنى (عَلَى شَفَا) جانب ، وشفا كل شىء جانبه المشرف (جُرُفٍ) وقرأ ابن عامر ، وأبو بكر ، وحمزة بإسكان الراء وهو لغة ، وقيل : مخفف من المضموم ، وعن عاصم روايتان ، والجرف ما أكل الماء أو غيره ماء تحته فهو إلى السقوط قريب .

(هَارٍ) بالإمالة ، وأخلص ابن كثير ، وحمزة ، وحفص ، وهشام ،

والأخفش الفتح ، وقرأ ورش بين بين وهو المتصدع الذى أشرف على التهدم ، حتى أنه لا يمكن تماسكه ، وهو من هار يهور أو هار يهير ، أو هار يهار كخاف يخاف اسم فاعل كقائل أو بائع ، قدمت لامه وهو الراء على عينه فعمل به كداع وقاض ، فوزنه ، فال ، وقيل : إن عينه محذوفة فتطرفت تخفيفا ، فعلى هذا الوجه أيضا وزنه فال ، لكنه كعرب على الرأى بخلاف الأول ، وقيل : المحذوف ألف فاعل ، والموجودة هى بدل الأصل الذى هو عين الكلمة ، فوزنه فعل بفتح الفاء وكسر العين ، أصله هور أو هير ، قلبت الواو أو الياء ألفا لتحركها بعد فتح ، فهو أيضا يعرب على الرأى .

(فانْهَار) أى بنائنه (بِهِ) أو انهار هو بنيانه ، أى سقط سقوطا عظيما معه ، أو سقط حال كونه به أى فيه لضعفه وقلة تماسكه (فى نَارِ جَهَنَّم) مَنْ أسس بنيانه على التقوى والرضوان هم المؤمنون ، وبنيانه مسجد قباء ، وقيل : مسجد المدينة ، ومن أسس بنيانه على شفا جرف هار هم أهل مسجد الضرار ، وقرأ ابن مسعود : فانهارت به قواعده ، وكذا فى مصحفه ، وذلك عندى استعارة تمثيلية ، فهو مجاز مركب ، وهى الكلام المستعمل فيها شبه بمعناه الأصلى تشبيه التمثيل للمبالغة ، وتشبيه التمثيل وما وجهه منتزع من متعدد .

قال السعد : حاصل المجاز المركب الاستعارى أن تشبه إحدى الصورتين المنتزعتين من متعدد بالأخرى ، ثم تدعى أن الصورة المشبهة من جنس الصورة المشبه بها ، فتطلق على الصورة المشبهة اللفظ الدال بالمطابقة ، وعلى الصورة المشبهة بها ، بيان ذلك هنا أن قوله : « أفمن أسس » إلى قوله : « فى نار جهنم » كلام مشتمل على عطف وفضلات ، ومعناه الأصلى هو حقيقة صاحب البناء بنحو الحجر والطين ، وحقيقة

صاب البناء بنحو هما فى موضع مشرف على الوقوع ، واستعمل هذا فى معنى يشبه هذا المعنى الأصلى ، وهو بناء الدين على أمر نافع صحيح ، وبناءه على أمر ضار باطل ، وهذا المعنى صورة مستنزعة من متعدد هو الدين وتأسيسه على نافع صحيح ، والدين وبناؤه على باطل ظاهر •

والمعنى : الأصل أيضا صورة أخرى منتزعة من متعدد كما ترى ، وهذا المتعدد البناء وتأسيسه ، والبناء الآخر وكونه على شفا جرف هار ، وشبهت تلك الصورة بهذه ، وذكر التقوى والرضوان تجريد ، لأنه يناسب المشبه ، والانهيار فى نار جهنم ، ترشيح ، لأنه يناسب المشبه بـه ، هذا ما ظهر لى ، فانظر شرحى على شرح عصام الدين ، ووجه الشبه فى الشق الأول مطلق الثبات والانتفاع ، وفى الثانى مطلق البطلان ، وسرعة الذهاب والضر ، وجعل الانهيار فى نار جهنم فى مقابلة الرضوان ، لأن رضا الله يحفظ عنها ، ويوصل إلى الجنة •

وعن الحسن : شبه الله أعمال المنافقين بالبناء على الرمل المنهار ، لا تثبت عند الله ، وعن قتادة : والله ما تناهى بناؤهم حتى وقع فى النار ، وعليه فالتأسيس على شفا جرف هار ، والانهيار فى نار جهنم حقيقان ، وكذا قال ابن جريج •

وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رآه حين انهار حتى بلغ الأرض السابعة ففزع ، وعن جابر بن عبد الله وغيره : رأيت الدخان يخرج منه على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكذا رأى خلف بن ياسين ، وابن جريج فى زمان أبى جعفر المنصور ، وروى أن بقعة حفرت منه فرأى الدخان يخرج منها ، وكان مدة صلاتهم فيه فى قرب الخروج إلى تبوك إلى الرجوع ، وقيل : أكملوه يوم الجمعة ، وصلوا فيه الجمعة وليلة السبت ، وانهار يوم الاثنين وهو ضعيف •

(واللهُ لا يَهْدِى) إلى ما فيه النجاة (القَوْمَ الظَّالمينَ) أى سبقت شقاوته ممن ظلمه نفاق أو شرك ، أو أراد هؤلاء فوضع الظاهر موضع المضمر ، ليذكر أنهم ظلموا أنفسهم بما استوجبوا به ذلك .

(لا يَزالُ بُنْيانُهم الَّذِى بَنَوْا رِيبةً فى قُلُوبِهم) تقدم أن البنيان بمعنى اسم المفعول ، فيقدر مضاف ، أى بناء بنيانهم ، لأن المبنى لا يكون ريبة ، وقد تدخله التاء أنشد الفارسى وقال :

كبنيانة القارى موضع رَجْلها
وآثار نسعَيْها من الدقّ أبلق

ويجوز إبقاؤه على أصله من المصدرية ، فلا يقدر مضاف كذا قيل ، قلت : ليس البناء أيضا شكا ، فليس تأويل البنيان بتقدير مضاف أو بإبقائه على المصدرية ما نعنى ، فالواضح إبقاؤه على المصدرية ، أو جعله بمعنى اسم مفعول ، مع تقدير المضاف قبل ريبة ، أى سبب ريبة ، والريبة الشك وفساد الاعتقاد واضطرابه والتعرض فى الشىء والتجنف فيه ، والحرازة من أجله ، وإن لم يكن ذلك شكا فقد يرتاب من لا يشك ، فهى هنا يعم الغيظ والحنق ، ويعم اعتقاد صواب فعلهم وإعتقاد خطأ هدمه ونحو ذلك ، مما يؤدى إلى الشك فى الإسلام ، أما هدمه قالوا : لم هدمه وقد بناه للعبادة ، وازدادوا غيظا وشكا ، ورسخ ذلك فيهم بحيث لا يزول .

(إلا أن تَقَطَّعَ قُلوبُهم) أن مصدرية ، والمصدر مستثنى ، والاستثناء منقطع ، ولك أن تقول : مصدر نائب عن ظرف الزمان بتقدير مضاف ، أى إلا وقت تقطيع قلوبهم ، فيكون استثناء مفرغا متصلا ،

أى لا يزال فى وقت إلا وقت التقطيع ، وتشديد تقطع للمبالغة ، والمراد تقطيعها حتى لا تكون قابلة للإدراك ولا للاضمار شىء فيها ، وذلك تصوير للحال ، وقيل : المراد التقطيع بالسيف ونحوه ، قال ابن عباس : بالموت ، وقيل : فى القبر ، أو فى النار ، وقيل : بالتوبة ندما وأسفا على تفريطهم •

وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، وعاصم بخلاف عنهم ، وأبو جعفر بفتح التاء والطاء ، أى إلا أن تتقطع ، فحذفت إحدى التاءين ، وقرأ الحسن ، ومجاهد ، وقتادة ، ويعقوب : إلى أن تقطع بإلى وضم التاء وكسر الطاء أى إلى أن يموتوا ، ويصلح أيضا تفسيره فأمر غير الموت ، وقرأ إلى أن تقطع بإلى وفتحهما وقرأ أبو حيوة إلا أن يقطع بالتحتية المضمومة وكسر الطاء مشددة ، ونصب القلوب ، على أن الضمير المستتر لله ولرسوله ، أو للبيان من حيث إنه سبب لهلاكهم ، وقرأ تقطع بضم المثناة وكسر الطاء مشددة ونصب القلوب •

والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم أو لمن يصلح بالخطاب مطلقا ، وقرأ تقطع بالتخفيف والبناء للمفعول ، ورفع القلوب ، وقرأ ابن مسعود ولو قطعت بالتشديد والبناء للمفعول ، ورفع القلوب وكذا فى مصحفه ، وقال أبو عمرو عنه ، وإن قطعت بالتخفيف والبناء للمفعول والرفع ، وفى مصحف أبى حتى الممات ، وقيل فيه : حتى تقطع بالبناء للمفعول والتشديد •

(والله عليم) بأحوالهم ونياتهم وبسائر الخلق (حكيم) فى أفعاله وفى أمره بهدم بنيانهم ، ولما بايعت الأنصار رسول الله صلى الله

عليه وسلم ليلة العقبة الكبرى ، وهى البيعة الثالثة ، وهم سبعون أو أكثر على ما مر ، أصغرهم عقبة بن عامر ، قال عبد الله بن رواحة : اشترط لك ولربك ما شئت ، قال : « أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأن تقاتلوا الأحمر والأسود ، وأشترط لنفسى أن تمنعونى بما تمنعون به أنفسكم وأموالكم » قالوا : إذا فعلنا ذلك فمالنا ؟ قال : « الجنة » فقالوا : نعم ربح البيع ، لا نقيل ولا نقال ، وروى : لا نقيل ولا نستقيل ، فنزل قوله عز وجل :

(إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ) ترغيب فى الجهاد والإنفاق فيه ، وتمثيل لإثابة الله إياهم الجنة على بذل أموالهم وأنفسهم فى سبيله ، لا حقيقة شراء ، لأنهم خلق لـه وملك ، وأمواله رزق منه وملك له ، وبيّن ما لأجله الشراء بقوله :

(يُقَاتِلُونَ) بأموالهم وأنفسهم (فِى سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ) أعداء الله (وَيُقْتَلُونَ) وقرأ حمزة والكسائى بتقديم المبنى للمفعول ، وكذا قرأ النخعى ، وابن وثاب ، وطلحة ، والأعمش ، ومعلوم أن الواو لا تفيد الترتيب ، فلا يقال على هذه القراءة : كيف يوصفون بأنهم قاتلون بعد وصفهم بأنهم مقتولون ؟ ومعلوم أنه قد يسند إلى البعض ما للكل ، فليسوا كلهم قاتلين ، ولا كلهم مقتولين .

وقيل : وجه الشراء أنه وهب لهم أنفسهم وأموالهم ثم اشتراها منهم ، وقال ابن عيينة : اشترى منهم أنفسهم أن لا يعملوها إلا فى طاعة الله ، وأموالهم أن لا ينفقوها إلا فى سبيله ، فالآية تعم الطاعات كلها ، فقوله : يقاتلون إلخ بيان لبعضها ، وهو أعظم ما روى أن الطاعات

فى الجهاد كقطرة فى البحر ، وفى الحديث : « إن فوق كل بر برا حتى يبذل العبد دمه ، فإذا فعل فلا بر فوق ذلك » والأول قول الجمهور ، ولا ثمن أغلى من ذلك ، اشترى بعضا من الدنيا بالجنة .

قال بعض العلماء : ما من مسلم إلا ولله فى عنقه هذه البيعة ، وفى بها أو لم يوف ، وجملة يقاتلون مستأنفة ، أو حال ، وقيل : حال فى تفسير الجمهور ، ومستأنفة فى تفسير ابن عيينة ، ويجوز أن يكون يقاتلون بمعنى الأمر ، فيكون مستأنفا .

(وعْداً عَلَيه حَقّاً) مصدران لعاملين محذوفين من لفظيهما ، مؤكدان لمضمون قوله : « إن الله اشترى » فإن شراءه بالجنة وعد بها ، وحق أكد الله ذلك بأن ، وأكده بأن المشترى هو الله المقدس عن الكذب والحيل ، وبالشراء بدلا من الإثابة ، فإن ما به الشراء أحق بالإنجاز ، وبقوله : « وعداً » وبقوله : « عليه » وهو نعت لوعد ، أو متعلق بحق ، أو حال منه ، وبقوله : « حقاً » ولو جعل نعت لوعد أو بقوله :

(فى التَّوراة والإنْجيلِ والقُرآنِ) تعلق بمحذوف ، وذلك المحذوف نعت لوعداً أو حقا ، أو حال أى مذكورا فى الكتب الثلاثة ، وهذا جار مجرى إشهاد وكتب الله وملائكته ورسله ، ويجوز أن يرد أن تلك الأمم أمرت بالجهاد ، وفيه أيضا تأكيد ، وأكد أيضا بقوله :

(ومَنْ أوفَى بعَهْدِه مِنَ اللهِ) استفهام إنكارى أى لا أحد أوفى منه ، فوعده منجز لا محالة ، وحق قطعا ، فإن إخلاف الميعاد أقبح لا يتقدم عليه المخلوق الكريم ، مع جواز الحاجة والافتقار عليه ، فكيف

بالغنى الذى لا يجوز عليه قبح قط ؟ وقد روى أن أعرابيا مر برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ الآية ، فقال الأعرابى : كلام من هذا ؟ قال : « كلام الله » قال : بيع والله مربح ، لا نقيله ولا نستقيله ، فخرج إلى الغزو واستشهد بقوله :

(فاسْتبشِرُوا) أى افرحوا التفات إلى الخطاب (ببَيْعكُم) لأنفسكم وأموالكم بالجنة (الَّذِى بايعْتُم) مفاعلة من البيع ، وذلك أنهم باعوا من الله ، وباع منهم الله (بِه) فإنه شىء عظيم أحق بالفرح ، والاستبشار استفعال لغير الطلب ، بل لموافقة المجرد ، كأنه قيل : فأبشروا ، بل هو للتأكيد بالزيادة التى فيه ، فكأنه قيل : افرحوا به غاية الفرح ، وهذا تأكيد آخر ، فإن الأمر من مجرد الفرح يستلزم أعظم المفروح به ، فكيف الأمر بغاية الفرح وأكد أيضا بقوله :

(وذَلكَ) البيع (هُو الفَوزُ) وبقوله : (العَظيمُ) قال أبو الفضل بن الجوهرى على منبر بمصر : ناهيك من صفقة البائع فيها رب العلى ، والثمن جنة المأوى ، والواسطة محمد المصطفى .

(التَّائبونَ) أى هؤلاء البائعون هم التائبون ، فهو خبر لمحذوف على المدح ، ويدل له قراءة ابن مسعود ، وأبىّ التائبين بالياء ، نصبا بمحذوف على المدح ، أى أعنى أو جرى على أنه نعت للمؤمنين ، وكذا هى فى مصحف ابن مسعود ، وقيل : هو بدل من واو يقاتلون ، وأجاز الزجاج كونه مبتدأ محذوف الخبر يقدر بعد تمام الأوصاف هكذا من أهل الجنة وإن لم يجاهدوا ، لقوله سبحانه وتعالى : « وكلا وعد الله الحسنى » .

ويجوز كونه مبتدأ خبره ما بعده ، وما بعد ذلك أخبار متعددة ، أى التائبون من الكفر والمعاصى عـلى الحقيقة هم الجامعون للعبـادة والحمد ، وما بعد ذلك ، وقيل : خبره الآمرون والتوبة باحتراق القلب على المعصية ، والندم والعزم على تركها ، وخوف العقاب ، ورد المظالم إن كانت عن المظلمة ، وعلى الوجهين الأخيرين لا يكون ذلك فى خصوص البائعين ، وعلى ما قبلهما يكون فى خصوصهم ، فلا يدخل فى البعدية إلا من جمع هذه الصفات ، أو ما تعين عليه منها .

وسأل رجل الضحاك عن قوله سبحانه وتعالى : « إن الله اشترى » الآية وقال : ألا أحمل على المشركين فأقاتل حتى أقتل ، فقال الضحاك : ويلك أين الشرط « التائبون العابدون » الآية وقول الضحاك هذا صواب ، وقال بعض قومنا : إنه تشديد ، وإن الشهادة ماحية لكل ذنب إلا مظالم العباد ، وإنه روى أن الله تعالى يحمل عن الشهيد مظالم العباد ويجازيهم عنه ، وذكر بعضهم أن المراد التوبة من كل معصية ، ومما الأولى خلافه ، والرجوع من حال إلى ما هو أحسن .

(العَابِدُونَ) المتقربون إلى الله بالفرض والنفل بإخلاص .

(الحَامِدُونَ) الذاكرون الله فى السراء والضراء بأوصـافه الحسنى ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قضى الله خيرا لكل مسلم إن أعطاه شكر ، وإن ابتلاه صبر » أو الشاكرون الله على النعم ، والأول أظهر ، وفى الحديث : « أول مـن يدعى إلى الجنة يوم القيـامة الذين يحمدون الله فى السراء والضراء » .

(السَّائحونَ) قال ابن مسعود وابن عباس : الصائمون ، وكذا فسره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وروى : « سياحة أمتى الصوم » وعن الحسن السياحة كثرة الصوم ، وذلك أن فى الصوم ترك اللذات كالسياحة ، ولأنه رياضة نفس ، وتهذيب لها ، فيوصل إلى خفايا الملك والملكوت ، كما أن السائح يلقى أنواع ضر فيصبر ، والعلماء والصالحين فيستفيدوا عجائب فيتفكر وتعود عليه بركة ذلك كله ، وقد قال بعضهم : السائحون الجائلون بأفكارهم فى قدرة الله وملكوته وهو حسن .

قال معاذ بن جبل : اقعد بنا نؤمن ساعة نفكر فيزداد إيماننا ، ويترك الشهود تتفتح الحكمة والأنوار ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أخلص لله أربعين صباحا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه فيصير من السائحين فى عالم جلال الله ، المنتقلين من مقام إلى مقام ، ومن درجة إلى درجة ، ولا يتأتى الإخلاص مع تتبع اللذات » .

وقال عطاء : السائحون القراء ، قال عثمان بن مظعون : يا رسول الله إيذن لنا فى السياحة ، فقال : « إن سياحة أمتى فى الجهاد فى سبيل الله » وقال عكرمة : المنتقلون من بلد إلى بلد فى طلب العلم .

(الرَّاكعونَ السَّاجدونَ) أى المصلون ، وعبر بالركوع والسجود لأنهما معظم أركان الصلاة ، وبهما تتميز ، بخلاف القيام والقعود فإنهما أيضا فى غير الصلاة .

(الآمِرونَ بالمعروف) الإيمان والطاعات والبر .

(والنَّاهُونَ عَنِ المُنْكَرِ) الشرك والمعاصى والجفا ، وما مدحهم الله تعالى بالأمر والنهى حتى ائتمروا وانتهوا ، وعطف هذا بالواو دلالة على الجمع ، وللدلالة على أنهما كخصلة واحدة كأنه قيل : الجامعون بين الأمر والنهى ، وقيل لأن هـذا من الأوصـاف ، فهى واو الثمانية للابتداء عدد ، لأن السبعة عدد تام ، وباقى الكم عليها إن شاء الله ، وقيل : الخروج عن النعوت إلى الخبر والعطف عليه على أن التائبون مبتدأ خبره الآمرون .

(والحافِظُونَ لحُدُودِ اللهِ) شرائعه على العموم ، فدخل فيه القيام بالطاعة ، وأداء الفرائض ، والوفاء بالبيعة وغير ذلك ، فالتنبيه على أنها على العموم ، بخلاف ما قبلها فإنه على التفصيل ، قرن بالعاطف ، وقيل : لأن الأمر والنهى كخصلة واحدة بها تمت السبعة ، فهـذه واو الثمانية .

(وبشِّرِ المؤمِنينَ) الموصوفين بتلك الفضائل ، والأصل وبشرهم ، ووضع الظاهر موضع المضمر تنبيها على أن داعيهم إليها إيمانهم ، وأن كـامل الإيمان مـن جمعهـا ، وقيل : المراد مطلق المؤمنين ممن إذا ما وجب عليه من ذلك ولو لم يجمع ذلك ، فيكون ترغيبا بالتسهيل ، وحذف المبشر به تعظيما عن أن يحيط الذكر به .

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعمه أبى طالب : « أنت أعلم الناس علىَّ حقا ، وأحسنهم عندى أيدا أى نعمة ، فقل كلمة تجب لك بها شفاعتى وأحاج لك بها عند الله » وكان عنده أبو جهل ، وعبد الله بن أبى أمية بن المغيرة ، فقال : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟

فأبى ، فأعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ، فقال كذلك ، فمازالوا كذلك حتى قال : يا محمد والله لولا أنى أخاف أن تعيرنى قريش وتعير ولدى ، وتذكرنى النساء فى مجتمعهن ، وينسب إلى الجزع بالموت ، لأقررت بها عينيك •

ثم قال : دعنى أمت موتة الأشراف ، وقال : هو على ملة عبد المطلب ، وكان هذا آخر كلامه ، فمات قبل الهجرة بثلاث سنين ، وقيل فى العاشرة من النبيعة ، وقد قال لقريش وهم عنده عند احتضاره : أنتم خيرة الله ، اتبعوا محمدا فإنه على رشد وأمر يعوف ويقبل ، وانصروه قبل أن تنصره الأطراف ، فيكونوا صدورا وتكونوا أذنابا ، ولو مد فى أجلى لكففت عنه الدواهى ، وقالوا : إنه أرسل إليه يأتيك بشىء من الجنة التى يذكر فتشفى ، فجاءه رسوله وعنده أبو بكر ، فقال أبو بكر : حرمها الله على الكافرين ، وأعاد رسوله ، فأجابه رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ، ثم جاءه وأمره بما ذكر من الإسلام ، ولم يؤمن •

قال العباس : فنزل : « إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء » فقال : « والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك » فكان يستغفر له ، وكان يستغفر أيضا لأبيه ، كما استغفر إبراهيم ، ولأمه ، فكان المؤمنون يستغفرون لآبائهم وأمهاتهم وأقاربهم المشركين مثلهما •

وروى أنه يوم الفتح زار قبر أمه بالأبواء ، حتى حميت الشمس رجاء أن يؤذن له فى الاستغفار لها ، وقد استأذن الله سبحانه فى زيارتها فأذن له ، فتوضأ وصلى ركعتين ، فجعل كأنه يخاطب أحدا ، فقام باكيا ما رؤى بكى كيومئذ ، فبكوا لبكائه ، فسئل فقال : « أذن لى ربى فى

زيارة أمى ولم يأذن لى فى الاستغفار ، ثم صليت ركعتين بعد الركعتين فأعدت الاستئذان فزجرت زجرا ، فزوروا القبور فإنها تذكر الموت » ثم دعا براحلته فركبها فسار قليلا ، فوقفت الناقة لثقل الوحى فنزل فى نهيه ونهى المؤمنين معه أن يستغفروا للمشركين ، وفى عذر إبراهيم والنهى عن القيام عليه قوله تعالى :

(ما كانَ للنَّبِىِّ والَّذينَ آمنُوا مَعه أنْ يسْتغفرُوا للمشْرِكينَ ولوْ كانُوا أولى قُرْبَى) وأعمال حسنة ، كحسن الجوار ، وصلة الرحم ، وفك الأسير ، لأنهم ليسوا بأهل للاستغفار ، وهم أعداء لله ، ولأن الاستغفار لا ينفع فى المشرك بأن يخرجه من النار إلى الجنة ، وروى أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وجد أبا طالب فى دركة النار السفلى وغمراتها ، فشفع فيه لأنه كان يحوطه وينصره ويغضب له ، فأخرجه إلى ضحضاح من النار تبلغ كعبيه تغلى بها أم دماغه .

(مِنْ بَعْدِ ما تَبيَّن) ما مصدرية والمصدر مضاف إليه (لَهم) بالموت على الشرك (أنَّهم أصْحابُ الجَحيمِ) فاعل بالتأويل ، أى من بعد ما تبين لهم كونهم أصحاب الجحيم وصحبتها ، أى استحقاقهم لها ، وملابستهم لها بعد ، وهذه الآية أفادت أنه لا يحل الاستغفار لمن مات على الشرك ، وأفادت الآى الآخر أنه لا يتولى المشرك ولو كان حيا ، فلا يستغفر له ، وأفاد مثل قوله عز وجل : « لا تتخذوا الكافرين » وهم ما يعم المنافق والمشرك « أولياء من دُون المؤمنين » أنه لا يستغفر للمنافق ، فإن من يستغفر له فقد تولاه ، وكذا الأحاديث الدالة على أن من فعل كذا لكبيرة غير شرك ملعون ، أو ليس منا كالإحداث فى الإسلام والغش .

وأيضا علة براءة المشرك مخالفة لأمر الله ، والمنافق مخالف أو المراد تبيين أنهم أصحاب الجحيم ، يبين ذلك لهم بالعلم بأنهم مشركون ماتوا أو عاشوا فإنه إذا علمت بشرك إنسان فقد تبين لك بظاهر الأمر أنه أهل للنار ، وبعد ذلك أهل للنار ، وبذلك الذى ذكرت كله يندفع استدلال القاضى بالآية على جواز الاستغفار للمشرك الحى ، من حيث إن الاستغفار له طلب لتوفيقه للإيمان ، ولئن سلمنا أن الآية دليل ، وقد ذكر شيخ الإسلام أنه منسوخ ، وأيضا العبرة بعموم اللفظ على الصحيح ، لا بخصوص السبب ، فالآية ولو سلمنا أنه نزلت فى الاستغفار للمشرك الميت خصوصا ، لكن لفظها عام فيعمل به •

(ومَا كانَ اسْتغفار إبْراهيمَ) وقرأ طلحة وما استغفر إبراهكم ، وروى عنه وما يستغفر إبراهيم على حكاية الحال الماضية (لأبيهِ) آزر (إلا عَنْ مَوْعدةٍ) مصدر ميمى زيدت فيه التاء شذوذا (وَعَدَها) إبراهيم (إيَّاهُ) بالمثناة أى أباه بالموحدة والتخفيف ، ويدل لذلك قراءة الحسن وعدها أباه بالموحدة والتخفيف ، وتلك الموعدة هى قوله لأبيه : « سأستغفر لك ربى » وقوله : « لأستغفرن لك » أى أدعو الله أن يغفر لك ذنوبك ولو لم تسلم ، لأن العقل يجوز أن يغفر للمشرك كذا قال جار الله قال : كما لا يؤاخذون بشرب الخمر ، وبيع الصاع بصاعين قبل النهى ، أو أن يوفقك للإسلام الذى هو جب لما قبله ، فيغفر لك ذنوبك ، وإنما وعده الاستغفار رجاء لإسلامه •

وقد جاز أن يكون المستتر فى وعد لأبيه ، فإياه لإبراهيم أى إلا عن موعدة وعدها أبوه له ، وهى أنه سيؤمن ، قال ابن هشام : عن للتعليل أى ويجوز إبقاؤها على أصلها فتعلق بحال محذوف ، أى إلا صادرا عن موعدة وإنما ساغ له استغفار باعتبار رأيه قبل نزول

الوحى ، فكأنه قال : إلا عن موعدة وعدها إياه لما أداه إليه رأيه قبل أن ينهـاه .

(فلمَّا تَبَيَّن) بإيحائنا (أنَّه عدوٌ لله) أى أنه لا يجوز لـه الاستغفار ، فعبر بالملزوم أو السبب عن اللازم أو المسبب ، فالملزوم أو السبب هو كونـه عدواً لله ، واللازم أو المسبب هو عدم جـواز الاستغفار ، فكأنه قال : إلا عن موعدة وعدها إياه قبل أن يتبين له أنه لا يجوز الاستغفار لـه ، فلما تبين له أنـه لا يجوز لعدوانـه بالكفر (تَبرَّأ منْه) انقطع عنه بترك الاستغفار ، هذا ما ظهر لى فى تطبيق الآيتين على المذهب ، وإن قلت : إنـه تبينت له العداوة على حقيقتها بالموت على الكفر ، أو بالوحى بأنه عدو لا يؤمن ، أو يموت إبراهيم ، ويكون التبرؤ على هذا فى الآخرة .

كما روى أنه يلقاه أغبر الوجـه أسوده ، فيقول : ألـم أقل لك لا تعصنى ؟ فيقول : لا أعصيك اليوم ، فيقول : يا رب وعدتنى أن لا تخزينى يوم البعث ، فقول الله تعالى : إنى حرمت الجنة على الكافرين ، فيصور أخبث ما يكون بصور ذكر الضباع ، فيقال : انظر ما تحت رجليك ؟ فينظر فيقول ألقوه فى النار ، قلت : إذا صح ذلك ولا بأس به ، فلمذهبنا أداة من خارج على منع الاستغفار للكفرة والمنافقين ، ولو لم تفد هذه الآية إلا منع الاستغفار بعد تبين أنه كافر .

(إنَّ إبْراهيمَ لأوَّاهٌ) بـالغ من الخـوف لله ، ومن النـار والخشوع ، والتضرع والدعـاء ، والتوبة والرحمة للناس ، والإيقـان والذكر ، والتسبيح وتعليم الخير ، ولزوم الطاعات ما هو غايته ، بحيث يكون له تنفس الصعداء ، وصوت الصدر ، واحتراق القلب ، فكـان

يقول أوه ليخف بعض ما به ، أوه من غضب الله ، فالأواه فعال بفتح الفاء وتشديد العين من أوه أى كثير التأوه وعظيمه (حَلِيمٌ) صبور على الأذى أو سيد لكمال عقله ، وهذه الجملة لبيان أنه مع هذه الرحمة منه ، والرقة والحلم تبرأ من أبيه حين أعلمه أنه عدو لله ، وقيل : لبيان أن حامله على الاستغفار مع صعوبة خلق أبيه شدة رحمته وحلمه .

(وما كانَ اللهُ ليُضِلَّ قَوماً) أى لينسبهم إلى الضلال ، أو ليحكم عليهم بحكم أهل الضلال (بَعْدَ إِذْ) إضافة بعد إلى إذ من إضافة العام للخاص للبيان ، فإن إذ خاص باعتبار المضاف إليه وهو قوله : (هَدَاهُمْ) إلى الإسلام .

(حَتَّى يُبيِّن لَهم ما يتَّقُون) أى يتركون ويحذرون ، فمن كان مسلما واستغفر لمشرك ، أو شرب خمرا ، أو فعل مثل ذلك قبل نزول تحريمه ، أو صلى إلى بيت المقدس قبل تحويل القبلة أو نحو ذلك من العمل بالمنسوخ قبل النسخ ، أو أخذ حكما يعمل به ، وغاب حيث لا يصله تقييد ذلك الحكم أو تخصيصه ، أو مات قبل أن يصله ، أو من غاب حيث لا تصله الفرائض المنزلة ، أو نسى فرضا كصلاة ظهر ، أو اسما من أسماء الله ، أو ملكا أو نبيا غير لفظ الجلالة ، وغير نبينا ، أو متولى ومتبرىء منه ، أو كان على دين نبى ولم يصله نسخ ذلك الدين ، مثل أن يكون على دين عيسى ولم يصله بعث نبينا صلى الله عليه وسلم عليهما ، ونحو ذلك مما لا يعلم تحريمه أو فرضه بالعقل فمعذور حتى يعلم .

وأما من لم يكن على هداية من الإسلام ، بل كان مشركا ، أو فعل ما يعلم تحريمه بالعقل كالظلم ، أو ترك ما يعلم فرضه بالعقل كالصدق فى الخبر فلا يعذر ، وذلك المذكور من عذر من كان على دين نبى ، ولم

يعلم ببعث نبينا صلى الله عليه وسلم مثلا هو مذهبنا معشر الأباضية المغربية ، ولم يعذره الأباضية النفوسية بنا ، على أن الحجة قامت بسماع وكتابة ورسالة ، وبتضييق لمن ليس على دينه ، وزعم عبد الله بن يزيد وشيعته أن الحجة الرسل ، وأنه لم يبق أحد إلا وقد سمع فى طفولية أو بلوغ .

(إنَّ اللهَ بكلِّ شىءٍ) كمستحق الإضلال أو الهداية ، وما يجب إلقاؤه وما لا يجب ، وما تحرجت به نفوسكم من العمل بالمنسوخ ، والعمل بما حرم العمل به بعد (عَليمٌ) بكل شىء لا يخفى عليه شىء .

(إنَّ الله لهُ ملكُ السمَوات والأرضِ) يحكم بما شاء من تحليل وتحريم ومعاقبة وغفر (يُحيى) الميت إذا شاء ولو فى الدنيا ، ويحييه فى الآخرة ، ويصير ما هو غير حى حيا كآدم خلقه من طين ، والنطفة خلق منها ما هو حى (ويُميتُ) ما هو حى من خلقه ، ويحيى ما يشاء على الإيمان ويميته عليه ، وعلى الكفر ويميته عليه ، أو الإحياء التوفيق والإماتة الخذلان .

(ومَا لكُم مِنْ دُونِ اللهِ من ولىٍّ ولا نَصيرٍ) فابغضوا فى الله ، وأحبوا فيه ، ولا تخافوا سواه ، ولا يكن لكم قصد فيما عداه من قريب أو بعيد .

(لقَدْ تابَ اللهُ عَلى النَّبىِّ والمهاجِرينَ والأنصارِ) أى أدام التوبة عليهم ، أو نجاهم من مواقعة الذنوب ، أو ذلك تحريض لسائر الناس والمؤمنين على التوبة ، بذكر توبة من لم يذنب ليؤنس من أذنب ، قال الشاذلى : أو تاب على هؤلاء فى اقتصارهم عن حال هى أفضل من

حالهم إذ لا أحد إلا وله مقام يستنقص دونه ما هو فيه ، والترقى إليه توبة من تلك النقيصة ، ففى ذلك بعث إلى التوبة ، وإظهار افضلها بأنها مقام الأنبياء والصالحين ، ولعظمة حق الله •

أو تاب على النبى فى إذنه للمنافقين بالتخلف ، وعلى المهاجرين والأنصار فى ما قد يصدر عنهم من خلاف الأولى ، ومن معصية ، إذ هم غير معصومين لكن يتوبون رضى الله عنهم ، أو فيما وقع فى قلوب بعضهم من الميل إلى القعود عن تبوك ، لأنها فى وقت الشدة ، وفى قدوم بعضهم من أنه لا نقدر على قتال الروم فى هذه الشدة وفى بلادهم ، أو ذلك افتتاح كلام بلين وبركة ، أو تاب على المهاجرين والأنصار فيما صدر منهم ، وذكر النبى تشريفا لهم ، كما يذكر اسم الله تشريفا لرسوله كقوله : « فأن لله خمسه » على ما مر ، بل فى ذكر النبى صلى الله عليه وسلم على كل وجه من تلك الأوجه تنبيه على عظم مراتبهم فى الدين •

(الَّذِينَ) نعت المهاجرين والأنصار (اتَّبَعُوه فى ساعَةِ العُسْرة) هى وقت غزوة تبوك ، كانوا فى عُسرة الظهر يتعاقب العشرة على بعير ، وفى عُسرة الطعام ، وإنما كان طعامهم التمر المدوّد ، والشعير المسوّس ، والشاء العجاف ، يقتسم الاثنان التمرة وربما مص الجماعة تمرة يلوكها واحد حتى تخرج الطعم ، ويتداولونها كذلك حتى لا يبقى إلا نواتها ، ويشربون الماء على ذلك ، ويعطشون حتى إن الرجل يوما لينحر بعيره فيمص فرثه ، وتجعل ما بقى على كبده ، وحتى ظنوا أن رقابهم ستقطع بالعطش ، ويذهب الرجل يلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته تتقطع •

ذكر ابن عباس ، عن عمران أن أبا بكر قال : يا رسول الله قد عودك فى الدعاء خيرا فادعو الله ، فقال : « أتحب ذلك ؟ » قال : نعم، فرفع يديه فلم يرجعهما حتى أظلمت السماء ثم سكبت وملئوا أوعيتهم ، وذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر ، وكانوا فى شدة الحر والجدب ، ومضوا رضى الله عنهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك أصدقهم ويقينهم ، تخرج الجماعة وما معهم إلا التمرات وجملة العسكر سبعون ألفا بين راكب وماش ، ومهاجر وانصارى وغيرهما ، وسموا جيش العسرة ، وسميت الغزوة غزوة العسرة ، كما سمى الله سبحانه وتعالى وقتها ساعة العسرة ، والساعة كثيرا ما تستعمل فى مطلق الزمان ولو طويلا ، جهز فيها عثمان بن عفان بألف جمل ، وألف دينار ، وقيل : على ألف إلا خمسين ، وأكملها خيلا ، وجهز رجل من الأنصار سبعمائة وسق .

(مِنْ بَعْدِ ما) مصدرية (كَادَ) فيه ضمير الشأن ، وقلوب فاعل تزيغ ، والجملة خبر كاد ، وفيه ضمير المهاجرين والأنصار ، وأفرد لتأويلهم بالقوم ، والجملة بعده خبر ، والرابط هاء منهم ، أو قلوب اسم كاد ، وفى تزيغ ضمير القلوب ، لأن الخبر الفعلى ، ولو امتنع تقديمه ، لكن محل الامتناع ما إذا لبس تقديمه بالفعل والفاعل ، مثل أن تقول فى زيد قام : قام زيد ، ولا لبس هنا ، لأنه لا بد لكاد من اسم لا كما قيل : إنه يمتنع تقديم الخبر الفعلى مطلقا ، ولا ما قيل : إن خبر كان لا يتقدم على اسمها ولا مفردا .

ولا يجوز أن يتنازع كاد وتزيغ فى قلوب على إعمال الأول ، لأنه لو كان ذلك لأضمير فى كاد فيقال : كادت بحرف التأنيث ، لأن فيه حينئذ ضمير القلوب ، إلا إن قيل فيه ضمير القلوب ، وذكر لإضافته لمذكر لو استغنى به لصح ، وهو الفريق ، والفريق يجوز إفراده وتذكيره ، أو

قيل : مذهب الكسائى ، وهشام ، والسهيلى بوجوب حذف الضمير من الأول ، إذا أهمل ، لكنه ضعيف ، ورد كلام العرب بخلافه قال الشاعر :

❋ جفونى ولم أجْفُ الأخلاء ❋

(تزيغُ) تميل ، وقرأ حمزة وحفص بالتحتية لظهور الفاعل مع مجازية تأنيثه ، وقرأ ابن مسعود من بعد ما زاغت (قلوبُ فريقٍ منْهم) عن الثبات على الإيمان ، واتباع الرسول من أول الأمر ، أو بعد الخروج ، ووقوع الشدة ، لكن تداركهم الله برحمته فصبروا واحتسبوا كما قال :

(ثمَّ تابَ عليْهم) فلا تكرار ، ولكن التوبة الأولى على غير هذا الزيغ ، وهذه عليه ، أو كلتاهما عليه ، وكررت للتأكيد ذكرت قبل ذكر الذنب تفضلا وتطييبا للقلوب ، ثم بعد ذكره تعظيما لهم ، وإعلاما بعفوه عنهم فيه ، وللتنبيه على أنه يتاب عليهم لأجل مكابدتهم العسرة .

(إنهُ بهِم رءوفٌ) رفيق لم يحملهم مالا يطيقونه (رَحيمٌ) منعم ، قيل : الرأفة لا تكون فى الكراهة ، والرحمة قد تكون فيها للمصلحة .

(وعلى الثلاثةِ الذينَ خُلِّفوا) عن الغزو ، وخلفوا عن التوبة بدليل « حتى إذا ضاقت » الخ ، ولم يخضعوا كما خضع أبو لبابة وأصحابه فأخرت توبتهم ، كما قيل : إنهم خلف أمرهم ، فقد قيل : إنهم المرجون لأمر الله ، ونسب لمجاهد ، كما روى عن كعب بن مالك وهو أحد الثلاثة : ليس بتخلفنا عن الغزو ، ولكن تأخير النظر فى أمرنا ، وقال الحسن : هم غيرهم ، والعطف على قوله عز وجل : « على النبى » وقرأ جعفر الصادق : خالفوا ، والأعمش : وعلى الثلاثة المتخلفين .

(حتّى إذا ضَاقَتْ عَلَيهم الأرْض بما رَحُبَتْ) الباء بمعنى مع ، وما مصدرية ، أى مع رحبها أى سعتها ضاقت عليهم خوفا من الله ، ولإعراض الناس عنهم بالكلية فضيقها ، مثل لاحيرة فى أمرهم ، كأنهم لا يجدون فيها مكانا يقرون فيه ، قال كعب ، وهو أحد الثلاثة : تحيرت حتى تنكرت الأرض فى نفسى ، فما هى بالأرض التى أعرف .

(وضَاقَت عَليْهم أنفسُهم) قلوبهم لشدة الوحشة والغم ، لا تأنس بشىء ، ولا تسر به ، وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يكلمهم أحد ، ولا يجالسهم ولا يأويهم أهلهم (وظَنّوا) علموا (أنْ) مخففة (لا ملْجأ منَ) غضب (الله) متعلق بمحذوف خبر لا ، وإلا كان ملجأ منونا (إلاّ إليهِ) أى إلا إلى استغفاره ، والاستثناء مفرغ أى إلى شىء إلا إليه ، فحذف قولك إلى شىء ، ويجوز كون من الله نعتا لملجأ وإليه خبرا ، وسئل أبو بكر الوراق عن التوبة النصوح فقال : أن تضيق على التائب الأرض بما رحبت ، وتضيق عليه نفسه ، كتوبة كعب بن مالك وصاحبيه .

(ثمّ تابَ عَليْهم) وفقهم للتوبة (ليتُوبُوا) أو قبل توبتهم ليعدوا فى جملة التوّابين ، وذكر التوبة مع ذكرها بقوله : « وعلى الثلاثة » تأكيدا أو الأولى بمعنى غفران الذنب ، وقوله : « ثم تاب » الخ بمعنى إزالة الوحشة ليستقيموا على الندم ، ويعدوا من جملة التوّابين ، أو ليعتادوا التوبة إذا أذنبوا بعد ، أو كررت لتكون بحيز ما فعلوا ، كما تقول : عفوت عن عبدى عصانى وتضرع إلى فعفوت عنه ، أو هذه توبة أخرى ، أى رجع عليهم بالتوبة والرحمة مرة أخرى ليستقيموا على التوبة ، ويطمئنوا .

وعلى كل حال فإنما بدأ بالتوبة تنبيها على تلقى النعمة ، ولو كان الكلام فى تعديد الذنب لكان الابتداء بما يليق بالمذنب ، وإنما شدد على هؤلاء الثلاثة لعظم شأنهم ، ففى تخلفهم حجة للمنافقين والطاعنين ، إذ هم : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع ، وكان كعب من أهل العقبة ، وصاحباه من أهل بدر ، وبقدر الترقى فى المعالى يشتد قبح المعصية والمكروهات ، وخلاف الأولى ، ألا ترى الثوب الشديد البياض والصفاء والنقاء والملاسة ، يتأثر فيه من الوسخ مالا يتأثر فى غيره ، ويظهر فيه منه ما لا يظهر فى غيره .

كتب الأوزاعى إلى أبى جعفر المنصور ، فى آخر رسالته ، اعلم أن قرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ان تزيد حق الله عليك إلا عظما ، ولا طاعته إلا وجوبا ، ولا الناس فيما خالف ذلك منك إلا إنكارا والسلام .

ولكنهم التجئوا إلى الله بالدعاء فتاب عليهم ، قيل : إذا نزلت بك نازلة فلا تبال بها ، والتجىء إلى الله بالذكر والعبادة والتفويض ، قال الله تعالى : « من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » أو بالصدقة أو بالدعاء فكيف بالجميع .

روى أنهم أوثقوا أنفسهم إلى السوارى فى المسجد ، وقيل أوثق واحد نفسه إلى سارية فيه ، وتصدق الآخر بجنّاته وقد أينعت ، إذ كانت سبب تخلفه ، وركب الآخر المفاوز حتى لحق برسول الله صلى الله عليه وسلم ورجلاه تسيلان دما .

وعن الحسن كان لأحدهم حائط — يعنى جنانا — خير من مائة ألف درهم ، فقال : أيا حائط ما خلفنى إلا ظلك وانتظار ثمرك ، اذهب فأنت فى سبيل الله • ولم يكن للآخر إلا أهله فقال : يا أهلاه ، ما بطأنى ولا خلفنى إلا الضن بك لا جرم والله لأكابدن المفاوز حتى ألحق برسول الله صلى الله عليه وسلم فركب ولحق به • ولم يكن للثالث إلا نفسه فقال : يا نفسى ما خلفنى إلا حب الحياة لك ، والله لأكابدن الشدائد حتى ألحق برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحمل زاده ولحق به قال الحسن كذلك ، والله المؤمن يتوب من ذنوبه ولا يصر عليها •

والمشهور أن الثلاثة الذين تخلفوا لم يلحقوه صلى الله عليه وسلم ، بل قعدوا حتى رجع ، أما كعب فلم يتخلف عن غزوة إلا غزوة بدر ، ولم يعاتب عليها أحد إلا غزوة تبوك ، ولقد شهد ليلة العقبة ، وما يحب أن له بها بدرا ، وكان لكعب ذكر فى الناس ، وكان يتردد فى الخروج لغزوة تبوك حتى تجهزوا ، وخرجوا وبعدوا ، وأخبر عن نفسه أنه ما جمع راحلتين عند غزوة إلا عند هذه ، وما كان مؤثرا مثل ما كان عند هذه ، وكان أميل القوم إليها ولكن لم يقدروا له الخروج ، ولما تخلف هاب أن يخرج من داره ، ولا يرى إلا رجلا معينا عليه بالنفاق ، أو معذورا ، ولم يذكره صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوكا فقال وهو جالس : « ما فعل كعب بن مالك » ؟

وقيل : ليت شعرى ما خلف كعب بن مالك ؟ فقال رجل من بنى سلمة : خلفه حسن برديه ، والنظر فى جانبيه ، فقال معاذ بن جبل : بئس ما قلت ، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا فضلا وإسلاما فسكت صلى الله عليه وسلم •

قال : ولما بلغنى أنه قفل من تبوك طفقت أتذكر الكذب وأقول : بماذا الخروج من سخطه غدا ، واستعنت بكل ذى رأى من أهلى ، ولما قيل : إنه قد أظل قادما زاح عنى الباطل ، فعزمت على الصدق ، فجاء المسجد فصلى ركعتين ، وجلس للناس ، وجاء المخلفون يعتذرون فقبل منهم فصفح الرسول صلى الله عليه وسلم عن المتخلفين وقبل عذرهم إلا ثلاثة نفر لمكانتهم وهم : كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية .

وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم الصحابة بقوله : « لا تكلمنَّ أحدا من هؤلاء الثلاثة » .

وقال كعب : حين تخلفت عن الرسول فى هذه الغزوة — غزوة تبوك — لم أكن فى يوم أقوى منى فى هذا اليوم الذى تخلفت فيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولقد هممت أن أرتحل فأدركهم ، وليتنى فعلت ، فلم أفعل وجعلت إذا خرج الناس وخرجت يحزننى أنى لا أرى ممن تخلف عن الغزو إلا رجالا مغموص عليهم ، ولم يذكرنى النبى صلى الله عليه وسلم إلا عندما وصل تبوك فقال : « ما فعل كعب بن مالك ؟ » فقال معاذ : والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا .

فلما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم من تبوك حضرنى الحزن ، فجعلت أتذكر الكذب وأقول : بما أخرج من سخط رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ولما أظل صلى الله عليه وسلم قادما انزاح عنى الباطل والكذب وعرفت أنى لا أنجو إلا بالصدق .

وجاء المخلفون فجعلوا يحلفون له ويعتذرون ، فيقبل منهم النبى صلى الله عليه وسلم علانيتهم وأيمانهم ، ويكل سرائرهم إلى الله تعالى ، ثم جئت وسلمت ، فتبسم تبسم المغضب ، ثم قال لى : « تعالَه » فجئت حتى جلست بين يديه ، فقال لى : « ما خلفك ؟ ألم تكن ابتعت ظهرك ؟ » فقلت : لقد علمت إن حدثتك اليوم حديثا كذبا لترضين عنى ، ولكن يوشك الله أن يسخطك علىَّ ، وإن حدثتك صادقا تغضب علىَّ فيه ، والله يا رسول الله ما كان لى عذر .

فقال صلى الله عليه وسلم : « أما هذا فقد صدقت فيه فقم حتى يقضى الله فيك » فقمت فجاء رجال من بنى سلمة وحرضونى على أن أعتذر لرسول الله ، وكدت أفعل وأعود إليه وأكذب نفسى وعلمت أن زميلىَّ قالا مثل قولى فلم أفعل وعلمت أن الرسول نهى عن كلامنا حتى يقضى الله أمرا فينا .

فأقمنا على ذلك أربعين ليلة من الخمسين ، ثم أكملنا العشرة الباقية من الخمسين ثم صليت الصبح ، صبح خمسين ليلة على ظهر بيت لى ، وقد ضاقت علىَّ الأرض بما رحبت ، وبينما أنا كذلك إذ سمعت صارخا يقول بأعلى صوته : يا كعب بن ملك أبشر ، فخررت ساجدا ، وعرفت أن قد جاء الفرج ، وآذن الرسول بتوبة الله علينا حين صلى الفجر ، فذهب الناس يبشروننا ، وركض رجل على فرس له وهو يصرخ بأعلى صوته على الفرس فلما جاء صاحب الصراخ كسوته ثوبىَّ وما أملك غيرهما ، واستعرت ثوبين ، وكذا صاحباى جاء إليهما مبشرون ، وقصدت رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلقانى الناس فوجا يهنئوننى بتوبة الله علىَّ ، ودخلت المسجد فهرول إلىَّ طلحة بن عبيد الله حتى صافحنى ، وما قام إلىَّ مهاجر سواه فلا أنساها له ، ولما سلمت على رسول الله

صلى الله عليه وسلم قال وهو يبرق وجهه من السرور : « أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك » قلت : أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال : « بل من عند الله » وكان إذا سر استنار وجهه كأنه القمر .

فلما جلست بين يديه قلت : يا رسول الله إن من توبتى أن أخرج من مالى صدقة لله ورسوله ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمسك بعض مالك فهو خير لك » وفى رواية : « أمسك عليك الشطر » وقيل : « الثلث » فقلت : أمسك سهمى الذى بخيبر ، وقلت : يا رسول الله إنما نجانى الله بالصدق ، وإن من تمام توبتى أن لا أحدث إلا صدقا ما بقيت . وما علمت بعد ذلك أصدق منى إلى يومى هذا ، وما تعمدت كذبة ، وإنى لأرجو أن يحفظنى الله فيما بقى ، والله ما أنعم الله علىّ بعد الإسلام نعمة أعظم من صدقى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ لم أكذب كما كذب المتخلفون ، فنزل فيهم : « سيحلفون لكم إذا انقلبتم إليهم » إلى قوله : « الفاسقين » .

(إنَّ اللهَ هُوَ التَّوابُ) لمن تاب ولو عاد فى اليوم مائة مرة ، وتوبة الله تستعمل بمعنى قبول توبة العبد ، لمن تاب الكناية عن إقبال الله إلى عبده وتعرضه توبته ، وعدم الإعراض عنه ، وبمعنى توفيقه إلى التوبة ونحو ذلك (الرَّحِيمُ) المتفضل بالنعم .

(يا أيُّها الَّذينَ آمنُوا اتَّقوا اللهَ) فيما لا يرضاه (وكونُوا مَعَ الصَّادِقينَ) قولا وعملا ووعدا ونية وتوبة ، كالنبى صلى الله عليه وسلم ، والمهاجرين والأنصارى ، والثلاثة المخلَّفين إذ صدقوا ولم يعتذروا بباطل ، وصدقوا فى توبتهم ، فإن الصدق يهدى إلى البر ، والكذب

[يهدى] إلى الفجور ، قال ابن مسعود رضى الله عنه : لا يصلح الكذب فى جد ولا هزل ، ولا أن يَعِدَ أحدكم صبيه ثم لا ينجزه ، اقرءوا إن شئتم : « وكونوا مع الصادقين » فهل فيها من رخصة ، وجاء بالصدق بعد قصة الثلاثة وأمر به تنبيها عليه ، وإغراء به ، إذ نفعهم وذهب بهم عن منازل المنافقين ، كما يعترض فى أثناء الكلام بما يجب التنبيه عليه ، وقد قيل : هم الثلاثة ، أى كونوا معهم فى الصدق والثبات ، فوضع الظاهر موضع الضمير مدحا لهم بالصدق .

وقال الكلبى : الخطاب لمن آمن من أهل الكتاب أن يكونوا مع المهاجرين والأنصار ، وفى جملتهم وصدقهم ، وقيل : لمن تخلف من الطلقاء عن تبوك ، وقيل : كونوا مع المهاجرين فى الهجرة فهاجروا مثلهم ، ويلزم على هذا أن تكون الآية قبل الفتح وهو ضعيف .

وفسر أبو بكر رضى الله عنه الصادقين بالمهاجرين ، لما قالت الأنصار يوم السقيفة : منا أمير ومنكم أمير ، قال : مَنِ الصادقون فى قوله تعالى : « للفقراء المهاجرين » ؟ الآيــة ، قالوا : أنتم ، قال : فإنــه يقول : « وكونوا مع الصادقين » فأمركم أن تكونوا معنا ، ولم يأمرنا أن نكون معكم ، نحن الأمراء وأنتم الوزراء ، وفسر بعضهم مع بمن ، قلت : يرده أن معنى الاسم المطابقى لا يكون كمعنى الحرف ، بل يكفى فى ذلك أنه إذا كان الإنسان على ما كان عليه الآخر من حال صح أن يقال : إنه معه ، وقرأ ابن مسعود ، وابن عباس رضى الله عنهما : وكونوا من الصادقين .

(ما كانَ لأهْلِ المدِينَةِ ومَنْ حَوْلهم مِنَ الأعْرابِ) كمزينة ، وجهينة ، وأسلم ، وغفار وغيرهم (أنْ يتخلَّفوا عَنْ رسُولِ اللهِ) إذا

غزا بنفسه ولو لم يأمرهم (ولا يرْغَبوا) عطف على يتخلفوا ، ولا نافية أو استئناف ولا ناهية (بأنفسِهم عَنْ نفْسهِ) بأن يصونوها عما لم يصنها من شدائد ، بل يجب عليهم أن يكابدوا معه الشدائد ، ولا يقيموا لأنفسهم وزنا إذ كابدها بأعز نفس ، والنفى فى الموضعين بمعنى النهى ، وهو أبلغ من صريح النهى مع تقبيح التخلف والتوبيخ عليه ، وذلك خاص بالنبى .

وقيل : إذا قل الإسلام مطلقا ، وقيل : حق لكل إمام إذا عزا بنفسه لا يتخلف عنه أحد ، وقيل : ما كان لهم التخلف عنه إذا دعاهم للخروج ، وهكذا سائر الأئمة ، وذلك فى الغزو للإدخال فى الإسلام ، وإما إن نزل العدى بجهة فمتعين على كل أحد القيام بذبّة ، وقيل : ذلك إخبار بأن ما صدر عنهم من التخلف عن تبوك قبيح غير جائز ، وهو أيضا متضمن للنهى عن مثله .

(ذَلكَ) النهى عن التخلف ، أو وجوب المتابعة بأنهم أى لأنهم (لا يُصيبُهم ظَمأ) أى عطش ، وقرأ عبيد بن عمير ظماء بالمد (ولا نَصبٌ) تعب (ولا مخْمصَةٌ) جوع ، فهو مصدر ميمى ، والخموص الضمور ، وإذا جاع الإنسان كان بطنه ضامرا (فى سَبيلِ اللهِ) طريق الجهاد .

(ولا يَطئونَ) يضعون قدما بأنفسهم أو بمراكيبهم (مَوْطِئا) موضع وطء أو وطئا فهو اسم مكان أو مصدر (يَغيظُ الكفّارَ) لكونه فى أرضهم ، والجملة صفة موطئا ، ويجوز تفسير الوطء بالإهلاك ، إذ هو مما قد يترتب على الوطء بالأقدام .

(ولا ينَالُون مِنْ عدوٍّ نَيلاً) مصدر فهو مفعول مطلق ، أو

بمعنى اسم مفعول به من نال ينال ، لا من نال ينول نولا ، وأبدلت الواو ياء لخفتها هنا كما زعم بعض ، كقتل وأسر وغنيمة وهزيمة ، وما يوهنهم أو يغمهم .

(إلا كُتِبَ لَهم به) أى بكل واحد مما فعلوا من ذلك (عَمَلٌ صَالحٌ) أى ثواب عمل صالح فحذف المضاف ، أى ثواب عمل صالح من مطلق الأعمال الصالحة ، والخاص غير العام ، فساغ الكلام ، ولو كان الواحد من ذلك هو نفس عمل صــالح ، هذا ما يظهر لى فى بيــان الكلام ، وظهر لى وجه آخر وهو أن يكون قوله به من التجريد البديعى وهو أبلغ ، كأنه تجرد لهم بهذا العمل الصالح الذى هو واحد مما ذكر إصابة الظمأ ، أو ما بعدها عمل صالح آخر لقوته ، فالمراد من كتابته الجزاء عليه ، كأنه قيل : كتب لهم ليجازوا عليه .

روى أن ذنوب المجاهد جسر على باب بيته ، إذا خرج قطعها ، فهو كيوم ولد له بكل خطوة أو عمل سبعمائة حسنة ، وإن مات ولو بغير قتال فى وجهته فشهيد ، وفراغ زاده خير خمسين حجة ، ولا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخان جهنم ، فى منخر عبد مسلم ، ومن اغبرت قدماه ساعة فيه حرم على النار ، والذكر فيه بسبعمائة كالنفقة فيه ، وروحة أو غدوة فيه خير من الدنيا وما فيها ، وما ازداد فيه بعدا عن أهله إلا ازداد من الله قربا ، ودمه فيه يجىء يوم البعث لونه لون الدم وريحه ريح المسك وأفضل الناس من جاهد بنفسه وماله ، ثم رجل فى شعب يعبد الله وسلم الناس من شره ، وجاء أعرابى بناقة مخطومة ، فقال : هذه فى سبيل الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : « لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة مخطومة » .

(إنَّ اللهَ) تعليل جملى لكتب (لا يُضيعُ أجْرَ المحْسِنينَ) أى

محسن كان ، وبأى إحسان كان ، أو المراد هؤلاء الذين يجاهدون ، فوضع الظاهر موضع الضمير مدحا لهم بالإحسان ، وتنبيها على أن الجهاد إحسان ، لأنه حفظ للإسلام والمسلمين ، وحرمهم وأموالهم ، وسعى فى إصلاح الكافر بغاية ما يمكن ، كضرب الدابة والمجنون حال إضرارهما بإنسان أو دابة زجرا ، والآية دليل على أن من قصد خيرا كان سعيه فيه مشكورا ، من قيام ، أو قعود ، أو مشى ، أو كلام بعكس الشر ، حتى إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أسهم لابنى عامر إذ قدما بنية الحرب وقد انقضت .

وأمد أبو بكر رضى الله عنه المهاجرين أبى أمية ، وزياد بن أبى لبيد ، بعكرمة بن أبى جهل مع خمسمائة نفس ، فلحقوا المهاجر ومن معه وقد فتح ، فأسهم لهم ، وقال الشافعى : لا يشارك المدرك الغانمين فأما إسهام رسول الله صلى الله عليه وسلم فلعله من سهم الله ورسوله ، فتوهم الرأى والراوى أنه من سهم الغزاة ، وأما إسهام أبى بكر لعكرمة وخمسمائة فلأنه الذى أرسله .

(ولا ينْفِقُون نَفقةً صَغيرةً) ولو تمرة أو أقل (ولا كَبيرةً) كألف بعير ، وسبعين فرسا وما فوقها أو أقل منها كمائتى بعير بأقتابها وأحلاسها ، مع مائة أوقية ، وقدم الصغيرة إيذانا بأن الصغيرة إذا كتبت فالكبيرة أحرى ، وبأن الصغيرة غير ضائعة ، وترغيبا فى النفقة ، حتى إن أفقر الفقراء يمكنه الإنفاق على قدر إمكانه .

(ولا يقْطَعون وادياً) بالسير وهو منفرج بين الجبلين ، أو أكمتين يسيل فيه السيل ، ويطلق على المسيل مطلقا ، ويطلق على الأرض مطلقا ، وهو المراد هنا ، وهو شائع ، ويجمع على أودية قال بعض : ليس فى كلام العرب فاعل وأفعلة إلا واد وأودية ، وهو فى

الأصل اسم فاعل ودى أى سال (إلا كتب لهم) ذلك المذكور من الإنفاق ، وقطع الوادى ، أو إلا كتب لهم العمل الصالح .

(ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون) ما مصدرية أو اسم ، وأحسن واقع على الجزاء ، ويقدر مضاف بعده ، أى أحسن جزاء كونهم يعملون ، أو أحسن جزاء ما كانوا يعملون ، أو على العمل فيقدر مضاف قبله ، أى جزاء أحسن كونهم يعملون ، وجزاء أحسن ما يعملونه ، فإن فى أعمالهم فرضا ومندوبا ومباحا ، لا يعجزه ثواب العمل الأحسن ، فكيف يعجزه ثواب سواه ، ويأتى بحث ذلك إن شاء الله تعالى .

وهو مفعول مطلق أولى من كونه منصوبا على تقدير الباء ، وقول الفخر يجزيهم جزاء أحسن من أعمالهم ، تفسير معنى عندى ، وإلا فهو يقتضى أن أحسن مضاف إلى ما ليس عاما له ، وأفعل التفصيل لا يجوز فيه ذلك ، لا تقول : فرسى أحسن البقر ، يجر بمن على الصحيح ، ولما وبخوا على التخلف ، وأنزل الله سبحانه عيوب المتخلفين ، قال المسلمون : والله ما نتخلف عن غزوة يغزوها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا سرية يبعثها ، فبعث ، فبعث سريا ونفر المسلمون جميعا ، وتركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده بالمدينة فنزل .

(وما كان المؤمنون لينفروا كافة) إلى الغزو ، أى ما يستقيم لهم ذلك ، فقوله عز وعلا : « ما كان لأهل المدينة » فيما إذا نفر رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه مطلقا ، أو فيما إذا نفر واستنفرهم للحاجة إليهم ، وقوله : « وما كان المؤمنون » فى بعثة السرايا فلا نسخ ، قاله ابن عباس ، والضحاك ، وقتادة ، وإنما هى استثناء ، ومعنى مراد فى قوله : « ما كان لأهل المدينة ومن حولهم » إلخ ونحوه ، إذ لا يمكن أن يراد إيجاب عدم التخلف عليهم كأنهم أجمعين ، حتى لا يبقى من يحفظ الوحى ، واللام لتأكيد النفى .

(فَلَوْلا) هلا (نَفَرَ من كلِّ فرقةٍ) جماعة كثيرة كقبيلة وأهل بلدة (منْهُمْ) نعت فرقة (طائفةٌ) جماعة قليلة ومكث الباقون ، وذلك يدل على أن الفرقة أكبر من الطائفة ، لأن القليل هو الذى ينتزع من الكثير ، وقد يقال : إنهما سواء فى جواز الإطلاق على العدد القليل والكثير ، فإذا أطلق أحدهما على الكثير صح استثناء الآخر منه ، على أنه مستعمل فى القليل ، كما يجوز هذا ولو فى اللفظ الواحد ، تقول : جاءت من الفرقة الكثيرة فرقة قليلة ، أو من الطائفة الكثيرة طائفة قليلة ، صرح الجوهرى باستوائهما .

(ليتَفقَّهوا) ليتكلفوا العلم عن الرسول (فى الدِّينِ) والواو للماكثين أو للكل باعتبار الماكثين إسنادا لما للبعض إلى الكل ، ولأن تفقههم تفقه للنافرين ، لأنهم يعملونه ، والفقه لغة الفهم والعلم فى الدين أو غيره ، وذلك قيد فى الآية بالدين ، لأنه المراد ، والقرآن نزل بلغة العرب ، ثم خص فى عرف العلماء بعلم الدين ، وقيل : الفقه الوصول إلى علم غائب بعلم شاهد ، فهو أخص ، واللام متعلق بمكث المقدر ، أى ومكث الباقون ليتفقهوا ، أو ينفروا ، لأن المعنى هلا اقتصروا على نفور طائفة كذا ظهر لى .

(ولينْذِرُوا) أى الماكثون (قَوْمَهم) وهم الطائفة النافرة (إذا رجَعُوا) أى هؤلاء النافرون (إليهم) من الغزو بتعليم ما تعلموه من الأحكام بالسنة ، أو بنزول القرآن حال غيبة النافرين (لَعلَّهم يحْذَرُونَ) العقاب بالائتمار والانتهاء ، فإن العلم فرض كفاية فى صور ، وفرض عين فى أخرى ، وإذا ضيع فرض الكفاية ضيع فرض العين ، والآية دليل على عظم العلم والتعليم ، إذ جعلا فى مقابلة الجهاد ، بل هما أفضل إذ بهما يعرف الجهاد ، ويحيا الدين لما بعد ، بل هما الجهاد

الأكبر ، لأن الأصل فى الجهاد هو الجدال بالحجة ، وإنما يعدل عنه إلى الجهاد بالسيف عند المكابرة والعناد .

واستدل بعضهم بالآية على أنه يقصد بالتعلم الإرشاد والتعليم والإنذار ، وخص الإنذار بالذكر لأنه أهم ، وذلك هو الذى ذهبت إليه مع نية نفى الجهل عن نفسه ، وبنية فضيلة العلم ، وعدم فصل الترفع على الناس ، واقتناء الأموال والجاه ، وعلو الصيت ، ولكنى أقول ذلك من خارج لا من الآية ، لأن التعليل فيها للنفر والمكث ، من حيث إنه مفعول ، فإنك إذا قلت إيت لأكرمك ، لا تريد أقصد بإتيانك الإكرام ، بل تريد أنى أقربك بالإتيان لتأتى لأكرمك فافهم ، وبذلك قال الشيخ إسماعيل الجيطالى .

وقال أبو العباس أحمد بن محمد بن بكر : لا يجوز أن يقصد بتعلمه التعليم ، والآية أيضا دليل على أن إخبار الآحاد حجة إذ رتب الحذر على إنذار الطائفة الصادقة بثلاثة فأكثر للفرقة ، وقالت فرقة : هذه الآية ناسخة لقوله : « ما كان لأهل المدينة » ونحوه من كل ما ورد فى إلزام الكل النفير ، وقالت فرقة : سمع المؤمنون الذين سكنوا البادية ، والذين بعثوا إليها بعليم الشرع قوله : « ما كان لأهل المدينة » إلخ ، فافهم ذلك .

ونفروا إلى المدينة خشية الإثم فى تخلفهم ، فنزل : « وما كان المؤمنون » إلخ ، وعلى هذا فالمراد النفير إلى المدينة ، وعلى هذا يكون قوله : « فلولا نفر » أنفالا وإعراضا من أمن الغزو التحريض بنفير الطائفة من كل للتفقه ، وإنذار الباقين ، كأنه قيل : لا نفير على المؤمنين كلهم ، بل يكفى ما احتاج إليه الرسول ، ودعاء فيما عليهم النفير إلى المدينة ، بل عليكم أن تنفر منكم طائفة إليها لتزداد تفقها ، وتنذر الباقين .

وقالت فرقة : لما نزلت الآية فى المتخلفين ، قال المنافقون أو الناس مطلقا : هلك أهل البادية ، فنزل : « وما كان المؤمنون » إلخ مقيما لعذر أهلها ، ومبينة لكون المعنى ما كان لأهل المدينة ومن حولهم أن يتخلفوا إذا دعاهم الرسول ، أو غزا بنفسه ، أو مشعرة بكون المعنى ما كان لجمهور أهل المدينة ومن حولهم .

وقيل : سبب الآية أنهم نفروا كلهم للتفقه ، فأمرهم الله أن تنفر طائفة للتفقه وتنذر الباقين ، وقيل : دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على مضر بالسنين ، فأقبلوا إلى المدينة مدعين الإسلام وما هم بمسلمين ، وأفسدوا طرقها ، وضيقوا على أهلها ، وجعلوا يسألون عن أمر الدين فيما يزعمون ، وإنما أرادوا المعيشة ، فكنى الله سبحانه عن كونهم غير مؤمنين بقوله : « وما كان المؤمنون » إلخ بمعنى أنه ما هذه صفة المؤمنين من النفير كلهم ، وإنما صفتهم أن تنفر طائفة للتفقه فترجع لتخبرهم .

وعلى هذه الأقوال يكون المتفقهون المنذرون الراجعون هم الطائفة النافرة ، وقيل : المعنى ليتفقه النافرون ، بما يريهم الله من نصر المؤمنين مع قتلهم ، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم بما أراهم الله من النصر والقتل والسبى والغنيمة ، فيحذرون الكفر والنفاق ، ووجه كون ذلك تفقها فى الدين أن ذلك زيادة فى إيمان النافرين ، وهو ضعيف من حيث توجيه التفقه بذلك ، والمشهور أن التفقه تعلم الشريعة ، وفى الحديث : « فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد » و « فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم » و « من سلك طريقا يلتمس علما سهل الله له طريقا إلى الجنة ، وكان فى سبيل الله حتى يرجع » و « عالم معلم يدعى عظيما فى ملكوت السموات » و « العلم أفضل من النافلة » ورد

هذا حديثا بالمعنى وأثرا ، والعلم آية محكمة أى غير مشتبهة أو غير نسوخة ، وسنة قائمة أى منسوخة وفريضة عادلة ، أى لا جور فيها •

(يا أيُّها الَّذينَ آمنُوا قاتِلُوا الَّذينَ يلُونكُم مِنَ الكفَّارِ) كقريظة والنضير ، وخيبر وفدك ، ثم بعدهم روم الشام ، ثم العراق ، وهذا الأقرب فالأقرب لتتقووا بقائمهم ، ومن يسلم منهم على البعيد ، وتكون مدنهم كمدنكم ، وأهلا تخلفوهم من ورائكم ، إذ كانوا مماركين أو مدعين أو مصالحين •

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ربما تجاوز قوما إلى آخرين ، فكفه الله عز وجل عن ذلك لما ذكر ، ولكون الأقرب نسبا أو موضعا أولى بالشفقة والإصلاح ، كما أمر الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أولا بإنذار عشيرته ، وقاتل قومه ، ثم غيرهم من الحجاز ثم الشام ، وفتحته الصحابة بعده ، ثم فتحوا العراق ، وهكذا يجب على أهل كل ناحية أن يقاتلوا من وليهم ، ما لم يضطروا إليهم أهل ناحية أخرى ، بوقوع العدو عليهم ، فيجب حينئذ على من بعد عنهم أن يقاتل معهم إن قدر ، وهذا هو الصحيح عندى ، وقيل : المراد قريظة والنضير ، وخيبر وفدك ، وقيل : الشام لأنه أقرب إلى المدينة من العراق وغيره ، وهذا على أن الآية نزلت بعد فتح قريظة وما ذكر ، وقيل : العرب، ولما قوتلوا نزل فى الروم وغيرهم : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله » إلى قوله : « صاغرون » •

وقيل : الديلم ، وقيل : نزلت هذه الآية : « يا أيها الذين آمنوا » الخ قبل الأمر بقتال الكفار كافة ، ثم نسختها آية الأمر بقتالهم كافة ، وهى قوله : « وقاتلوا المشركين كافة » ويرده أن هذا على تسليمه ليس بنسخ ، بل زيادة ، ويرده أن هذه الآية من أواخر ما نزل ، فقوله : « قاتلوا المشركين كافة » نزل قبلها :

(وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً) أى كونوا بحال يجدون فيكم بها غلظة ، أى شدة وقوة وشجاعة وصبرا ، فعبر بالمسبب أو اللازم وهو وجودهم الغلظة فى المؤمنين عن السبب ، أو الملزوم ، وهو كون المؤمنين بتلك الحال ، وقرأ الأعمش بفتح الغين وهو رواية المفضل عن عاصم ، وقرأ ابن أبى عبلة ، وأبو حيوة ، وعاصم فى رواية عنه بضمها ، ورويت الثلاثة عن أبى عمرو ، وهى لغات .

(واعلموا أنَّ اللهَ مَعَ المتَّقينَ) بالنصر والعون . قال بعض الصحابة : إنما تقاتلون الناس بأعمالكم .

(وإذا مَا) صلة لتأكيد جواب إذا (أُنزلتْ سُورةٌ فمنْهُمْ) أى من المنافقين (مَنْ يقُولُ) إنكارا واستهزاء (أيُّكم) وقرأ عبيد بن عمير بالنصب على الاشتغال ، ويقدر المحذوف بعدها ، لأن لها الصدر أى أيكم زادت (زَادتْهُ هذه إيماناً) والخطاب من بعض المنافقين لبعض ، وقيل : من بعضهم لبعض المؤمنين المحقرين ، أو لبعض المؤمنين الذين هم ذووا قربى ، الذين طمعوا فى أن يتركوا الإيمان كما يقول الإنسان منكرا : أى دليل فى كذا ، وأى غرابة فى كذا ، وإنما استهزءوا بزيادة الإيمان ، لأن المؤمنين يعتقدون زيادة الإيمان بنـزول القرآن ، ورد الله عز وجل عليهم بقوله :

(فأمَّا الَّذينَ آمنُوا فزادتهُم) أسند الزائد إلى السورة ، لأنها آلة له وسبب ، وإلا فالزائد الله سبحانه وتعالى (إيماناً) تصديقا لله ورسوله (وهُم يستَبْشِرُونَ) بنزولها ، لأنها سبب لزيادة إيمانهم ، وارتفاع درجاتهم ، وزوال ما قد يعرض من شبهة ، والآية دليل على زيادة ، وما صح اتصافه بالزائد ، صح اتصافه بالنقص ، لكن تحقيق زيادته على أوجه :

الأول : أن ينزل الوحى قرآنا أو غيره فيؤمنوا به زيادة على ما نزل به من قبل وآمنوا ، وسواء فى ذلك أمر التوحيد وغيره .

الثانى : أن ينزل الوحى بدليل آخر ، فيعرف الله بعدة أدلة .

الثالث : أن الرجل قد يعرض له شك أو شبهة ، فيرتفع بنزول الوحى ويرتقى عنه ، ويتخلص منه .

الرابع : أن يرسخ الإيمان فى قلبه بتكرر نزوله ، بحيث لا يخرج عنه إلى الكفر .

وأما زيادة الإيمان فى نفسه فلا يتصور ، لأنه تحصيل الحاصل ، مثل أن يكون زيد عندك معلوما ، فلا يمكن أن يزداد لك علمه ، وإنما تزداد علامة أخرى تقوى عملك به ، فتكون قد عرفته مثلا بدليلين فلعل الخلاف مشهور فى زيادته لفظى ، ثم رأيته قولا لبعضهم : إن الخلاف لفظى ، لأن الدار على عدم تفاوت الإيمان محمول على أصله الذى هو التصديق ، والدال على تفاوته محمول على ما به كماله وهو الأعمال ، وما يتقوى به من علامات قيل إنما هو اسم التصديق البالغ حد الجزم والإذعان وهو لا تتصور فيه زيادة ولا نقص .

ورجح قوم زيادته بزيادة الطاعة ، ونقصه بنقصها ، أو تركها وأنت خبير بأن كثيرا من الناس يشكون فى أمر الإيمان بعد التصديق به ، ولا ينقض إيمان الملائكة والأنبياء .

(وأمَّا الَّذينَ فى قُلوبهم مَرَضٌ) شك ونفاق أو شرك ، سمى ذلك مرضا لأنه فساد فى القلب يحتاج إلى علاج كالعرض (فَزَادتْهُمْ رجْساً) أى كفراً ، سمى رجسا تشبيها بالأشياء المتوسخة المنتنة ، أو بنفس النجس أو الوسخ ، أو لأنه يورث الرجس الذى هو العذاب ،

كما يطلق لغة على تلك الأشياء يطلق على العذاب (إِلَى رِجْسِهِم) أى مضموما إلى رجسهم السابق على نزولها ، أو مع رجسهم ، فإنهم كما أنكروا سورة أو آية أو وحيا ، أو شكرا فإن إنكارهم وشكهم كفر ازداد ، فإن المعصية نكتة سوداء فى القلب تزداد بازدياد المعصية ، حتى يسود القلب عكس الطاعة قيل : لو شق عن قلب مؤمن لوجد أبيض أو منافق لوجد أسود (وَمَاتُوا وَهُم كَافِرُونَ) لاستحكام ذلك فيهم •

(أَوَ لَا يَرَوْنَ) أى المنافقون ، وقرأ حمزة ويعقوب أولا ترون بالفوقية خطاب للمؤمنين ، وقرأ ابن مسعود والأعمش أولا ترى خطابا للنبى صلى الله عليه وسلم ، أو لكل من يصلح للخطاب ، وعن الأعمش : أو لم تروا ، وعنه أو لم تر (أَنَّهُم يُفْتَنُونَ) يختبرون (فِى كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَو مَرَّتَيْنِ) بأصناف البلايا كالجوع والقحط والمرض ، وقال الحسن ، وقتادة : بالأمر بالجهاد ، فيحضرون الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيعاينون ما يظهر عليه من الآيات والنصر ، وقيل : بإظهار الله سبحانه وتعالى نفاقهم ، قيل : هذا أولى مما ذكر •

ومن قول بعضهم : بأنهم يؤمنون ثم ينافقون ، ومن قول بعض : بأنهم يعاهدون وينقضون ، ويخبر الله نبيه بالنقض ، ويعاهدون ينقضون لمناسبته لما تقدم ، كأنه قال : أفلا يزدجرون مع افتضاحهم ، فيعلمون أن أمر محمد حق من الله ، وعن حذيفة رضى الله عنه : يفتنون بما يشيعه المشركون على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأكاذيب •

(ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ) عن نفاقهم ونقض العهد (وَلَا هُم يَذَّكَّرُونَ) يعتبرون •

(وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ) تعييهم وتوبيخهم (نَظَرَ بَعْضُهُم

إلى بَعضٍ) يتغامزون بالعيون إنكاراً لها وسخرية ، أو لئلا يغلبهم الضحك فيفتضحون ، أو غيظا بها ، والتغامز كالقول ، فجملة :

(هَلْ يَرَاكُم مِنْ أحدٍ) مقولة نظرا ، وقد فسره بعض بقال ، أو مفسرة أو مقولة لمحذوف ، أى يقولون : هل يراكم أحد من المؤمنين إن قمتم من حضرة محمد ، أو هل يراكم أحد حين تدبرون أموركم ، والأول أصح ، فإن لم يكن أحد يراهم قاموا لئلا يسمعوا ما يغيظهم كما قال :

(ثم انْصرفُوا) عن الحضرة ، أى إن لم يرهم أحد ، أو عن الإيمان بالسورة ، وعن الاهتداء لأنهم إذا فضحوا تعجبوا وتوقفوا ونظروه وتحققوا الأمر ، ثم ينصرفوا عن ذلك التوقف ، وذلك النظر ، وذلك التحقق إلى نفاقهم (صَرَفَ اللهُ قُلُوبهم) عن الإيمان كما انصرفوا عن ذلك ، وهو إخبار بدليل قوله : (بأنَّهم قومٌ لا يفْقَهون) أى بسبب سوء فهمهم ، أو عدم تدبرهم ، وقال الشيخ هود رحمه الله : إنه دعا دعاء ، وعن ابن عباس : لا تقولوا انصرفنا من الصلاة ، فإن قوما انصرفوا فصرف الله قلوبهم ، ولكن قولوا : قضينا الصلاة ، يشير إلى التأدب فى التلفظ .

(لَقدْ جَاءكُم رسُولٌ مِنْ أنفُسِكُم) أو من جنسكم العربى القريشى ، ومن جنسكم العربى ، ويعلمون أنهم من ولد إسماعيل ، ولا قبيلة من العرب إلا وفيها نسبه صلى الله عليه وسلم ، ذكره ابن عباس ، وما أصاب نسبه سفاح ، إن هو إلا عقد كعقد الإسلام فانصروه أيها العرب ، فشرفه شرف لكم ، فحاسده كحاسد نفسه ، وليس بأدناكم فتقولوا إنه ليس بأهل لذلك ، مع أن الله هو الذى يعلم حيث يجعل الرسالة .

وروى أنه لبٌ بنى هاشم الذين هم لبٌ قريش ، الذين هم لبٌ كنانة الذين هم لبٌ ولد إسماعيل وهكذا إلى آدم ، وأن ربيعة ومضر من ولد معد بن عدنان ، وإليه تنسب قريش ، وآمنة ولو كانت قريشية لكنها لها نسب فى الأنصار ، والأنصار من اليمن من ولد قحطان ، ومع أنه من نسبكم قد جمع ذلك الشرف ، وقد قرأ عبد الله بن قسيط بفتح الفاء : من أشرفكم وأفضلكم ، ورويت هذه القراءة عن فاطمة أيضا ، ورواه ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما ذكر أبو عمرو ، وفى ذلك كله منة على العرب ، وقال الزجاج : لقد جاءكم أيها الناس رسول من أنفسكم ، أى جنسكم الآدمى ، ولو كان من الملائكة لضعفتم عن الأخذ عنه .

(عَزِيزٌ) أى شديد نعت لرسول (عَلَيْهِ) متعلق بعزيز (مَا) مصدرية (عَنِتُّمْ) أى تعبتم ، والمصدر فاعل عزيز ، أى شديد عليه عنتكم ، أى يشق عليه أن تلقوا مكروها كجهنم ، وقتل وأسر ، أو عزيز خبر مقدم ، والمصدر مبتدأ والجملة نعت .

(حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ) على هدايتكم فى أمر الدين والدنيا (بِالْمُؤْمِنِينَ) متعلق بقوله : (رَءُوفٌ) وأسقط الأعمش وأهل الكوفة وأبو عمرو الواو (رَحِيمٌ) الرأفة أشد الرحمة ، وأبلغ فى الشفعة ، وأرق ، وقدمها للفاصلة ، وإلا فالصفة العامة قبل الخاصة مثل : زيد متكلم فصيح ، ولم يجمع الله سبحانه اسمين من أسمائه تعالى لأحد غير رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ قال : « رءوف رحيم » قاله الحسين ابن الفضل ، ومن أسمائه صلى الله عليه وسلم : الماحى ، لأنه يمحو الكفر ، والحاشر لأنه يحشر الناس على قدمه ، والعاقب لأنه آخر الأنبياء .

(فإنْ تَوَلَّوا) عن الإيمان (فَقُلْ حَسْبِىَ اللهُ) يكفينى أذاكم ويعيننى عليكم .

يكتب « فإن تولوا » إلى آخر السورة للعطف ، ومنع الكيد ، ومن قرأها ليلة الجمعة نصف الليل ثلاثين مرة يقول فى آخر كل مرة : أنت حسبى يا رب على فلان بن فلانة ، عطف قلبه علىَّ يعطفه الله سبحانه عليـه .

(لا إله إلاّ هُوَ) فهو الكـافى والمعين (عَلَيْه) لا على غـيره (تَوَكَّلْتُ) لا أرجو ولا أخاف سواء ، فلست منتهيا عن قتالكم ولا ضعيفا عنه (وهُوَ ربُّ العَرْشِ) الملك أو الجسم الأعظم ، المحيط الذى تنزل منه الأحكام والمقادير ، وعلى هذا فإنما بالذكر للتشريف أو لأنه أعظم المخلوقات فى الأشهر حتى قيل : إنه لا يقدر أحد قدره ، ولذلك وصفه بقوله : (العَظِيمِ) وقرأ بن محيصن بالرفع نعتا لرب ، وهو رواية عن ابن كثير ، وذكر بعض أن هاتين الآيتين لم توجدا حين جمع المصاحف إلا فى مصحف خزيمة بن ثابت ، وهو ذو الشهادتين ، ولكن لما جىء تذكرهما كثير من الصحابة ، وقد كان زيد يعرفهما ، وكذلك قال : فقدت آيتين من آخر سورة التوبة ، وكـان عمر لا يكتب آية إلا بشـاهدين حين جمع المصاحف ، وهو الجمع الأول ، ولما جاء بهما خزيمة قال : والله لا أسألك عنهما بينة ، فإن صفته صلى الله عليه وسلم هكذا وذلك خلافة أبى بكر لا عمر ، والجمع مثلى فى زمان عثمان .

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

تمت القطعة السابعة من تفسير القرآن العظيم من كلام رب العالمين ، ويتلوها القطعة الثامنة التى أولها سورة [يونس] عليه السلام ، من تصنيف الشيخ العالم الفقيه النحرير محمد بن يوسف السجينى الأباضى الوهبى المغربى ، أبقاه الله تعالى وزاده علما آمين
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم
ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم
وكان تمامها يوم سابع
من شهر المحرم
من شهور
سنة
١٣٠٧ هـ

مطابع سجل العرب